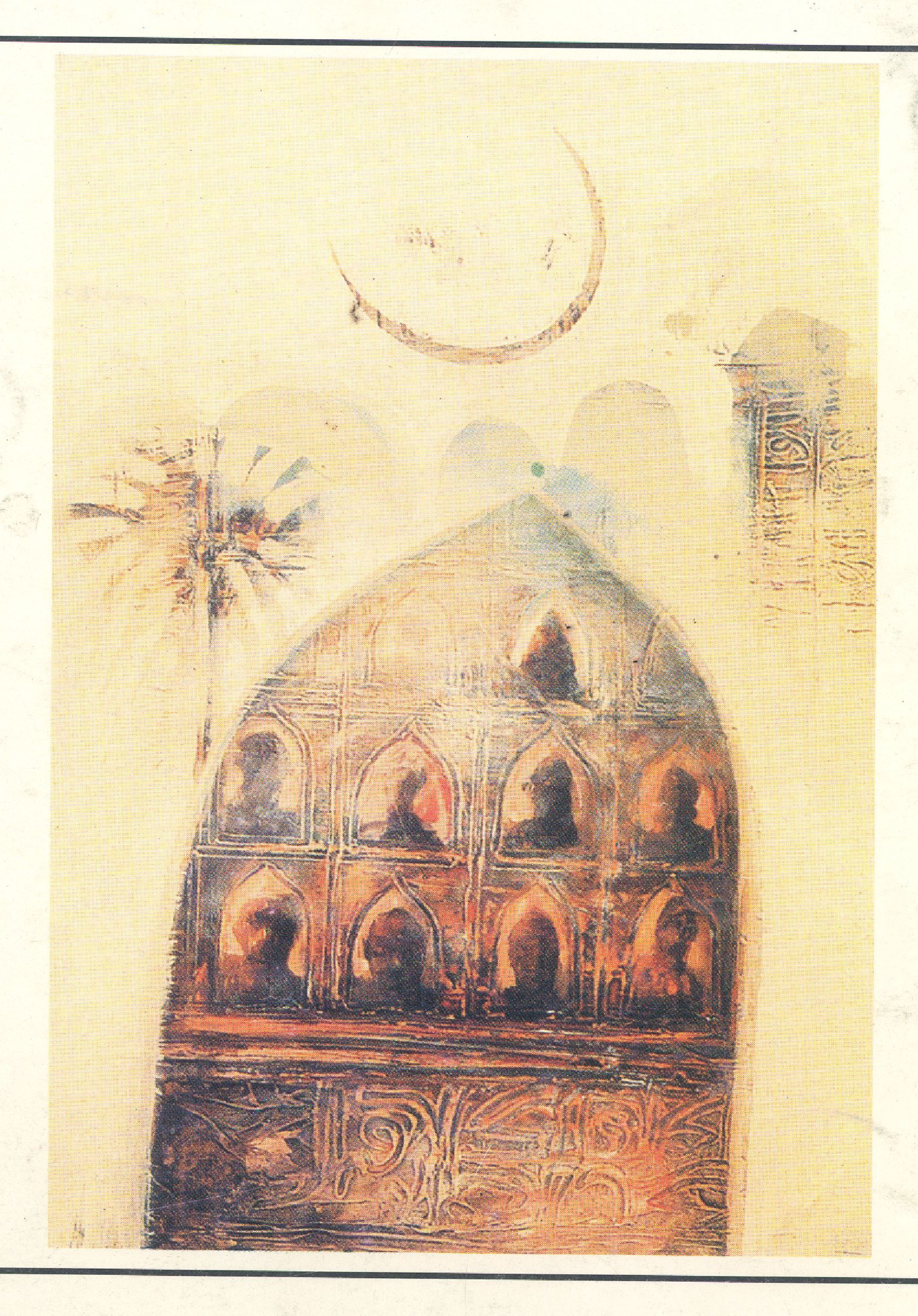
الموقف الأدبي



281



الثقافة الجديدة

281

آذار ـ نيسان ١٩٩٨

محتويات العدد

أدب وفن

● لوحتا الغلافين : للفنان كاظم الداخل

أغلق التحرير في ١٩٩٨/٣/١٥

كلمة العدد

الرأي هو للتبادل لا للاحتكار

«الثقافة الجديدة» أهي مجلة كلاسيكية محافظة لغرض مدرك أو غير مدرك؟ ماذا ينتظرها لتواكب روح عصرنا سريع التغيّر، بل لتتجاوزه نحو نزعة طليعية كانت منتظرة منها في سنواتها الأولى؟. كيف لها أن تنهض بشعارها العتيد «فكر علمي، ثقافة تقدمية» في هذا العصر الشكّاك والمعقّد؟ ▪

في عقدي السبعينات والثمانينات رست المجلة على صيغة محددة مثّلت خطاً سائداً في فهم الماركسية والاشتراكية، فأعادت إنتاج تصورات أيديولوجية محددة، ونقلت خبرات سياسية في النضال ضد الرأسمالية والامبريالية، وحاججت ضد خصوم اعتُبروا تحريفيين (كدعاة الاشتراكية الديمقراطية والماويين والتروتسكيين واليسار الجديد في الستينات).

في الوقت نفسه عالجت جوانب مختلفة للواقع المحلي من منظور الحزب الشيوعي العراقي، فنشرت دراسات عن التحولات السياسية والصراع الطبقي، عن موضوعة الجبهة الوطنية، ثم الديكتاتورية والحرب، عن التنمية والتطور الاقتصادي، ولم تهمل التراث والأدب والثقافة عموماً. وكانت، الى حد بعيد، منسجمة مع التزامها السياسي، كانت ظلاً من ظلال عصر الاستقطاب الأيديولوجي وما كان هذا عيباً فيها إذا سلمنا بالقول أن ليست كل الأشياء ممكنة دائماً.

مع انهيار النظم القائمة في الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية، في نهاية الثمانينات

وبداية التسعينات، انهارت صورة العالم في منظور اليسار الذي انحازت له المجلة، فكان عليها أن تستخلص العبرة: الهوية التقدمية هي موضع اجتهاد لا اجترار، والكلمة والرأي مصيرهما التبادل لا الاحتكار. في السنوات الأربع الأخيرة لم تتغير «الثقافة الجديدة» فقط وإنما أصبح التغيير هاجسها، فغرّبت نفسها عن بعض قرّائها الحزبيين دون أن تلبي تماماً ما كان يتطلع إليه البعض الآخر، وهم بأغلبيتهم من المثقفين والكتّاب. فلهؤلاء رأي آخر، ترتّب على وعيهم باستقلاليتهم عن الأحزاب، كسلطة، وتمايز مواقفهم عن المواقف المتحزبة الضيقة للمعارضة، يتجلى أساساً بصورتين، تطالب أولاهما المجلة بمنحى أكاديمي أو، على الأقل، بمستوى يقاربه نوعياً، وتدعو الثانية الى انفتاح بلا ضفاف على التجارب الطليعية في الكتابة. لكن لا هذه ولا تلك تملك حظاً كبيراً من التحقق في محددات واقع المجلة الراهن. فمن جهة، لايزال الاهتمام الأكاديمي بالعلوم الاجتماعية محدوداً عند المساهمين في المجلة، مع أن أغلبهم من العراقيين في الخارج من ذوي الباع في مجالات الفكر والثقافة. أما من جهة المطلب الثاني فليس لدى المجلة تحفّظ مسبق إزاء التجارب الجديدة في الكتابة، بل هي تسعى الى توفير حيز لمثل هذه التجارب، غير أنه يبقى حيزاً لا يتسع للكثير، ثم ان هناك منابر أخرى للأدب أكثر اتسّاعاً وتخصصاً وجدارة بتلبية هذا المطلب. ولا حاجة للتأكيد مجدداً أن «الثقافة الجديدة» مفتوحة دائماً للدراسات الجادة في القضايا السياسية والاجتماعية التي تخصّ الواقع العراقي والعربي، الاشتراكية والفكر الماركسي.

وقد لا نبخس حق أحد إذا قلنا إن المجلة، من الناحية الفعلية، مكرسة للقضايا وليس للأسماء الثقافية الكبيرة، دون أن يكون هذا خياراً مقصوداً من جانبها. فموقفها الأيديولوجي المعلن، والمتمثل في الدفاع عن أفكار الاشتراكية وقيم العقلانية والديمقراطية والتقدم، ينتظر تأصيل مثقفينا له بالبحث والسجال الهادئ.

في هذا العدد، كما في الأعداد السابقة، تتجلى، في الملفات المتخصصة وفي المناقشات، خطوات جادة نحو تعدد الآراء والحوار، غير أن طموح المجلة أكبر من ذلك...

بمعنى ما، قد تكون «الثقافة الجديدة» مازالت كلاسيكية، ليس لأنها تقاوم التغيير وإنما لأنها تستجيب له من زاوية منحازة ولكن غير متزمتة. عصر الايديولوجيات لم ينته بعد، والجزم بخلاف هذا يشي بأيديولوجية قاتلة.

مقابلة مع د. جعفر عبد الغني

حول العولمة وآثارها

في مطلع العام زار لندن د. جعفر عبد الغني فحضر المؤتمر الثالث للمنتدى الاقتصادي العراقي. فاغتنمت ث جـ الفرصة لاجراء مقابلة معه حول العولمة. ود. جعفر مهندس في الأصل، انتدب للعمل في وزارة التخطيط (الدائرة الصناعية) بعد ثورة ١٤ تموز، ثم أكمل تحصيله في التخطيط، وعاد للعمل في وزارة التخطيط حيث عمل خبيراً في دائرتها الصناعية حتى أواخر السبعينات، شارك خلالها في عدة ندوات ومؤتمرات اقتصادية في العراق وخارجه. وفي مطلع الثمانينات بدأ العمل خبيراً في منظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية UNIDO حتى تقاعد أواسط التسعينات.

ث جـ: مرحباً بك بعد هذا الغياب الطويل عن المجلة، آملين الافادة من خبرتك الطويلة ضمن اليونيدو ومساهمتك في العديد من المؤتمرات والندوات الاقتصادية الدولية لالقاء مزيد من الاضواء على ظاهرة العولمة Globalization التي كثر الجدل حولها وحول علاقتها بالتنمية. فهل نبدأ بتعريف العولمة، أم تفضل الحديث عن مظاهرها؟

د. جعفر: شكراً للترحيب. يسرني اهتمام ث جـ بالعولمة مرة أخرى، اذ قرأت باهتمام الملف الذي نشرتموه عنها في العام الماضي.

تعريف العولمة تعريفاً منضبطاً من أصعب الأمور. فلنبدأ بالحديث عن مظاهرها

فالثورة العلمية ـــ التكنولوجية، لا سيما جانبها المعلوماتي، فتحت المجال للوصول بسرعة خارقة الى أي مكان، من حيث الارسال والاستلام، بحيث أمكن تشبيه العالم بالقرية الصغيرة من حيث التفاعل بين أجزائه. وقد انعكس ذلك على الاقتصاد والسياسة والثقافة الخ. فلولا هذه الثورة لما تبلورت هذه الظاهرة.

ث جـ: ولكن هذه الثورة بدأت منذ الخمسينات. وتدويل الحياة الاقتصادية ليس ظاهرة جديدة، كما تعرف. كما أن الظاهرتين انبثقتا على أساس التقدم الاقتصادي الذي شهدته البلدان الصناعية.

د. جعفر: الحقيقة أن العولمة بدأت، كظاهرة علمية، بالتوسع الاستعماري والثورة الصناعية من خلال الاستثمار الأجنبي المباشر في اقتصادات المستعمرات والدول الأخرى، ثم تفجرت مع التوسع الرأسمالي العالمي عبر الشركات متعددة الجنسية وتطور التجارة الدولية ونشوء الأسواق المالية العالمية. وان الاندماج التدريجي للاقتصادات الوطنية في الاقتصاد العالمي بدأ يتقدم بخطوات كبيرة للأمام من خلال توسع التجارة الدولية، اذ المعروف أن معدل نمو التجارة الدولية خلال العقود الأخيرة أصبح أكثر من ضعف معدل نمو الناتج الاجمالي العالمي. أما اذا شئنا الدقة في التأرخة، فان اكتمال الظاهرة حصل في التسعينات مع انهيار المشروع الاشتراكي، في أوربا الوسطى والشرقية والاتحاد السوفييتي، والتحول هناك الى الرأسمالية، وانتهاء الحرب الباردة. وبذلك لم تعد هناك حواجز سياسية جوهرية معيقة للاتصال والاستثمار والتجارة والخ. صحيح أن تدويل الاقتصاد رافق نمو النظام للرأسمالي، لكن ذلك التدويل كان في الأساس تدريجياً ومقتصراً كل مرة على سوق أو بلد واحد، أو قطاع اقتصادي واحد، أو صناعة معينة. أما في اطار العولمة فصار تدويل الاقتصاد يجري بحيوية فائقة، بل هو جارف، أي استثنائي في سرعته وشموله، فقد اكتملت العناصر التكنولوجية والاقتصادية والسياسية لانطلاق مسيرة العولمة من آخر قيودها، وأقصد قيود الحرب الباردة وانقسام العالم الى معسكرين.

ث جـ: الحرب الباردة صراع بين نظامين كانت تمارسه دول، وانتصار الرأسمالية أزاح العقبة السياسية أيضاً. أمام الانطلاق الكامل للعولمة كما قلت. وهنا يبدو مناسباً التوقف عند العامل السياسي، عند دور الدولة، في العولمة.

د. جعفر: لم تعد الدولة في التسعينات تتردد في اتخاذ اجراءاتها الداخلية والخارجية تحت ضغط اعتبارات الحرب الباردة لفرض منطق العولمة. خذ على سبيل المثال، الضغوط المكشوفة التي يمارسها الآن رؤساء الدول وكبار المسؤولين على الدول الأخرى لفتح أسواقها أمام منتجات شركات بلادهم. هذا ينطبق بصورة أساسية على الادارة الأمريكية. فلأنها الأقوى، باعتبارها القطب الأعظم، قادت مسار العولمة لمصلحتها هي، لمصلحة الشركات العملاقة، متعددة الجنسيات التي موطنها الأصلي في أمريكا. لهذا رأينا الرئيس كلنتون يتدخل بنفسه، نيابة عن هذه الشركات، للضغط على رئيس وزراء اليابان لفتح السوق اليابانية أمام المنتجات الأمريكية. ومع اشتداد المنافسة تصاعدت هذه الممارسة، التي لم تكن مألوفة سابقاً. فمثلاً، بعد حرب الخليج الثانية تدخل كبار المسؤولين الأمريكان، بمن فيهم الرئيس، للضغط علي دول الخليج من أجل شراء الأسلحة التي تنتجها الشركات الأمريكية. وهذا ينطبق أيضاً على كبار المسؤولين البريطانيين والفرنسيين وغيرهم.

ث جـ: لكن كثيراً ما يقال ان العولمة تتعارض مع تدخل الدولة في الاقتصاد. فانصار اللبرالية الجديدة يدعون الى كف يد الدولة عن الاقتصاد ليخضع لقوى السوق وحدها، اي ابعاد السياسة عن الاقتصاد. لكن الاقتصاد، كما نعلم، ميدان صراع المجتمع، فهو ليس فقط مصدر ربح الراسماليين بل هو أيضاً مصدر عيش كل المواطنين، ومصدر قوة وموارد الدولة ذاتها. فكيف توفق الدولة الخاضعة للانتخابات العامة وللمساءلة البرلمانية، بين دفع عجلة العولمة الى أمام ومسؤولياتها ازاء جمهور الناخبين، مسؤوليتها الوطنية؟.

د. جعفر: قلتُ ان الدولة قادت مسيرة العولمة لتفتح أوسع مجالات النشاط واربح أمام شركاتها وبالتالي أمام اقتصاد بلادها. وهي ما تزال راعية لمسيرة العولمة. وفي حقيقة الأمر، هناك تناقض كامن بين دور الدولة الوطنية وستراتيجيتها من العولمة وبين دور وأهداف الشركات التابعة لتلك الدولة الوطنية، التي تتخطى مصالحها وستراتيجيتها حدود الدولة نفسها. فالسلطة المنتخبة ديمقراطياً في الدولة الوطنية تتركز أهدافها، وفق برامجها السياسية، في خدمة التنمية بكافة أبعادها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لمجتمعاتها وتوفير الرفاه لمواطنيها، الذين انتخبوها أصلاً. أما الشركات الكبرى فان مصالحها تتركز في تعظيم أرباحها وفقاً لستراتيجيتها الدولية (الشركات متعددة

الجنسية). وكما هو واضح بالضرورة فليس من الضروري أن يكون هناك توافق مستمر بين تلك المصلحتين والستراتيجيتين. ففي الوقت الذي تكون الدولة الوطنية مسؤولة أمام جماهير الناخبين الذين يعدون بالملايين فان مسؤولية الشركات تكون أمام مالكي أسهمها الذين لا يتعدى عددهم، في أحسن الأحوال، عدة آلاف. فتسعى الدولة قدر الامكان الى التوفيق بين هذين المتناقضين.

والواقع أن هناك تناقضاً بين دور الدولة الوطنية في تعجيل التنمية ودورها كمنفّذ للسياسة العامة للبلد، أي بين مسؤوليات الدولة العامة ونشاط الشركات. فعلى سبيل المثال اضطر الرئيس الأمريكي الى مناشدة الشركات الأمريكية للاستثمار في المكسيك بعد اتفاقية NAFTA دون أن يفرض عليها هذا المطلب. فلنشاط الشركات يستهدف تعظيم الربح كما قلت، وهذا النشاط قد ينسف المشروع السياسي للدولة. مثال آخر، عندما تنخفض قيمة (الين) الياباني تتدخل أمريكا تدخلاً مباشراً لإبقاء قيمة (الين) في تناسب معين مع قيمة الدولار لكي لا يحصل انحسار اقتصادي ذو تأثير عالمي بالضرورة أما الدولة الوطنية تخشى أن تخرج الأمور الأساسية من يدها، وهي الخاضعة للانتخابات والمساءلة، فتتركز الأمور بيد ادارات الشركات، مما قد يؤدي الى أزمة في بلدها أو في بلد آخر. ما زال هذا التناقض قائماً بين المشرّع والمنفذ المنتخبين وبين الشركات ذات السلطة الاقتصادية الكبرى ولعل الانهيارات الأخيرة في اقتصاديات شرقي آسيا هي أبرز مثال على هذا التناقض. فالمسبب الأساسي لهذه الأزمة هي الشركات الخاصة (وان كان للدول ذاتها بعض من المسؤولية) سواء الوطنية منها أم الأجنبية المستثمرة في تلك الدول. فمثلاً اقترضت البنوك الكورية الخاصة ما يعادل ٩٢ مليار دولار من البنوك الأجنبية التي من أجل اعادتها جدولة تلك القروض بعد الأزمة تشترط قيام الحكومة الكورية بضمان وبفوائد عالية للغاية.

ث جـ: في سياق العولمة تتجه أغلب الحكومات، بما فيها حكومات اشتراكية ــ ديمقراطية، الى تقليص الانفاق العام على الخدمات والاعانات الاجتماعية، أي تشذيب «دولة الرفاه» التي نشأت بعد الحرب العالمية الثانية. كما يجري، في هذا السياق الغاء الضوابط على تشغيل وفصل القوى العاملة، وتستمر خصخصة القطاع الحكومي. ذلك كله يُبرّر بتوفير متطلبات المنافسة في الأسواق العالمية حيث يسود منطق العولمة.

د. جعفر: دعنا نأخذ الأمور بمنطق مندرج، فأولاً من أجل اندماج اقتصاد أي دولة في الاقتصاد الدولي لا بد من توفر عناصر المنافسة في قطاع أو فرع أو نشاط معين في اقتصاد تلك الدولة ازاء العالم الخارجي. ومن أجل ضمان ذلك لا بد من تقويم الاقتصاد الداخلي للبلد المعني. فلم يحصل نمو اقتصادي في أي بلد بمعزل عن تدخل الدولة، بمعزل عن الحوافز وأشكال الدعم الأخرى، أو بمعزل عن الشروط والضوابط التي تفرضها الدولة، وذلك بهدف حماية وتطوير الاقتصاد الوطني، تعبيراً عن شعور وطني تخلقه عوامل تاريخية عديدة، ومسؤولية الدولة ازاء مواطنيها. وكان هذا النمط هو السائد في التنمية سواء في أوربا الغربية أم اليابان أم ما يسمى «النمور الآسيوية». ومن خلال سياسة الدولة الاقتصادية، بالاستفادة من عوامل التشجيع والحماية الداخلية من جهة والافتتاح والمنافسة الدولية عبر التجارة الخارجية من جهة أخرى، توسعت في آن واحد كل من الاقتصادات الداخلية والتجارة الخارجية بشكل لم يسبق له مثيل منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى هذه الساعة.

أما الجزء الأول من السؤال الخاص بتقليص الانفاق العام وازالة الضوابط الحكومية وتعديل موازين المدفوعات الخارجية والداخلية، فهذه شروط يفرضها صندوق النقد الدولي لمن يطلب المساعدة منه، وهي الوصفة الجاهزة التي يحاول تطبيقها على العالم أجمع. وهناك كما هو معروف وجهات نظر متضاربة حولها بين قطبين متعارضين تماماً وهذا التعارض موجود حتى في داخل المؤسسة الدولية نفسها.

من معالم العولمة البارزة ظاهرة اندماج الشركات الكبرى في اطار ستراتيجيتها الدولية في ظروف العولمة-من أجل الاستحواذ على أسواق جديدة أو توسيع أسواقها ومن أجل تخفيف كلف الانتاج ورفع قدراتها التنافسية في العالم ففي أمريكا مثلاً اندمجت شركتا مكدونالد وبوينغ العملاقتين لصناعة الطائرات لانتاج (الجمبو) مقابل (ايرباص) الأوربية. فسوق الطائرات منقسم بين قطبين في العالم بعد زوال المنافسة داخل هذه الصناعة في أمريكا، وكذلك الحال في أوربا. هذا لا يسري فقط على انتاج الطائرات المدنية بل يسري على الطائرات العسكرية أيضاً. وهكذا نرى تقليص نطاق المنافسة لتصبح بين عملاقين لا غير، بين أمريكا وأوربا الغربية. وكما معروف عند واضعي الستراتيجيات فان اللعبة تحولت الآن من معادلة المجموع زائد — زائد الى معادلة الصفر. وبمعنى آخر فبوجود عدد كبير من المنافسين كل يجد ربحه في موقعه أما في حالة وجود منافسين اثنين فقط فجميع الربح لواحد منهما والموت للآخر. وهذا

ما قاله في سياق حديث عفوي رئيس شركة (بوينغ) بعد اندماجها مع شركة (ماكدونالد ــ دوغلاس) لا بد لبوينغ من الاجهاز على (ايرباص) ولتقرأ السلام على شعار «المنافسة هي أساس التطور».

ث ج: جورج سورش مضارب عملاق (مجري الأصل) ربح من المضاربة على الجنيه الاسترليني عام ١٩٩٢ حوالي ملياري جنيه. وكانت مضارباته من العوامل المباشرة لخروج العملة البريطانية من الاتفاقية الأوربية لاستقرار أسعار تبادل العملة. وقد اتهم رئيس حكومة ماليزيا، مهاتير محمد، هذا المضارب وغيره بزعزعة العملة الماليزية قبل أشهر حين سرت ماليزيا الأزمة التي هزت «النمور الآسيوية» وما تزال. حركة عشرات المليارات من النقد تجري في ظل العولمة بسرعة البرق بين الأسواق من خلال ازرار الكومبيوتر. كيف تقيّم دور هذا الجانب من العولمة الذي لا تطاله سلطة الدولة؟.

د. جعفر: أبرز مظاهر العولمة يتجلى في الرأسمال المالي، وهو الجانب الأسوأ من العولمة، لأن رأس المال المالي مضارب بطبيعته.فبسبب سياسة العولمة والتقدم المذهل في تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، تنتقل ايعازات الكومبيوتر بلمح البصر. فيمكن الآن للمضارب أن يشتري ويبيع العملة الأجنبية والأسهم دون أن يتحرك من مكانه. وأدى ذلك ويؤدي الى خلق مشاكل ضخمة في اقتصادات بلدان نامية كالمكسيك وجنوب شرق آسيا. فالرأسمال المالي قد يكون أساساً غير منتج، أو انه رأسمال ورقي. ففي اطار الخصخصة، في مصر مثلاً، تأتي الشركة الأجنبية لتشتري أسهم شركة معروضة للخصخصة فيتولد انطباع ايجابي لدى المستثمرين الصغار المصريين عن مستقبل هذه الشركة فيتهافتون على أسهمها، فيقفز سعر الأسهم بسرعة دون أن يحصل تغيير يذكر في الموجودات المادية للشركة المصرية، وعندئذ تستطيع الشركة الأجنبية بيع أسهمها بأرباح عالية دون أن تسهم في تطوير الاقتصاد المنتج فعلياً. ويمكن أن تفعل العكس فتزعزع الثقة بشركة لها فيها أسهم وذلك بطرح الأسهم دفعة واحدة للبيع فتهبط أسعار الأسهم لخوف المستثمرين على أموالهم فيبيعون أسهمهم. فتعود الشركة المضاربة الى شراء الأسهم نفسها بأسعار بخسة على حساب خسائر الآخرين. ما تستفيده مصر من شراء الرأسمال الأجنبي لشركة مطروحة للخصخصة يقتصر فقط على دخول رأسمال من الخارج يحسّن ميزان مدفوعاتها، وذلك تطبيقاً

لوصفة صندوق النقد الدولي. هنا يتجلى التناقض بين دور الدولة الوطنية ودور المؤسسات المالية الكبيرة لأن الدولة معنية بتوفير فرص عمل جديدة وخدمات اضافية وتنمية الانتاج لا مجرد مضاربات بأسعار أسهم وسندات تبقى عرضة لأهواء المضاربين الساعين وراء الربح السريع لا غير. فالتنمية الحقيقية لا تحصل سوى من خلال تجسيدها في مكان ومعدّات وبناء تحتي ومعارف ورقاه عن طريق الاستثمار المباشر في هذه المجالات الواقعية والملموسة.

ث جـ: أبرز المنظمات الدولية المعنية مباشرة بالاقتصاد العالمي هي البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي ومؤخراً انبثقت المنظمة العالمية للتجارة، بعد مخاض عسير، بديلاً لليونكتاد. ما هو دور هذه المنظمات في ظل العولمة؟

د. جعفر: البنك الدولي وصندوق النقد الدولي يمثلان مصالح المساهمين في رأسمالها. وأمريكا هي المساهم الأكبر (بنسبة ١٧,٥٪) فهي تلعب دوراً حاسماً في وضع وتنفيذ سياسة الصندوق والبنك. دول أوربا تملك أسهماً مجموعها أقل من أسهم أمريكا. السعودية تملك ١٪ وهي الحد الأدنى الذي يخول الدولة أو مجموعة الدول لوجود ممثل لها في مجلس ادارة الصندوق والبنك. وهما يعملان لفرض منطق العولمة على العالم، أي تعميم الرأسمالية والاقتصاد الحر. وتعتمد المنطلقات الايديولوجية لهاتين المؤسستين على أساس النظام الرأسمالي الحر المفتوح على العالم الخارجي، وعلى تقييد دور الدولة في السيطرة على الاقتصاد الوطني الى الحد الأدنى الذي يشجع القطاع الخاص على المساهمة المباشرة في التنمية بالوسائل المالية والنقدية والتجارية والقانونية. ويستخدم الصندوق والبنك لتنفيذ هذه السياسة الأدوات المالية والمعنوية المتوفرة لديه. فمثلاً اذا أرادت أية دولة الاستعانة بالصندوق يشترط عليها بشكل عام ما يلي: تخفيض سعر صرف عملتها وازالة القيود على التمويل، انتهاج سياسة رفع الدعم الحكومي على السلع والخدمات، والضغط على التضخم، وتقليص الانفاق على الخدمات الاجتماعية كالصحة والتعليم، وتحرير التجارة الخارجية واتباع سياسة الباب المفتوح ازاء السلع ورأس المال، وخصخصة القطاع العام وبيع أسهم الدولة للقطاع الخاص، وفتح الباب أمام الاستثمارات الأجنبية والسماح باخراج الأرباح، واتباع سياسة نقدية للحد من التضخم بالحد من الاقراض ورفع أسعار الفائدة، تحجيم القوى العاملة وخفض الأجور، وازالة السيطرة على تحديد الأسعار والحد الأدنى للأجور. هذه

باختصار منظومة السياسات والاجراءات المفروضة من قبل مؤسستي صندوق النقد والبنك الدولي على بلدان العالم، وتمثل، بايجاز، تذكرة المرور الى نادي العولمة. وتتوزع الأدوار بين الصندوق والبنك. فيبدأ الصندوق مهمته بعملية ما يسمى «التثبيت الاقتصادي» أي تحقيق استقرار أولي للعملة المحلية بحيث يستقر سعر صرفها بالنسبة للدولار. وهذا يتطلب تثبيت أو استقرار الوضع المالي للدولة داخلياً وخارجياً، بحيث تقلص الدولة الانفاق العام للحد من العجز في الموازنة الحكومية، وازالة العجز في ميزان المدفوعات الخارجية. ان تقليص الانفاق العام يكون على حساب الخدمات العامة وازالة الدعم الحكومي للسلع الاستهلاكية الضرورية وللقطاع العام. ازالة الخلل في ميزان المدفوعات يتطلب زيادة الصادرات وفتح الاقتصاد، أي ازالة الحماية للصناعة المحلية، وافساح المجال لتغلغل الرأسمال الأجنبي. وهذا بالطبع يؤدي الى زيادة البطالة. انهم يقولون ان الصعوبات وقتية تنتهي بعد بضع سنوات. . .

بعد «مرحلة الاستقرار، يبدأ البنك الدولي بمهمة ما يسمى «التغير الهيكلي» للاقتصاد ووضعه على طريق التنمية الذاتية المتوازنة والمنافسة عالمياً. ويجري ذلك في العادة عن طريق القروض وتمويل مشاريع معينة خارج القطاع العام طبعاً، الى تنمية الرأسمالية المحلية. فتؤدي هذه السياسة الى تعميم أسلوب الانتاج الرأسمالي في الاقتصاد العالمي، أي ازالة مظاهر سيطرة الدولة على الاقتصاد. المستفيد الأكبر من هذا الانفتاح هي الاقتصادات الأقوى، لا سيما في المراحل الأولى، وهذا يعني أن المستفيد الأكبر هي الشركات متعددة الجنسيات الأمريكية والأوربية، وذلك لانفتاح أسواق جديدة أمام نشاطها. ويدور حالياً صراع هام على أسواق الصين والهند، فالسوق الصينية ضخمة وطاقاتها النامية عملاقة عند انفتاحها. سوق الهند مفتوحة تقريباً لكن معدلات النمو فيها أقل من الصين التي يتوقع بلوغها المرتبة الثانية في العالم بعد ١٠–٢٠ سنة، من حيث حجم الاقتصاد.

ونلاحظ هنا أنه كلما ازدادت التنمية الاقتصادية في البلدان حديثة النمو هذه توسع الطلب فيها على المنتجات الاستهلاكية والرأسمالية لتصبح أسواقاً مغرية حقاً أمام الشركات الرأسمالية متعددة الجنسيات. وهكذا تتوسع وتتعمق في الوقت ذاته حلقات ودوائر الاندماج الاقتصادي عبر التبادل التجاري الخارجي لتركز وتثبت العولمة الاقتصادية والمالية.

ث جـ: كيف تجلت العولمة في الاضطراب الخطير الذي تعانيه «النمور الآسيوية» منذ بضعة شهور، وذلك من حيث الأسباب والآثار والمعالجات المطروحة؟.

د. جعفر: بدأت الأزمة في أسواق المال، تحديداً في تموز الماضي، بانهيار سعر تبادل العملة التايلاندية (البات). ثم امتدت الأزمة بالتداعي الى اندونيسيا وماليزيا وكوريا الجنوبية والفليبين، وذلك نتيجة لنشاط البنوك وشركات المال «بيوت الخبرة» التي تتنبأ بآفاق تطور الشركات. بالاضافة الى ذلك ساهم نشاط شركات الوساطة (السمسرة) المالية في تداول الأسهم والسندات، وشركات التأمين التي تمتلك أموالاً طائلة، في توليد هذه الأزمة. فالمستثمرون بتنبؤات «بيوت الخبرة» في استثمار أموالهم في الشركات التي تبشر بالربح الأعلى. وهذه البيوت أخطر دوراً من البنوك في الأسواق المالية. وكما هو معلوم تدفقت أموال طائلة الى النمور الآسيوية لأن أوضاعها الداخلية بدت مأمونة بطبيعة أنظمتها التسلطية التي تقمع الحركات المطلبية، كما أنها أنظمة مركزية يسهل التعامل معها من الخارج. ثم انها قريبة من سوق الصين العملاقة.

كانت البنوك المحلية في هذه البلدان تقترض الأموال من الأسواق الخارجية لآجال طويلة وتقرضها لآجال قصيرة للشركات المحلية. واستمرت هذه المسيرة التي بدت ملائمة للطرفين ما دامت هذه البلدان تحقق النمو السريع. وقد أساءت البنوك المحلية استخدام القروض السهلة، وكانت دائرة المستفيدين منها محدودة بفعل المحسوبية والفساد الاداري. فنشأ وضع مالي هش لانعدام الشفافية والمساءلة والضوابط الضرورية. فلم يصمد هذا الوضع الهش أمام المضاربة الخارجية، وأخذ المستثمرون يسحبون أموالهم بسبب تزعزع الثقة في اقتصاد تلك النمور، فتبين أن بعض مؤسساتها المالية الضخمة عاجزة عن تسديد ما بذمتها للمودعين والمستثمرين المحليين والأجانب الخائفين على مصير أموالهم لدينا. وكانت الصدمة من الشدة لدرجة أن القيمة السوقية للأسهم المالية لهونغ كونغ وكوريا وأندونيسيا وتايلاند قد هبطت خلال الفترة الواقعة بين آخر حزيران وآخر كانون الأول من عام ١٩٩٧ بمقدار (٢٠١) مليار دولار وأدت بدورها الى زيادة مديونية هذه البلدان الأربع عن (٤٠٠) مليار دولار بالدرجة الأولى للمصارف اليابانية فالأوربية فالأمريكية.

من حيث آثار الأزمة فانها لا تقتصر على بلدان المنطقة، بل هناك مخاوف من امتداد

آثار هذا الانهيار الاقتصادي الى اقتصادات البلدان الرأسمالية المتقدمة الأخرى. فهذه البلدان أخذت تعيد النظر في توقعاتها الاقتصادية من حيث معدلات النمو. وهكذا تتجلى العولمة في آثار وانعكاسات أزمة النمور الآسيوية. فهي مستوردة كبيرة ومصدّرة أكبر. وكانت محط ثقة وآمال قد خابت. فعلاقتها وثيقة بالاقتصاد الخارجي، اذ تعتمد الى حد بعيد على قدرتها على التصدير للأسواق الخارجية إذ يمثل التصدير ٨٪ من الناتج الاجمالي الأمريكي و ١٠٪ في اليابان، لكن هذه النسبة ترتفع الى ٧,٩٪ بالنسبة لماليزيا و٢٩٪ لتايلاند و٢٧٪ لكوريا الجنوبية و٢٥٪ للفيليبين. فان فائض ميزان التجارة الخارجية ــ لكوريا الجنوبية، على سبيل المثال، ليزيد على عشرين مليار دولار سنوياً.

ثم ان المعالجة للأزمة تولتها حكومات هذه البلدان بالتعاون مع حكومات البلدان الرأسمالية الكبرى القلقة من أخطار انهيار الاقتصاد في جنوب شرق آسيا. وتولت مؤسسات مالية دولية (صندوق النقد الدولي والبنك العالمي) وليس الشركات، تقديم الغوث الى بلدان المنطقة. ففرض صندوق النقد الدولي على هذه البلدان شروطه كي يقدم لها عشرات المليارات من الدولارات كقروض لتثبيت أو استقرار أسواق المال فيها، ففرض عليها فتح اقتصادها أمام الاستثمار الأجنبي المباشر في شركاتها.

وبعد انهيار المعسكر الاشتراكي وتبني الدول الاشتراكية السابقة النظام الرأسمالي، توسعت دائرة نشاط الصندوق والبنك لتشمل هذه البلدان ويفرض الصندوق على هذه المجموعة من البلدان التي كانت جماهيرها الى وقت قريب تتمتع بمزايا عالية من الخدمات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والأسعار المدعومة شروطه المهينة للغاية والغريبة عن تقاليد هذه المجتمعات. وقد أدت التزامات حكومات هذه الدول بشروط الصندوق الى أبشع المآسي الاجتماعية: ملايين العاطلين عن العمل، التضخم الخارق، اغلاق المدارس والمستشفيات ودور الثقافة، والفقر المدقع.

وتهدد الأزمة بالانسحاب على الاقتصاد الياباني اذ تجري مشاورات مكثفة بين ممثلي الصندوق وخبراء الادارة الأمريكية مع المسؤولين اليابانيين للضغط عليهم لاجراء اصلاحات (كما يراها الصندوق) في النظام المالي الياباني بفتحه أمام الاستثمار الخارجي وزيادة شفافية العمل فيه وازالة كثير من التعاملات الداخلية بين أطرافه. والهدف من كل ذلك هو منع تكرار ما حدث لكوريا في اليابان نفسها. وتتجه الأنظار بقلق شديد كذلك على ما يمكن أن يحدث للصين!.

يمكن أن نوجز ما قلناه بصدد العولمة بالاستشهاد بما يقول المعلق الأمريكي (روجر ألتمن): «لا دولة أكبر من قوى السوق المالية» فان هذه السوق سلطت خلال الستة شهور الأخيرة النار على عواصم شرقي آسيا واحدة فواحدة من بانكوك الى سيؤول، فسحقت عملاتها مخلفة وراءها أسعار فائدة مرتفعة، أنظمة مصرفية منهارة وضاغطة على التنمية الاقتصادية، وحكومات متزعزعة. . . فتدنت النمور الآسيوية الى مطاف الصخول. . . ويؤكد هذا كله بروز السوق المالية الدولية كشكل من الدولة فوق العالمية supre- na- tional للقرن الواحد والعشرين.

ث جـ: بعد استقلال المستعمرات السابقة والبلدان التابعة ساد شعار اوستراتيج «التنمية المستقلة». فكيف نفهم مضامين هذا الستراتيج حالياً في ظل العولمة؟ وكيف ينبغي أن يكون دور الدولة الوطنية في هذه التنمية، خاصة وأن مطلب الديمقراطية السياسية صار له السبق في كل مكان تقريباً؟ فلا يخفى أن عراق الغد بحاجة الى اعادة البناء في ظل الديمقراطية السياسية.

د. جعفر: الاجابة على مثل هذا السؤال الشامل غير ممكنة ببساطة لأنها تحتاج الى مؤلفات كثيرة. ولكن يمكن الايجاز بالقول ان الفترة التاريخية، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى الآن، شاهدت تقريباً تنفيذ جميع نماذج التنمية (بخلفياتها النظرية). فأوربا الغربية اعتمدت في بداية المطاف النظرية الكينزية، ونجحت فعلاً في تحقيق معدلات نمو عالية للغاية لمدة عقدين من الزمن. ثم انصرفت عنها بالتدريج لتتبنى الكلاسيكية الجديدة بعد أن واجهت صعوبات اقتصادية في الاستمرار في نهجها السابق وفرنسا تبنت اقتصاد الخطة ونجحت أيضاً حتى اصطدمت بالمشاكل الاقتصادية في السبعينات. والاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية السابقة تبنت النظرية الماركسية في التخطيط المركزي وحققت نجاحات باهرة في بداية الأمر الى أن خنقتها البيروقراطية المركزية. والدول النامية، لأسباب سياسية واجتماعية مختلفة، تبنت نماذج مختلفة تتأرجح بين التخطيط المركزي الشديد واقتصاد السوق المنفتح. وقسم كبير منها حقق نجاحات مرموقة كذلك، مثل الهند ودول جنوب شرقي آسيا ودول أمريكا اللاتينية، ولكنها ولاسيما بعد انهيار المعسكر الاشتراكي، توجهت نحو اقتصاد السوق.

اذا كان المقصود بالتنمية المستقلة هي نظرية التنمية المبنية على أساس احلال الواردات والاعتماد قدر الامكان على القدرات الوطنية الذاتية في تحقيق النمو والتنمية،

فانها أول ما برزت في أمريكا اللاتينية والكثرة السائدة من بقية البلدان النامية لا سيما تلك التي تتمتع بموارد طبيعية وبشرية وجغرافية تتعدى الحد الأدنى المسموح بانطلاق التنمية.

ان جميع تجارب التنمية خلال العقود الخمسة الأخيرة تؤكد شيئاً أساسياً هو أن التنمية الاقتصادية والنمو الاقتصادي غير ممكن اذا لم تصاحبها وتواكبها تنمية موازنة ومتوازية في المجالات السياسية والاجتماعية واذا لم يرافقها بناء تحتي من المؤسسات الثابتة في المجتمع والدولة للتعبير والدفاع عنها وضمان الحقوق السياسية والاجتماعية لجميع الأفراد والمجموعات والمؤسسات الفاعلة في عملية التقدم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي و. . . الخ.

ومن الغباء أن نتصور أن الثروات الطبيعية (لا سيما النفط) والبشرية المتوفرة بفيض في العراق يمكن أن تضمن مسألة التنمية، بغض النظر عن النموذج الاقتصادي الذي تتبناه السلطة الوطنية في المستقبل. ان العنصر الأهم في ضمان مسيرة التنمية في المستقبل هو وجود المؤسسات الدستورية الشرعية والمسؤولة أمام الشعب لتنفيذ عملية التنمية بكل أبعادها الشاملة والتي يجب أن تتسم بأعلى درجات الشفافية، ليس فقط لغرض المساءلة والحساب، بل أيضاً لفسح المجال أمام جميع الفئات والجماعات والمؤسسات الفاعلة في التنمية للمساهمة المباشرة والذاتية فيها.

أما موضوع العولمة وموقفنا منها فلا يجب أن يكون سلبياً على طول الخط. فمثلما للعولمة سلبياتها، كما بينا في حديثنا السابق، فان لها مزاياها أيضاً ــ انها تفتح أبصارنا أمام العالم بكل تناقضاته سلباً وايجاباً فهي مثلاً تنطوي على تقدم هائل للقوى الانتاجية، وعولمة متنامية لقضايا حقوق الانسان والبيئة والمخدرات، بالاضافة الى كل هذا وذلك فانها حقيقة واقعة لا يمكن أن نتجاهلها تمسنا في كل ما نفعل. ولذا علينا التعامل معها لا من منطلق ايديولوجي بحت، بل من منطلق رعاية مصالحنا الوطنية العليا.

العولمة ورأس المال

وليم تاب*

تقوم فرضية العولمة على أن السنوات الأخيرة تشهد تغيراً سريعاً في طبيعة العلاقات الاقتصادية بين البلدان التي تخلت عن الكثير عن هدفها البارز في تنمية مستقلة محفّزة داخلياً، وان الستراتيجيات الاقتصادية المحلية أمست غير فعالة بحيث صارت عديمة الأهمية. وحسب هذا الرأي، صار التدويل مداً جارفاً عبر الحدود جعل التكنولوجيا وقوى السوق الجارفة تحوّل النظام العالمي تحويلاً لا طاقة لأحد على تغييره تغييراً ذا أهمية. ومثل هذا التفكير يؤدي الى القول إن البدائل الجذرية مستحيلة. وهذا هو مضمون قول السيدة تاتشر الشهير: «ليس هذا بديل!».

لا ريب أن هناك ما يدل على تزايد أهمية الاقتصاد العالمي خلال العقود الماضية. فنسبة الصادرات الى الناتج المحلي الإجمالي قد تضاعفت تقريباً بين ١٩٦٠ و١٩٩٠ في بلدان منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية OECD (التي تضم أغنى ٢٤ بلداً ـ ث جـ) وذلك من ١٠٪ الى ٢٠٪. وارتفع حجم قروض المصارف الى خارج بلدانها من ٤٪ عام ١٩٨٠ الى ٤٤٪ عام ١٩٩٠ من الناتج القومي الإجمالي لبلدان هذه المنظمة. وبلغ حجم التداول في أسواق العملة ما يزيد على ألف مليار دولار وهو أكبر بكثير جداً من

* وهو مدرس للاقتصاد وعلم الاجتماع في كلية كوينز وجامعة ستي، ومؤلف كتاب «النظام الياباني منذ الحرب» الصادر عام ١٩٩٥ في نيويورك. والمقالة المنشورة أعلاه هي في الأصل مداخلة في مؤتمر المؤلفين الاشتراكيين عام ١٩٩٧.

الاحتياطيات التي تفرضها المصارف المركزية. وأمسى الخوف من إغلاق المصانع والبطالة واقعاً يعيشه الشغيلة في كل مكان، وأمست «العولمة» تفسيراً متداولاً لكل الأمور.

إن الصيغة المغالية لفرضية العولمة المذكورة آنفاً تطالبنا برؤية جديدة للاقتصاد العالمي، فتعتبره متحكماً بالسيرورة process المحلية. وهذه الرؤية تختلف كثيراً عن رؤية مخالفة تعطي دوراً رئيسياً للسياسات الداخلية والفاعلين في إطار هذه السياسات التي لا تضع العوامل الخارجية، بل السياسات المحلية، في المرتبة المركزية.

وجدير بالملاحظة أن الصيغة المغالية لفرضية العولمة تستند الى أسطورة ذات مضامين سياسية انهزامية، وليس الى تحليل سليم لمجموعة من السيرورات أكثر تعقيداً وتستحق مناقشة أوسع[١]. وهكذا فإن التناول الأفضل للعولمة ينبغي أن يكون على مرحلتين. فلابد أولاً من نقد الرؤية المغالية التي شلت العديد من اليساريين. وتلك هي مهمة مقالتي هذه. أما المرحلة الثانية فهي التمعن بعناية أكبر في ما هو جديد حالياً. فالرأسمالية نظام دائم التغير، ومن الضروري بناء الستراتيجية السياسية على أساس الوعي لطبيعة التطورات في الحقبة الراهنة. ولكن يجب البدء بمناقشة التسليم الانهزامي بالسلطة المنيعة للرأسمال العالمي.

يتبنى وسط واسع من الحركة العمالية الأمريكية الرؤية المغالية للعولمة، فيشدد على الأهمية المطلقة تقريباً لنزوح المصانع وخطر الأجور الواطئة في العالم الثالث على وضع العمال في أمريكا، لأن الرأسمال ينتقل الى أي بلد سعياً وراء أوطأ الأجور. لكن هذا تبسيط مفرط، في أفضل الأحوال. فهو لا يعكس حقيقة الأنماط الاستثمارية للشركات متعددة الجنسيات. فثلاثة أرباع استثمارات وإنتاج الشركات المتعددة الجنسية المقامة في أمريكا تجري في بلدان أوربا الغربية وكندا حيث الأجور عالية، ومعظم هذه الاستثمارات تصرّف إنتاجها في أسواق تلك البلدان. وعند الحديث عن نزوح رأس المال الأمريكي، من المهم إدراك أن ما يدخل أمريكا من استثمارات أجنبية مباشرة ظل منذ عام ١٩٩٠ أكبر مما يخرج منها. فالشركات متعددة الجنسية المقامة في بلدان أخرى تمارس الإنتاج في أمريكا وتستخدم شغيلة أمريكان. إن العجز الضخم في ميزان المدفوعات الأمريكي ناجم، الى حد كبير، عن الاقتراض ودور أمريكا كمستهلك نهائي. فهي تسدد ثمن وارداتها بأموال مقترضة. فأمريكا تستوعب حوالي نصف ما يصدّر العالم الثالث من مصنوعات، وتلك هي مفارقة. وقد استفادت الشركات الأمريكية من مثل هذه

السياسات، وكذلك من الخلط الشائع بين رفاه أمريكا وقدرة الشركات المؤسسة في أمريكا على منافسة الشركات الأجنبية.

ثمة أهمية لإنتاج الشركات متعددة الجنسية خارج بلدها الأصلي، لكن ٨٥٪ من إنتاجها الصناعي تنتجه شركات محلية في موقع جغرافي واحد. فالشركات متعددة الجنسية لا تنتج سوى حوالي ١٥٪ من الإنتاج الصناعي العالمي. بالإضافة الى هذه الحقيقة، فإن العديد من اليساريين يركزون على نزوح الشركات الى بلدان واطئة الأجور، في حين يتحاشى رأس المال متعدد الجنسية، في واقع الحال، توجيه استثماراته الى أماكن واطئة الأجور، وهو بالفعل يتحاشى الاستثمار في أغلب البلدان النامية. وهكذا يشطب، من حيث الأساس، ثلثي سكان العالم من جدول استثماراته. وتهميش أكثرية سكان العالم يزيد عدم المساواة[٢]. فما بين ٧٠ الى ١٠٠ بلد ازدادت أوضاعها الآن سوءاً بالمقارنة مع ١٩٨٠، وذلك حسب معطيات الأمم المتحدة. حتى البلدان التي سمي تقدمها الاقتصادي معجزة، وازداد اندماجها في الاقتصاد العالمي، فإن تقدمها اللاحق لن يدوم بالضرورة. لقد أولت مجلات التنمية، قبل عقد من الزمن، اهتماماً بارزاً لكوريا الجنوبية، فأصدرت أعداداً خاصة عن كوريا، باعتبارها الأنجح بين البلدان المصنعة حديثاً. وها هي تلك المجلات تنشر اليوم التقارير حول المخاطر التي تحف بالاقتصاد الكوري والإفلاسات التي تحيق بالشركات الكورية العملاقة التي تحظى بمساندة مفرطة من الدولة. فالهشاشة الناجمة عن المنافسة المنفلتة تولّد القلق، في أفضل الأحوال، لدى العمال في كل مكان، وهي أيضاً تولد لهم النكبات أحياناً.

وفي جميع الأحوال ليستّ كلفة الأجور، إلا نادراً، العنصر الحاسم في تكاليف المنتجات (رغم أهميتها في صناعات معينة كصناعة الألبسة وتجميع الأجهزة الالكترونية). فالسبب الرئيسي للبطالة في الصناعة هو التقدم التكنولوجي. فالناتج الصناعي الأمريكي يبلغ اليوم خمسة أمثال ما كان عليه عام ١٩٥٠ حتى وإن هبط عدد العمال الذين تحتاجهم الصناعة التحويلية. وهذا في معظمه يحصل نتيجة التكنولوجيا التي تحل محل العمل، وليس نتيجة نزوح المصانع. إن الافتقار الى التنظيم النقابي للعاملين في الصناعات ذات التكنولوجيا الرفيعة المتنامية بسرعة من شأنه إضعاف مواقع العمال جميعاً. وهذا التنامي الهام يسهم في تفاقم عدم المساواة في الاقتصاد الأمريكي.

المنظور الأبعد

إن الرأسمالية نظام عالمي دوماً رغم التغير الذي يرافقها في أشكال تأثير الاقتصاد العالمي. ومؤرخو الاقتصاد يدعوننا الى معاينة الحاضر بمثل هذا المنظور. فالاقتصاد السياسي لعالم اليوم ليس أكثر عولمة منه قبل مئة أو مئة وخمسين سنة. ولو أعدنا قراءة «البيان الشيوعي» لرأينا أنه يؤكد على:

«أن البرجوازية، من حيث استغلالها السوق العالمية، قد أعطت صفة الكوزموبوليتية (العالمية) للإنتاج والاستهلاك في كل البلدان. . . فبدل العزلة المحلية والقومية والاكتفاء الذاتي في السابق، لدينا تعامل في كل اتجاه، اعتماد متبادل عالمياً بين البلدان. . . وصفوة القول إن البرجوازية تخلق عالماً على صورتها».

مثل هذا الاندماج كان واضحاً حتى قبل اندماج الأسواق العالمية بفضل مد أسلاك التلغراف عبر المحيطات، وقبل حلول السفن التجارية المصنوعة من الفولاذ، محل السفن الخشبية الشراعية؛ ومن المؤكد أن مثل هذين الابتكارين كانا بمنظور تاريخي أكبر أهمية في تغيير توجهات الإنتاج من الشحن بالطائرات وبالحاويات بعد قرن من ذلك. وبمثل هذا المنظور التاريخي الواسع يستطيع المرء أن يستنتج أنه: «إذا كانت نظريات العولمة تعني أن لدينا اقتصاداً نتصل فيه بكل أجزاء العالم من خلال أسواق تتوفر فيها معلومات قريبة من الواقع الفعلي، فإن ذلك لم يبدأ في سبعينات القرن العشرين، بل في سبعينات القرن التاسع عشر»(٤). أما بالنسبة الى المبالغ النقدية الهائلة التي تتحرك في العالم بمجرد الضغط على أزرار الكومبيوتر، فإن مؤرخي الاقتصاد يجدون انفتاحاً أكبر نحو تدفقات رأس المال قبل الحرب العالمية مما هو في يومنا عند نهاية القرن. فلا يجد الباحثون زيادة في الانفتاح بين عامي ١٨٧٥ و١٩٧٥، بل يجدون هبوطاً نسبياً في تحركات رأس المال. فبعد مراجعة الشواهد يستنتج (بوب زيفين) أن «جميع عمليات المتاجرة بالملكية وبالأوراق المالية عبر الحدود كانت أكبر بكثير في سنوات ما قبل الحرب العالمية الأولى مما هي عليه الآن. وبصورة أعم يؤشر كل وصف متاح لأسواق المال في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل قرننا الى أن تلك الأسواق كانت أكثر اندماجاً مما كانت عليه قبل ذلك ومما هي عليه منذئذ»(٥). أما المنتجات غير المنقولة فقد ارتفعت نسبتها من الناتج الكلي بين بداية قرننا ونهايته، مع تزايد مستمر في الخدمات التي يبيعها القطاع الخاص داخل بلدانه أو تقدمها الحكومات المعنية.

لقد ظهرت الصناعات التحويلية متعددة الجنسية أواسط القرن التاسع عشر، وترسخت في بداية قرننا. وخلقت الحربان العالميتان والكساد العظيم ما يعتبره (اريك هوبسبام) في كتابه حول القرن العشرين، مثابة فترة انفصال للاقتصادات القومية، فترة واقعة بين عصرين من تدويل الاقتصاد. وحسب رؤيته، فإننا بعد أن اكتمل تلافي عواقب الحربين العالميتين والكساد العالمي، لا نجد بداية اتجاه جديد بل عودة الى الاتجاه العام. فتدفقات رأس المال حالياً لا تؤثر على التطور الاقتصادي بمقدار تاثيرها في القرن التاسع عشر، والعالم، كما أسلفنا، ليس أكثر عولمةً اليوم منه قبل قرن، غير أنه يختلف اليوم في نواح أساسية عما كان عليه قبل نصف قرن. وهذا الواقع الحي هو المحور الذي يدور حوله معظم الجدل حالياً. ومن المفيد التعرف على ما طرأ من تلاش للاقتصاد السياسي (الكينزي) لدولة الرفاه القومية منذ انبثاقه من خلال محنتي الحرب والكساد العالميين، وكذلك مدى التراجع الذي يشهده الفكر الاقتصادي عن المدرسة الكينزية بحيث استعاد فكر الحرية الاقتصادية هيمنته الايديولوجية.

الاقتصاد السياسي لما بعد الحرب

كانت أوضاع الكساد العظيم واحتياجات الحرب العالمية الثانية، قد أدت كل بطريقتها الخاصة، الى إضعاف الثقة باقتصاد السوق، وقادت الى القبول بتخطيط الدولة وإعطاء الحكومات دوراً أكبر في تخصيص الموارد. ففي بلدان المتربول سادت، الى هذا الحد أو ذاك، النظم الاشتراكية ـ الديمقراطية التي أقامها يسار الوسط بعد فوز التحالفات بين العمال والليبراليين. فقد سادت مساومة طبقية اضطر فيها رأس المال الى تقبّل النقابات، وبدور الدولة في تحقيق استقرار الاقتصاد. وقاد ذلك الى بنية التراكم التي نشأت بعد الحرب في سياق نجاحات إعادة بناء الاقتصاد بعد الدمار الذي خلفته الحرب في أوربا واليابان، كما قاد الى هيمنة أمريكا عالمياً. فمن خلال مشروع مارشال، ومن ثم عبر الأحلاف العسكرية «احتوت» أمريكا خطر «الاشتراكية القائمة» والحركة الجماهيرية الشيوعية في كل من فرنسا وإيطاليا. وعُزلت النظم غير الرأسمالية في أوضاع العسكرة المتبادلة أثناء الحرب الباردة، وقُدمت تنازلات للعمال في البلدان الرأسمالية المتقدمة.

أما في المستعمرات التي نالت استقلالها، فقد استغلت برجوازيتها المحلية نزعة القومية لبناء مواقعها في مواجهة السادة المستعمرين السابقين، ولغرض حرمان الجماهير من دور فاعل، استخدمت البرجوازية الخطاب القومي والتظاهر بالالتزام

بالتخطيط وبأشكال اشتراكية من التنمية أثبتت الممارسة أنها تقوّي النخب المحلية أكثر من توطيد دور الجماهير. ولما تباطأت معدلات النمو العالمية، بفعل الاضطراب الاقتصادي الذي شهدته السبعينات، وجدت تلك النخب موقعاً يلائمها كشريك ثانوي للرأسمالية متعددة الجنسية. فالخصخصة والتنمية ذات الوجهة التصديرية حلتا محل التأميم وستراتيج التصنيع الرامي الى الاكتفاء الذاتي، ذلك الستراتيج الذي أعاقه ضيق السوق المحلي نظراً للتباين الفاضح في المداخيل والثروة بين السكان.

أما البلدان المتقدمة فما أن تحقق انتعاشها من الكساد وعواقب الحرب العالمية الثانية حتى أدت الطاقات الانتاجية الفائضة والمنافسة الشديدة الى انبعاث ستراتيج الأجور الواطئة ليحل محل الستراتيج الكينزي القومي الرامي الى توسيع السوق من خلال زيادة الأجور محلياً وزيادة الإنفاق الحكومي الممول من الميزانية رغم أن ذلك يسبب العجز فيها. وأعادت العولمة توكيد نفسها من خلال مساعي الشركات متعددة الجنسية للتغلغل في أسواق بعضها البعض، وأدت الكلفة العالية لتطوير المنتجات، وتسارع دخول المنتجات المستحدثة ميدان الإنتاج، الى الضغط باتجاه تسويقها عالمياً.

إن هذا التحول من السياسة الاقتصادية الكينزية القومية الى السياسة الكلاسيكية المحدثة (النيوكلاسيكية) ذات النزعة العالمية قد رافقه تقويض القيود على رأس المال، وهي القيود التي فُرضت عليه، أثناء الأزمة التي شهدتها الفترة ما بين الحربين، وذلك لحماية الرأسمالية من تدمير نفسها بفعل منطق نظامها ذاته. وكما أشار كارل بولياني في السابق، وكما أشار في الآونة الأخيرة الملياردير جورج سوروس وآخرون، فإن الحرية الاقتصادية الحقيقية تؤدي الى عدم الاستقرار وعدم الاطمئنان الى درجة لا يطيقها معظم الناس، فهي في آخر المطاف تقوض مقدرة النظام الرأسمالي على البقاء. وتتعرض للهجوم حالياً إصلاحات الثلاثينات التي أدت الى استقرار الرأسمالية الأمريكية. وكانت تلك الإصلاحات تشمل الضمان الاجتماعي، والتنظيم الحكومي للمصارف ولأسواق الأوراق المالية، وقوانين العمل (مثل اشتراط حصول المستخدمين على أجور للعمل الإضافي تزيد بنسبة ٥٠٪ عن أجورهم الاعتيادية) وكذلك القوانين المضادة للاحتكار.

انتصارات ايديولوجيا الحرية الاقتصادية وتطبيقاتها

إن الهجوم الراهن للمنطق الرإسمالي في حياة المجتمع برمتها من شأنه إضعاف العديد من وظائف الدولة، تلك الوظائف التي أضفت المشروعية على الدولة، فضمنت ولاء

المواطن لأنماط التراكم الرأسمالي. فقد تعرضت للهجوم برامج كانت تحظى بتأييد جماهيري واسع النطاق، إذ تعالت الدعوة لفرض منطق السوق على كل شيء (كالقول إن الدولة يجب ألا تدعم الطلبة مالياً كي يدفعوا أجور الجامعة، ويجب إلغاء الإسكان الحكومي، وإلغاء القطاع الطبي الحكومي، وإلغاء الدعم الحكومي للذين لا يستطيعون تحمل تكاليف المحاكم). غير أن جرأة ايديولوجيي السوق حالياً في مهاجمة كل ما يقع ضمن الدعم الحكومي، وما يوفر الخدمات للمحتاجين، ويضمن الأمان تجاه القيم الفردية التي تسود السوق، هذه الجرأة انما تمثل مؤشراً على هزيمة الديمقراطية. ففي أمريكا تتراجع الأشكال المحدودة من الضمانات الاجتماعية التي تحافظ على تماسك المجتمع، فتنقل مسؤولية توفير الخدمات من الحكومة المركزية الى الولايات ومنها الى الأطر المحلية، وفي النهاية يمسي الأفراد مضطرين لشراء الخدمات إن هم استطاعوا دفع أثمانها. وهذه الإجراءات لا علاقة لها بسيرورة العولمة، بل هي وثيقة الارتباط بانتصارات رأس المال على العمل، وما ينجم عنها من إضرار بحقوق المواطنة.

فبعد ثلاثين سنة من تخلف الأجور عن الأسعار يزعم رئيس بنك الاحتياط (أي البنك المركزي ـ ث ج ـ الأمريكي أن الخوف من البطالة آخذ في الانحسار، لذا حان الوقت للحد من نمو الاقتصاد. وهذا أوضح مؤشر على انتصار رأس المال في عصرنا[٦]. والواقع إن الشركات الأمريكية قد تكيفت أرباحها للتضخم، فارتفعت بنسبة ٥٠٪ منذ عام ١٩٩١، وهي ماضية في الاستغناء عنّ العمال واستخدام غيرهم. إن هزيمة السياسات الاجتماعية التقدمية وتراجع قوة النقابات مكّنا الرأسمالية الأمريكية من تقليص البطالة بدون رفع الأجور. فرغم أن فرص العمل أصبحت متوفرة نسبياً، فإن الفرص الجديدة هي في الغالب من النوع الرديء. فأجورها أقل، في الغالب، من أجور الأعمال السابقة، إذ أن العمال المستغنى عنهم، ويجدون فرص عمل جديدة، تهبط أجورهم الجديدة بنسبة ١٤٪ في المعدل.

وعام ١٩٩٣ كان ٢٧٪ من عمال أمريكا يعملون بأجور لا تكفي للعيش فوق مستوى الفقر، وكان لحوالي ثلث مجموع العمال فقط تأمين طبي يموله أرباب عملهم بالكامل. والمشكلة لا تقتصر على وجود بطالة مقنعة عالية، وتزايد نسبة العاملية بدوام جزئي، فأجور الفقراء العاملين بدوام كامل لا تكفي للعيش فوق خط الفقر. فالعامل الفقير يعمل بجهد أكبر وسكنه دون المستوى اللائق، وهو يفتقر الى الضمان الطبي. وإن ٢٠٪ من العاملين بدوام كامل ليس لديهم أي ضمان تقاعدي او طبي. والزيادة السريعة لعدد

العمال بدوام جزئي إنما تعني اتساع حالة عدم الاطمئنان. وفي حين كان متوسط دخل مدراء الشركات يساوي ٤٠ مرة متوسط دخل عمال المصانع الأمريكية عام ١٩٦٠ فإن هذا الرقم ارتفع الى ١٤٩ مرة عام ١٩٩٣. أما المعونة الاجتماعية المدفوعة الى العوائل الفقيرة ذات الأطفال فكانت نسبتها ٧١٪ من مقدار الدخل الواقع عند خط الفقر عام ١٩٧٠، وقد هبطت هذه النسبة الى ٤٠٪ فقط عام ١٩٩٢، وهي أدنى حالياً. وكانت القيمة الحقيقية للحد الأدنى للأجور (أي قدرتها الشرائية ـ ث جـ) عام ١٩٩٤ أوطأ مما كانت عام ١٩٥٠. وأغنى الأمريكان، وهم ١٪ من مجموع الأسر، يملكون أكثر مما يملك ٩٠٪ من مجموع الأسر. وقد حصلت الأقلية الثرية هذه على ٦٠٪ من مجموع الأرباح الصافية، بعد طرح الضريبة وذلك للفترة بين ١٩٧٧ و١٩٨٩.

صدر مؤخراً تقرير عن الشركة العملاقة للدعاية والإعلان المسماة ساعجي وساعجي (مؤسساها من أصل يهودي عراقي ـ ث جـ). وينصح التقرير المستثمرين باتباع ستراتيج Teffany/ Wall-Mart بسبب «التآكل المستمر للطبقة الوسطى التي كانت في العادة زبونتنا الكبرى» هذا يعني تفادي الاستثمار في شركات توجه منتوجها للطبقة الوسطى لأنها آخذة في الانحسار. واليوم يدفع أغنى ١٪ من السكان حصة أصغر من دخلهم كضرائب مما دفعوه عام ١٩٧٩، في حين تضاعفت حصتهم من الدخل القومي. ويقول (مايكل ماندل) في مجلة Business Week «يعيش الأمريكيون مرحلة تجمع بين النمو وعدم الاطمئنان معاً، وهي حالة لم يشهّدوا مثلها سابقاً»[٧]. وأدى ازدهار أسواق المال الى فورة في الاستهلاك لدي الطبقة العليا. فقد بيع أكثر من نصف السيارات الجديدة الى مَن هم في أعلى ٢٠٪ من الدخل. لقد بات الانقسام الطبقي أشد وضوحاً في كل مكان. فالاقتصاد السياسي الماركسي يغدو أكثر انطباقاً على الواقع من أي وقت مضى، أما علم الاقتصاد الرسمي فيتقهقر الى ما قبل الكينزية من أصوليات.

إنها الرأسمالية وليس العولمة

في هذا السياق يمثّل القول بعجز الدولة عن وقف الاتجاهات الحالية أداةً قوية بيد رأس المال. فالفكرة القائلة إن «العولمة» توهن دور الدولة تتجاهل القدرة التقنية المستمرة للدولة على تنظيم رأس المال. فيمكن للمال أن يهرب الى بلدان أو مصارف المناطق الحرة فيتمتع بنعيم الخلاص من الضرائب، ولكن هذا الهروب لا يجري إلا إذا سمحت به أهم البلدان المتقدمة. فلو عاقبت أمريكا المصارف (ومودعيها) العاملة في

البلدان التي تحجب المعلومات اللازمة لاستيفاد الضريبة على رأس المال الذي ينتقل إليها، لتوقف نشاط معظم المصارف في جنات الضرائب. فليس هناك ما يحول بين السلطات المختصة وفرض الضرائب على تحويلات رأس المال، واستحداث ضوابط أخرى. لكن حكومات البلدان المتقدمة، لاسيما أمريكا وبريطانيا، هي التي تحث على رفع الضوابط الحكومية على الاقتصاد، وهو خيار سياسي وليس ضرورة تقنية. فلو طالبت أمريكا بالحقوق الأساسية للعمال لاستطاعت رفع الأجور وتحسين ظروف العمل في كل البلدان، لكن أمريكا تفعل الكثير لتقويض تلك الحقوق في بلادها هي. إن خيارها السياسي هذا يجعلها تحث على التسابق في الانحدار الى القعر، وذلك تحت شعار حرية التجارة. أما الدعوة المضادة للهيمنة والى التضامن والعدالة الاجتماعية فتنطوي على توجهات مختلفة تماماً في تضبيط الاقتصاد. لكن ضعف اليسار، من الناحيتين الايديولوجية والتنظيمية يتيح المجال لتوطيد قوة دعاة العولمة. فليست هذه القوة ناجمة عن تهديد أرباب العمل الأمريكيين بغلق المصانع والانتقال الى المكسيك وغيرها. إنهم يفعلون ذلك حقاً، وتهديداتهم فعالة في ظل المناخ السائد في تشريعات العمل داخل أمريكا[8]. لكن المشكلة لا تكمن في التجارة الدولية بحد ذاتها، بل في الظروف السياسية التي تجري هذه التجارة في ظلها. يروي لنا R. Blackburn في كتابه الجديد The Making of New World Slavery أن الارباح المتولدة عن الرق قد ساهمت عام ١٧٧٠ بثلث رأس المال البريطاني المستثمَر. فخلال ما يمكن تسميته تقسيماً عالمياً جديداً للعمل كان العبيد ينتجون الرز، القهوة، السكر ومنتجات أخرى أساسية لمستوى معيشة وثروات الكثير من الأوربيين. والطريف ليس مقدار التغيير الذي تحدثه العولمة في الأمور بل استمرارية العقلية والممارسات الرأسمالية. يقول Eric Foner: «إن ورشات العمل المرهق في الأحياء الفقيرة، والمصانع التي تستخدم الأطفال في العالم الثالث، تمثل اليوم المعادل الوظيفي للعبودية في العهد الاستعماري من حيث أن طلب المستهلكين وسعي رجال الأعمال الى الربح يدوسان على حقوق العمال الذين ينتجون السلعة القابلة للبيع»[9]. لقد قاوم الشغيلة هذه التوجهات دوماً. وفي نهاية القرن العشرين ستتعزز مقاومتهم إذا لم ندع فزّاعة العولمة تشل قوانا. فالنظام هو نفسه، ومنطقه هو ذاته، وحاجة عمال العالم الى الاتحاد لم تكن يوماً أكبر مما هي الآن. فقد آن الأوان لزيادة الوضوح في نقدنا لأساسيات عمل ما يدعى «الأسواق الحرة»، فما هي في الواقع إلا قوة طبقية. نحن بحاجة الى طرح ضرورة السيطرة على رأس المال ولجعل الاقتصاد في خدمة حاجات الانسان،

لا أن نقبل باستمرار تضحية العاملين تحت شعارات ايديولوجية مثل القدرة على المنافسة، والأسواق الحرة، والمتطلبات المزعومة للعولمة.

الهوامش

(١) See Paul Hirst and Grahame Thompson, Globalization in Question: the International Economy and the Possibilities of governance (Cambridge: Polity Press 1996).

(٢) See Hirst and Tompson, p. 68.

(٣) تأمل: أن ٢٠ ـ ٢٥٪ من نمو الأجر الحقيقي على مدى السنة الماضية جاء من المهن التقنية العالية. فالصناعات، مثل الحاسبات، والـSoftware، والاتصالات، والمبيعات والتصليحات ذات التكنولوجيا، ووسائط البرمجة، وتكنولوجيا المعلومات من جميع الانواع، هي التي تحفز الاقتصاد. وفي السنوات الثلاث الماضية ساهم قطاع التكنولوجيا العالية بـ ٢٨٪ من النمو في الناتج القومي الإجمالي مقارنة بـ ٤٪ بالنسبة للسيارات و ١٤٪ بالنسبة للإسكان. بالاضافة الى ذلك تهيمن تأثيرات مضاعف الإنفاق الاستهلاكي من قبل ذوي المهن التكنولوجية على اي نمو يتحقق في باقي الاقتصاد.

"The New Business Cycle" Business Week, March 31, 1997.

(٤) See Hirst Thompson, pp. 9-10.

(٥) Robert Sevin, "Our World Financial Market is More Open? If so, Why and with What?" Tariq Banuri and Juliet B. Schor, ed., Financial Openness and National Autonomy; Opportunity and Constraints (new York: Oxford University Press, 1992), pp. 51-2.

(٦) يعي العمال في الواقع استمرار الشركات تقليص فرص العمل ويستمرون في الخوف من أنهم سيفقدون عملهم ويجبرون على العمل في مهن تدر أجوراً ومزايا أقل. ويسأل مسح تقوم به جامعة وسكونسون كل ثلاثة أشهر عينة عشوائية من العمال «ماذا تعتقد نسبة احتمال فقدان عملك خلال الاثني عشر شهراً القادمة؟» وفي أحدث مسح كان متوسط الإجابة ١٧,٥٪ وهي أعلى من ١٦٪ قبل سنة مضت.

Aeron Burnstein, "Who Says Job Anxiety is Easing?", Business Week, October 28, 1997, p. 38.

(٧) Michael J. Mandel "The High-Risk Society", Business Week, October 28, 1996, p. 86.

(٨) "NAFTA: A New Union-Busting Weapon?", Business Week, January 27, 1997, p. 4.

(٩) Eric Foner "Plantation Profiteering", The Nation, March 31, 1997, p. 28.

العولمة سيرورة متواصلة

بول سويزي*

كُتب الكثير عن «العولمة» في السنوات القليلة الماضية. وهدفي هنا ليس أن أضيف الى هذا الكثير، بل فقط أن أضع الموضوع في سياق فهمي لتأريخ الرأسمالية.

العولمة ليست حالة أو ظاهرة بل سيرورة جارية، منذ وقت طويل، وفي الحقيقة منذ أن جاءت الرأسمالية الى العالم كَشكل من المجتمع قابل للحياة، وذلك قبل أربعة أو خمسة قرون (وتحديد تاريخ ولادة الرأسمالية قضية مهمة ولكنها ليست هدفنا هنا). ما هو مهم ويعنينا هو أن نفهم أن الرأسمالية هي في جوهرها الأعمق نظام متوسع داخلياً وخارجياً. فحالما تتجذر، فهي تنمّو وتنتشر. والتحليل الكلاسيكي لهذه الحركة المزدوجة هو بالطبع كتاب «رأس المال» لماركس.

بيد أن ماركس لم يثر مطلقاً مسألة ما اذا كانت الرأسمالية قابلة للحياة العولمة بحيث لا تجد عندما تبلغ مرحلة العولمة الكاملة بحيث لايبقى هناك مكان غير رأسمالي تنتقل اليه والسبب بالطبع هو أنه توقع أن الرأسمالية ستسقط وسيتم استبدالها بنظام آخر قبل فترة طويلة من الوصول الى العولمة التامة. لم يسأل ماركس وبالتالي لم يحاول أن يجيب عما اذا ستكون الرأسمالية المعولمة بالكامل قادرة على البقاء، ناهيك عن الازدهار، من خلال التوسع الداخلي فقط. فبقي لأتباع ماركس أن يتناولوا هذه المسألة وغيرها من

* عضو هيئة تحرير مجلة Monthly review. والمقال منشور في عددها لايلول ١٩٩٧.

المسائل المتعلقة بها... وأشجع، وربما أهمّ، المحاولات كانت تلك التي قامت بها روزا لكسمبورغ في كتابها الرائع: «تراكم رأس المال» (1912) قامت روزا لوكسمبورغ بأشجع محاولة، وأطراقها من بعض الجوانب حين طرحت النظرية القائلة أن الرأسمالية، منذ أيامها الأولى، قد عاشت، واستطاعت العيش فقط، بواسطة التوسع في المجال غير الرأسمالي المحيط بها. وبذلك فأن جوابها هو أن استنفاد كل هذا المجال سيجلب الأزمة النهائية التي لا مفر منها للرأسمالية.

خلافاً لذلك، ركز لينين ليس على الرأسمالية ككل بل على الرأسمالية باعتبارها مجموعة من الوحدات التي تتنافس أقواها للسيطرة على الوحدات الأضعف، بما فيها ما بقي من المناطق غير الرأسمالية. فذلك هو محور كتابه «الامبريالية: أعلى مراحل الرأسمالية». وقد كتبه خلال الحرب العالمية الأولى التي وفرت ثروة من الأدلة التجريبية المؤيدة لرأيه. فالحرب بين القوى الامبريالية الكبرى أدت الى إضعاف النظام الرأسمالي بمجمله وفتح الطريق أمام الثورات من الأسفل، وخصوصاً الثورة الروسية، التي هددت ديمومةَ حياة الرأسمالية. الا أن النظام الرأسمالي استرد عافيته. فبعد الحرب مباشرة استأنفت القوى الامبريالية صراعاتها الضروس، التي تعقدت هذه المرة بوجود قوة غير رأسمالية كبرى. وبلغ ذلك الصراع المتجدد ذروته في الحرب العالمية الثانية، والموجة الجديدة من الثورات، لا سيما الثورة الصينية، وبروزُ الولايات المتحدة كأكبر قوة، وانقسام العالم الى طرفين، الرأسمالي تحت هيمنة الولايات المتحدة، وغير الرأسمالي تشكل بالدرجة الأولى من الاتحاد السوفياتي وجمهورية الصين الشعبية. وكان الصراع التالي بين الطرفين، الذي عُرف بالحرب الباردة، وجرت العادةُ الى اعتباره صراعاً بين مجموعتين من الدول، لكنه في الواقع أكثر تعقيداً بكثير، وتضمن حروباً كبيرة مستعرة، وحروب عصابات، ومحاولات للثورة، وثورات مضادة ناجحة. بعد أن استمرت طول النصف الثاني من القرن العشرين تقريباً، انتهت الحرب الباردة مع استعادة وانتصار الرأسمالية على نطاق عالمي فعلاً. لكن هذه المحصلة لم تكن نتيجة لعملية هادئة من التوسع الرأسمالي داخل وخارج حدوده التقليدية. فقد لعب العنف بأشكاله المتنوعة دوراً هائلاً في ذلك. وفي مناطق شاسعة في البلدان التي لم تكن رأسمالية جرى اعلان الرأسمالية وشرعنها وغرسها بشكل مقصود، ولكن لا يوجد ضمان تام بأنها ستصمد وتنمو بصورة «طبيعية». اضافة الى ذلك ثمة تغيرات في الرأسمالية ترفق نضجها في مواقعها التقليدية (الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي واليابان والبلدان المستعمرة

سابقاً) وهي تغيرات تثير أسئلة جدية حول ما ينطوي عليه استمرار توسع الرأسمالية في مرحلة ما بعد الحرب الباردة.

يدور في فكري هنا ثلاثة من أهم الاتجاهات الأساسية في تاريخ الرأسمالية الحديث، أي خلال الفترة التي بدأت مع ركود عام ١٩٧٤/ ١٩٧٥: أولاً: تباطؤ معدل النمو الاجمالي، ثانياً: تكاثر الشركات الاحتكارية (أو احتكارية القلة) متعددة الجنسية على الصعيد العالمي، ثالثاً: ما يمكن تسميته تموّل Financialization سيرورة تراكم رأس المال. وهذه بالطبع كانت فترة من تسارع العولمة، مدعومة بتحسن وسائل الاتصالات والنقل. لكن الأكيد أن الاتجاهات الثلاثة المذكورة لم تنجم أو تتولد عن العولمة. على العكس، يمكن أن نعزو هذه الاتجاهات الثلاثة جميعاً الى تغيرات داخلية طرأت على سيرورة تراكم رأس المال، وتعود بدايتها الى حوالي مئة عام، الى سيرورات التركّز والتمركز التي ميزت أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وطبقت بسماتها الانتقال من الرأسمالية (التنافسية) المبكرة الى الرأسمالية (الاحتكارية) المتأخرة. وبعد أن قطعت الحرب العالمية الأولى وعواقبها تأثير هذا الانتقال فانه عاد ليضرب بكامل قوته اثناء الكساد الكبير في عقد الثلاثينات، الذي لم يتعافَ منه بشكل تلقائي، والذي أعطى دليلاً قوياً على كونه بداية لفترة من الركود والانحدار المزمن. ولكن مرة أخرى جاءت الحرب العالمية للنجدة فانتجت، مع عواقبها والحرب الباردة، ما أصبح يعرف باسم «العصر الذهبي» للرأسمالية (١٩٥٠-١٩٧٠). وبلغ ذلك العصر نهايته في كساد ١٩٧٤/ ١٩٧٥ وأعقبه اعادة التأكيد والتشديد على الاتجاهات التي يعود تاريخها الى منعطف القرن: النمو المعوّق، وتزايد الاحتكار وتموّل سيرورة التراكم.

ان تلك الاتجاهات الثلاثة مترابطة بشكل معقد. فللاحتكار نتائج متناقضة، فهو من جهة يخلق تدفقاً متضخماً من الأرباح، ومن جهة أخرى يخفض الطلب على الاستثمار الاضافي في أسواق تخضع بصورة متزايدة للسيطرة: ان تزايد الأرباح مع تقلص فرص الاستثمار المربح لا بد أن تؤدي الى تباطؤ تراكم رأس المال والبتالي تباطؤ النمو الاقتصادي الذي يستمد الزخم من تراكم رأس المال.

ما ذكرناه يصف ما حدث خلال عقد العشرينات الذي اتسم بالتصاعد المستمر في الطاقة الانتاجية غير المستغلّة في صناعة بعد أخرى، وهو تصاعد بلغ أوجه في انهيار ١٩٢٩-١٩٣٣. وفي ذلك الوقت كان قد ظهر اتجاه متنام للأرباح غير القادرة على ايجاد منافذ مربحة في تكوين رأس مال مادي فتحولت الى قنوات مالية صرفة ذات طبيعة

مضاربة في الغالب. من هنا الازدهار والانهيار المثير لسوق الأسهم في أواخر العشرينات. وعادت السيرورة المزدوجة نفسها من تراجع الاستثمار الحقيقي واشتداد التموّل للظهور في «العصر الذهبي». خلال العقود التي عقبت الحرب العالمية الثانية واستمرت بقوة متزايدة حتى الوقت الحاضر[1].

وبالتأكيد فان كل ذلك قد حدث في سياق استمرار العولمة التي تركت بصمتها على مجرى السيرورات الأخرى. لكن العولمة نفسها ليست القوة المحركة. فهي تبقى على ما كانت عليه طوال الفترة التي نعتبرها التاريخ الحديث: انها سيرورة تراكم رأس المال التي كانت على الدوام توسعية وانفجارية في أحيان كثيرة.

ملاحظات

(١) ان شكلي الاستثمار، الحقيقي والمالي، مرتبطان بالطبع، ولو أن ذلك ليس بالطريقة المبسطة (والخاطئة في الأكثر) التي يسلم بها علم الاقتصاد السائد.

وللمزيد من النقاش حول هاتين السيرورتين، انظر هاري ماكدف وبول سويزي· «الركود والانفجار المالي» -stag nation and financial explosion (Monthly Review Press, 1987).

التغيرات المناخية وبعض مشكلات التنمية

د. حسن الجنابي

عقد في الأسبوع الأول من شهر ديسمبر في العام ١٩٩٧ أول مؤتمر دولي حول المناخ في مدينة كيوتو اليابانية وساهمت به وفود من ١٦٠ دولة، من أجل التوصل الى صيغ مقبولة لمعالجة ما يصطلح عليه اليوم باللغة الانجليزية بـ Global warming أي ارتفاع حرارة الأرض.

يعد هذا المؤتمر ثاني أهم التجمعات الدولية التي تنظر في مستقبل الكرة الأرضية في ضوء التغيرات الهائلة التي أحدثتها الحضارة الانسانية المعاصرة، بعد مؤتمر «قمة الأرض» الذي عقد في ريودي جانيرو في البرازيل عام ١٩٩٢. جاء مؤتمر كيوتو تتويجاً لسلسلة من الأنشطة الدولية المشابهة من حيث المنحى كمؤتمر السكان في القاهرة، ومؤتمر المدن في اسطنبول ومؤتمر برلين للبيئة وغيرها. الا أنه يتميز عما سبقه من حيث كونه أول محاولة بشرية لمعالجة مشكلة ارتفاع حرارة الجو الناتجة عن كثافة إطلاق الغازات الحابسة للحرارة (Green House Gases) التي ازدادت نسبتها في الجو بمعدلات لم يشهدها التاريخ. فما هي هذه الغازات.

انها مجموعة من الغازات المختلفة في خواصها الكيمياوية والمتشابهة من حيث مفعولها بالتجمع في أعالي الجو مشكلة غطاء كثيفا من الغازات لا يمكن معه لحرارة الأرض من التسرب الى الفضاء والتلاشي كما كان الأمر عبر التاريخ ما قبل الصناعي. وبالتالي فان حرارة الأرض تبقى محبوسة في الجو المحيط بها مباشرة مما يؤدي

بالنتيجة الى ارتفاع حرارة الأرض بكل ما يعنيه ذلك من مشكلات كبرى لمستقبل الانسان كما سنرى. وهي تشمل غاز ثاني أوكسيد الكربون وغاز الميثان ومحلول الفلوروكاربون وأوكسيد النتروز وغيرها. وقد يعتبر بخار الماء في بعض الأحيان غازا حابسا للحرارة إذا ما تكاثفت الغيوم بشكل كبير نتيجة لزيادة نسبة التبخر من سطوح المحيطات والبحار، وهي واحدة من النتائج الحتمية لارتفاع حرارة الجو. إن الدور الذي تلعبه هذه الغازات يشبه دور الغلاف الزجاجي والبلاستيكي الذي يحافظ على دفء «البيوت الخضراء Green House» المستخدمة لانتاج المحاصيل في غير موسمها.

تختلف التقديرات بشأن ارتفاع حرارة الأرض ومخاطرها من دولة الى أخرى، كما يختلف بشأنها علماء المناخ أنفسهم. فعندما عقد مؤتمر قمة (ريودي جانيرو) في عام ١٩٩٢، كان العالم أكثر تفاؤلاً ليس بامكانية السيطرة على التلوث البيئي والحد من اطلاق الغازات الملوثة فحسب، بل كذلك بالنوايا المعلنة لدول العالم، وخاصة الصناعي منه. فوقع قادة تلك الدول على الوثائق النهائية للقمة، (والتزمت أمريكا بتثبيت اطلاق ثاني أوكسيد الكربون عند مستوى عام ١٩٩٠ وذلك قبل عام ٢٠٠٠). وبالرغم من أن تلك القمة أظهرت أن مشكلة البيئة أعقد بكثير مما كان يعتقد، الا أنها وضعت سقفاً زمنياً محدداً لمتابعة الالتزامات الدولية بشأنها عن طريق مؤتمرات متخصصة تعتبر (كيوتو) احدى محطاتها.

لم يشهد كوكبنا مثيلاً للتلوث المعاصر نتيجة الثورة الصناعية بالأخص اعتباراً من منتصف القرن الماضي. فقد ازدادت نسب افراز الغازات كثيراً بسبب الاستهلاك الهائل للطاقة والاستعمال المتسارع للوقود السائل والفحم وحرق الأخشاب في الصناعة والزراعة والنقل وما شاكل من الأنشطة الاقتصادية المعروفة. كما ساهمت الزيادة الكبرى في عدد سكان الأرض بتعقيد المشكلة. فالحاجة لبناء المساكن والمدن وشق الطرقات وقطع الغابات، تسبب في تقليص الغابات التي تمتص غاز ثاني أوكسيد الكربون لاستخدامه في عملية التركيب الضوئي، فهذا الغاز الملوث يعتبر من أكثر الغازات خطورة، وهو يطلق بكميات كبيرة من محطات توليد الطاقة والمصانع والسيارات والقطارات والطائرات والبواخر وغيرها. ويقدر العلماء أن سكان الأرض يطلقون سنوياً ما مقداره ٧ مليار طن من غاز ثاني أوكسيد الكربون، فارتفعت بذلك نسبة تركيزه في الهواء بمقدار ٣٠٪ عن نسبته في العام ١٨٦٠؛ وزادت نسبة غاز الميثان بـ ١٤٥٪ مقارنة بالعصر ما قبل الصناعي، ويعتقد أن النسبة ستتضاعف في منتصف القرن

المقبل.وثمة ارتفاع مماثل، وهكذا يتكون غلاف كثيف من الغيوم السامة حول الأرض، فتنحبس حرارتها ويتلوث هواؤها ومياهها. فعلى سبيل المثال سجلت السنة الممتدة من نوفمبر عام ١٩٩٦ الى نوفمبر ١٩٩٧ أعلى درجات الحرارة في التأريخ حسب دائرة الأنواء الجوية البريطانية، ويتعزز أكثر فأكثر بالأدلة العلمية الاعتقاد أن للغازات الحابسة للحرارة دوراً أساسياً بذلك.

نسب الغازات ومخاطر ارتفاع حرارة الأرض

من السهل دراسة الخصائص الكيمياوية والفيزياوية الحالية للغلاف الجوي ومكوناته بفضل التقدم العلمي والتكنولوجي المعاصر. فالأقمار الصناعية تقدم صوراً يومية عن حالة الجو ويقوم الخبراء بتحليلها ودراسة سلوك الغلاف الجوي ومظاهر التغير فيه وفي قشرة الأرض أيضاً. كما يسهل تقدير نسب افراز الغازات عن طريق الدراسات الاقتصادية والاحصائية عن النمو الاقتصادي للدول والقارات المختلفة. أما نوعية الهواء في الماضي ونسب الغازات المختلفة فيه، فتتم معرفتها عن طريق دراسة الجيوب الهوائية المحصورة في طبقات الجليد في القطب. ويمكن للمختصين تقدير عمر الهواء المحصور عن طرق حساب طبقات الجليد المترسب حوله، مثلما يمكن تقدير عمر الأشجار بحساب حلقات جذوعها. وللغازات المختلفة أضرار تختلف من غاز الى آخر بحسب الخصائص الفيزياوية والكيمياوية، لكن من الصعب معرفة الضرر الحقيقي لكل غاز على حدة، وبالتالي فإن حساب حجم الغازات التي تطلقها أية دولة ليس بالعملية الحسابية البسيطة.

في ما يخص ارتفاع حرارة الأرض، فالمعروف أن معدله سجل ارتفاعاً خطيراً بلغ أكثر من نصف درجة مئوية خلال القرن الماضي، وهو قرن التطور الصناعي والزيادة السكانية، وتتنبأ النماذج الرياضية المتداولة في دراسة المناخ بارتفاع مقداره ثلاث درجات مئوية بحلول عام ٢١٠٠م.

لا تتأتى الخطورة على مستقبل الحياة من حقيقة أن حرارة الجو ارتفعت، أو سترتفع، درجة مئوية واحدة أو اثنتين، بل من كون أن ما أحدثته الطبيعة خلال آلاف السنين، أصبحت البشرية قادرة على إحداثه ببضعة عشر عاماً. أي أن الخطر الحقيقي ينبع من تأثير النشاط الانساني على المناخ السائد وقدرته على اختراق توازنات البيئة، باعتبارها محيطاً ديناميكياً قائماً على توازنات دقيقة بين مكوناته المختلفة. فاذا ما تخيلنا استمرار

ارتفاع معدل الحرارة بالنسبة نفسها ستشهد القرون القليلة القادمة غرق العديد من الدول والمدن الساحلية والجزر الشهيرة، وهجرة ملايين البشر أو موتهم إما غرقاً أو من شدة الحر والمجاعة والأوبئة (توجد شواهد على أن أنواعاً من البعوض الحاملة للأمراض أخذت بالانتشار شمالاً من أماكن تواجدها المعتادة).

ان النتيجة المباشرة لارتفاع الحرارة هي ذوبان جبال الثلوج القطبية التي تحمل كميات هائلة من المياه، والتي سرعان ما ترفع مستوى المحيطات والبحار، فتغمر مساحات كبيرة من اليابسة. فالمعروف علمياً أن مستوى المحيطات يرتفع بمعدل سنتمترين ونصف في القرن الواحد منذ العصر الجليدي، الا أنه ارتفع بمقدار ١٥ سنتيمتراً خلال القرن الأخير وحده. وهذه شهادة أخرى على الاضطراب الحاصل في التوازنات البيئية المحيطة بنا.

يسهم ارتفاع الحرارة بالطبع في زيادة التبخر من سطح الأرض فتقل رطوبتها وتتدهور، إن لم تنعدم امكانية الزراعة دون توفر كميات اضافية من المياه العذبة التي تشح مع الزمن، فتصبح الشعوب الفقيرة والمعتمدة على الزراعة عرضة للافقار وللمجاعات. والحرارة المرتفعة تخلق بيئة ملائمة لانتشار الأوبئة والجراثيم والفيروسات في مناطق لم تشهدها من قبل. ويعتبر مجرد التغير في الأنماط المناخية كافياً بحد ذاته لقتل العديد من البشر خاصة ممن يعانون من نقص في قدراتهم على التأقلم للعيش في بيئة مناخية أو من المصابين بأمراض في الأجهزة التنفسية وضغط الدم والربو وما شاكل. ومن البديهي أن تتأثر دول وقارات العالم بدرجات متفاوتة نتيجة لارتفاع حرارة الأرض لكن ليس أي منها في مأمن من العواقب المستقبلية (تكشف الأقمار الصناعية عن وجود كثيف للغازات الحابسة، بشكل خاص فوق منطقتي البلطيق وكوريا الجنوبية). ويتفهم الناس يوماً بعد الآخر حقيقة الترابط العضوي بين عناصر البيئة المختلفة كالمحيطات والغلاف الجوي وجبال الجليد وبالطبع تأثير النشاط الانساني في كل ذلك.

لا شك أن دول العالم الثالث وشعوبها في مقدمة الخاسرين، ففيها ستتجلى العواقب الكارثية لارتفاع حرارة الأرض بأبشع أشكالها، وذلك نتيجة للنقص في الامكانات المالية لديها اضافة الى التخلف الاقتصادي والاجتماعي وهشاشة برامج التنمية ونقص التجهيزات والتاريخ الطويل من الاستغلال الذي مارسته الدول الاستعمارية على اقتصادياتها وثرواتها.

مؤتمر كيوتو وتناقض المصالح

بدأت الاستعدادات لمؤتمر المناخ في نيسان عام ١٩٩٥ منذ تشكيل اللجنة الخاصة بدراسة تغيرات المناخ التي درست امكانية التوصل الى اتفاقات ملزمة لتقليل الغازات وتوصلت الى تحديد أهم ما يجب الاتفاق عليه في كيوتو عندما تحضر كافة دول العالم المعنية بالمشكلة. ومن أهم المواضيع التي أرجأت للمؤتمر هي:

ـ امكانية تقليل اطلاق الغازات بنسبة ثابتة ملزمة للجميع (موقف دول المجموعة الأوروبية)، أو معاملة الدول حسب حاجاتها الاقتصادية (موقف اليابان واستراليا).

ـ امكانية التجارة بـ«حق التلويث» أي حق الدول ببيع النسبة المخصصة لها إذا حققت تخفيضاً أكثر مما يلزمها.

ـ امكانية ادخال الغابات (من حيث ادارتها أو زراعتها) في حساب كمية ثاني أوكسيد الكربون في الجو باعتبارها مستهلكة له، وكيف يمكن تحقيق ذلك؟.

ـ امكانية تعويض الدول النامية عن أية اجراءات مضرة بها تتخذها الدول المتقدمة وغيرها بشأن التزاماتها تجاه البيئة، أو تمويل تطوير تكنولوجيا غير ملوثة في تلك الدول.

بعد أن انهت اللجنة المذكورة أعمالها في تشرين الأول عام ١٩٩٧ اتجهت الأنظار الى مدينة كيوتو حيث بدأت الاستعدادات لعقد أول مؤتمر من نوعه للمناخ. فالمناقشات التي سبقت أو رافقت المؤتمر أظهرت عمق الخلافات بين دول العالم وتناقض مصالحها. وبغض النظر عن اقرار الغالبيّة الساحقة من الدول المشاركة بخطورة الوضع المناخي، وضرورة تقليل اطلاق الغازات الحابسة، الا أن التوصل الى اتفاق جماعي حول النسب المحددة لكل دولة كان أمراً في غاية الصعوبة. فبعض الدول (استراليا مثلاً) كانت تطالب بالسماح لها بزيادة نسبة اطلاق الغازات بـ١٨٪ خلال الخمسة عشر عاماً المقبلة نظراً لاعتماد اقتصادها أساساً على الوقود والفحم الحجري. أما المجموعة الأوربية فكانت تطالب بتخفيض مقداره ١٥٪ عن مستواها في عام ١٩٩٠. وكانت الولايات المتحدة واليابان والصين ودول أخرى تطالب بسقوف زمنية مختلفة لتخفيض مستوى اطلاقها للغازات الحابسة. الا أن المؤتمر نجح بعد مفاوضات عسيرة في الخروج بالاتفاق على تخفيض ما معدله الدولي ٥,٢٪ قياساً الى عام ١٩٩٠ وذلك بحلول عام ٢٠١١ (على سبيل المثال التزمت الولايات المتحدة بتخفيض ٧٪، وكل من اليابان وكندا بـ ٦٪،

والمجموعة الأوربية ودول أوروبا الشرقية بـ٨٪). كذلك اتفق المؤتمرون على اللقاء في بيونس ايريس خلال العام المقبل لمتابعة تنفيذ القرارات.

البيئة والمضمون الاجتماعي للتنمية

إن الصراع من أجل البيئة ليس صراعاً سلمياً بين مجموعة من العلماء والمهتمين بمستقبل الأرض فقط، بل هو صراع عنيف بين مصالح الشركات التجارية الكبرى، وخاصة منها الشركات المعتمدة في احتكاراتها على الطاقة التقليدية الممثلة بالفحم والبترول وما شاكلها، والمستعدة لتمويل كل ما من شأنه التقليل من حجم المشكلة والشك بما يقدمه العلماء ودارسو المناخ، والمبالغة بالاختلاف البسيط في المعطيات المحصلة من المحطات الأرضية (التي تسجل ارتفاعاً في حرارة الأرض) مقارنة بالمحطات الفضائية (التي فشلت في تسجيل الارتفاع نفسه). كما تشكك بعض تلك الأوساط بـ «حكاية» ارتفاع حرارة الأرض وتعتبرها نوعاً من الوهم، وهو موقف يتعارض بوضوح مع الحقائق الفيزيائية التي نراها اليوم في مناطق مختلفة من العالم.

يعتبر الموقف الأمريكي حالة نموذجية لتناقض المصالح المنوه عنه أعلاه. فالولايات المتحدة تطلق ما نسبته ٢٠٪ من الغازات الحابسة للحرارة، وهي نسبة عالية جداً اذا ما قورنت بنسبة سكانها البالغة ٤٪ فقط من سّكان العالم وتملك ما يقدر بـ ٢٠٪ من ثرواته. والمعروف أيضاً أن ادارة كلنتون أكثر تفهماً للمأزق البيئي من ادارة بوش السابقة (لم يوقع جورج بوش على أهم وثيقة صدرت عن قمة الأرض في ريودي جانيرو والمعروفة باسم أجندة ـــ ٢١)، ويعتبر نائب الرئيس الأمريكي آل غور واحداً من الشخصيات البيئية البارزة في العالم. فقد دعت الادارة الأمريكية طيلة الفترة التي سبقت مؤتمر كيوتو مراراً الى ضرورة وضع أهداف ملزمة لتقليل اطلاق الغازات بالتقليل من استهلاك الوقود التقليدي، وتطوير مصادر بديلة للطاقة. وظهر كلينتون متفائلاً بدور أمريكا في اقناع العالم، بما فيه غير الصناعي، بوجوب خروج مؤتمر كيوتو بمعاهدة ملزمة، وبسقف زمني محدد لتخفيض نسبة الغازات الحابسة. ولم تعترض الادارة الأمريكية جدياً على الموقف الأوروبي الساعي الى الزام الدول الصناعية بتقليل افرازات الغازات بنسبة ١٥٪ عن مستواها في عام ١٩٩٠ وذلك بحلول عام ٢٠١٠ ـــ وهو التزام غير واقعي بتقدير العديد من الخبراء.

أثناء ذلك سعت الدوائر الصناعية والاحتكارات المتنفذة الى تحذير ادارة كلينتون

من مخاطر انعكاس الموقف على الاقتصاد الأمريكي الذي يشهد انتعاشاً كبيراً في عهده، وحذر رئيس غرفة التجارة قائلاً ان الموقف الأمريكي يؤثر على «سوق العمل والنمو الاقتصادي ويضعهما رهائن لقضية البيئة والصفقات السياسية التي تحاك في دوائر الأمم المتحدة». غير أن كلينتون صرح أنه لا يمكن لأمريكا دفن رأسها في الرمال، وجدد التزام ادارته بتخفيض مستوى الغازات الى مستواها في عام ١٩٩٠ وذلك بحلول عام ٢٠٠٠. لكن الرئيس أجبر فجأة على التراجع بعد أن أعلنت نتائج دراسة جديدة، ظهر فيها أن الولايات المتحدة لم تنجح في تخفيض غازاتها، بل على العكس حققت زيادة في اطلاق الغازات مقدارها ٨٪ على مستوى ١٩٩٠، وستبلغ ١٣٪ في نهاية القرن. فسارع الى تخصيص ميزانية ضخمة تبلغ ٦ مليار دولار لتدارك الأمر، وتغير موقف ادارته المعلن في مؤتمر كيوتو. ولولا الصفقة السياسية مع روسيا، والتي وصفتها مجلة New Scientist بـ «الصفقة القذرة»، والقاضية بالتزام روسيا ببيع حصتها للتلويث للأمريكان، لم يكن بوسع الادارة الأمريكية حفظ ماء الوجه (بقي الاتفاق بين الطرفين سرياً حتى انفضاض أعمال المؤتمر). ففي روسيا وبعض دول شرق أوروبا انخفض اطلاق الغازات الحابسة بـ ٣٠٪ خلال السنوات الخمس الماضية نتيجة لاعادة التنظيم الاقتصادي فيها، مما سمح لها بالمناورة مع الولايات المتحدة وكندا ضمن ما سمي «Green Houses Gases Club». ان تخفيض مستوى الغازات يحمل ضمناً مخاطر الحد من النمو الاقتصادي وابطاء العملية التنموية في العديد من الدول فتعتبر الالتزامات الدولية بهذا الشأن تحدياً هاماً للحكومات المعنية. فالصناعة المعتمدة على مصادر الطاقة التقليدية تشغّل ملايين السكان في مختلف أرجاء العالم، وان التخلي عنها يعني دون شك تسريح ملايين الشغيلة عن العمل والتأثير على مستوى معيشتها، في عالم تضيق فيه قيم العدالة الاجتماعية وفرص العمل في آن واحد. فاليابان مثلاً، اذا ما أرادت تقليص الغازات بنسبة ٥٪ عن مستوى عام ١٩٩٠ عليها تسريح مليون و ٩٠٠ ألف عامل.

اضافة الى الكلفة الاجتماعية والسياسية لمثل تلك الاجراءات فان كلفتها الاقتصادية تفوق التصور. فمثلاً تقدر الكلفة الخاصة بتقليل نسبة ثاني أوكسيد الكربون بمقدار ٥٣٠ عن مستواها الحالي بـ ٢٥٠ الى ٣٥٠ مليار دولار (حسب التقرير الذي قدم لمؤتمر كيوتو من قبل «الهيئة الدولية لشؤون تغير المناخ»). كما تورد مجلة نيوزويك أن على صناعة الحديد والصلب وحدها انفاق مبلغ يصل الى ٢٤ مليار دولار وذلك فقط

لاستخدام تكنولوجيا بديلة أقل تأثيراً على البيئة . تنسحب بالنتيجة هذه الكلفة على المستهلكين بالطبع).

إن قضية البيئة أكبر من مجرد الاعتقاد بوجود أزمة مناخية والاعتراف بحجم التغيرات في فتحة الأوزون وغيرها، بل تتعدى ذلك الى اتخاذ الاجراءات العملية للحد من التدهور البيئي مع الأخذ بالاعتبار مصالح الشغيلة في العالم وتوفير فرص ملائمة للتنمية الاقتصادية في البلدان النامية، والقضاء على الفقر والمجاعات، وتقليص نتائج الكوارث الطبيعية والحروب وما شابه. فالكثير من دول العالم ـ خاصة الثالث ـ ترى أن التنمية تأتي في المرتبة الأولى من اهتماماتها، ولا تعير أهمية تذكر للبيئة، ويرى البعض أن الحركة البيئية هي نوع جديد من «الاستعمار الاقتصادي»، وأن «البيئة هي الشيء الذي يفكر فيه الناس عندما يصبحون أثرياء» على حد تعبير أحد أخصائيي البيئة من أوكسفورد.

لقد تمخض مؤتمر المناخ في كيوتو عن اتفاق مهم، رغم كونه دون طموح العديد من المهتمين بمصير الأرض من حيث نسبة تخفيض الغازات، التي يعتقد بضرورة تقليلها بحوالي ٦٠٪ خلال المائة سنة المقبلة اذا ما أريد الحفاظ على مناخ مستقر. ويعترف العديد من الخبراء ونشطاء البيئة بوجود ثغرات مهمة فيه، وأنه شهد مناورات سياسية سمحت لبعض الدول بالحصول على امتيازات بزيادة حصتها بدلاً من تقليلها. واستراليا مثلاً حصلت على موافقة بزيادة ٨٪ حتى عام ١٩١٠ (الى جانب ايسلندا التي حصلت على موافقة بزيادة ١٠٪ والنرويج ١٪). الا أن أهميته تنبع من كونه أول اتفاق من نوعه في التاريخ. وأنه وضع الخطوة الأولى على الطريق الذي يجب على البشرية سلوكه مستقبلاً من أجل الحفاظ على بيئة معافاة لما فيه خير البشر. فثروات الأرض ليست ملكاً لجيل أو أجيال معدودة، بل لجميع الأجيال البشرية المتعاقبة، وأن مسؤولية أي جيل منها هو تسليم عالم أفضل للجيل اللاحق.

المنطقة العربية في ضوء التغيرات المناخية

المنطقة العربية شاسعة جغرافياً ولها تضاريسها الفيزياوية والهيدرولوجية والمورفولوجية والمناخية المميزة. فيها أنهار كبرى (النيل والفرات ودجلة) والبحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والميت ولها شواطئ طويلة على المحيط الأطلسي ومنافذ على المحيط الهندي عن طريق الخليج وبحر العرب. كما تمتد مساحاتها اليابسة

في قلب افريقيا وغرب آسيا. بقدر ارتباط مصيرها بما يحدث في الجوار، فانها في الوقت نفسه مسرح للعديد من الظواهر التي تتجلى فيها ديناميكية البيئة ووحدة عناصرها. فمثلاً تعد منطقة الأهوار العراقية، اضافة الى تميزها الثقافي والطبيعي وأهميتها التأريخية، واحدة من المحطات الكبرى للهجرة السنوية للطيور من شمال أوروبا وغابات التندرا الروسية. كما تسهم في تلطيف حرارة الجو وموازنة دورة المياه في الطبيعة التي أعطت للمنطقة خصائصها الهيدرولوجية والمناخية. أما الأنهار الكبرى، إضافة الى دورها الأساسي في الدورة الهيدرولوجية، فقد حددت شكل ومستوى التطور الاقتصادي والاجتماعي في الدول التي تجري عبرها. وكانت لفيضاناتها المنتظمة، رغم التدمير الذي تسببه بعض الأحيان، أهمية كبرى في تجديد خصوبة الأرض وأنظمتها الايكولوجية المتنوعة. الا أن السياسات المائية لبعض الدول (خاصة خلال العقدين الأخيرين) تسببت في حجب كميات كبيرة من المياه، عن طريق انشاء السدود الكبرى، ومنعها من الجريان الطبيعي الى مصباتها كما كانت عبر التأريخ (السدود التركية على الفرات على سبيل المثال لا الحصر). فغير ذلك طبيعة الدورة الهيدرولوجية المعتادة. ونظراً لكون التغيرات المناخية لا تحس خلال وقت قصير، فمن المتوقع أن تشهد المنطقة انماطاً مناخية غريبة ليس من السهل التنبؤ بنتائجها.

على سبيل المثال عرض أحد علماء المحيطات الأمريكان نظرية غريبة وخطيرة معاً عن التأثير البيئي لسد أسوان على النيل (انظر مجلة نيوساينتست عدد ٢٦-٧-١٩٩٧). فهو يعتقد أن منع مياه النيل العذبة من الوصول الى البحر المتوسط ينذر بحلول عصر جليدي. فقطع المياه أسهم في زيادة كثافة مياه البحر المتوسط، وأصبح من السهل لهذه المياه العبور عبر مضيق جبل طارق ثم الجريان شمالاً وتدفئة القطب مما يزيد من كثافة الأمطار وتعزيز آلية التغذية المرتدة Feedbck Mechanism التي تخلق ثلوجاً جديدة. ويعتقد العلماء أن تغذية مرتدة مثل هذه تهدد بحدوث عصر جليدي جديد. ويتوقع أن ارتفاع حرارة المناخ يسهم في تفعيل تلك الآلية. وكحل لهذه المشكلة يقترح انشاء سد على مضيق جبل طارق لقطع الجريان عبره بنسبة ٨٠٪. مهما كان أمر هذه النظرية فانها تؤكد حقيقة وحدة عناصر البيئة وضرورة التعاون الدولي لتقليل الأضرار المحتملة. فالمنطقة العربية ليست معزولة عما يحدث في العالم، وبسبب ظروفها الجغرافية والمناخية يمكن أن تصبح من أولى ضحايا ارتفاع حرارة الأرض (من المهم ذكره هنا أن دلتا النيل، وهي من أخصب المناطق العربية وأكثفها سكانياً، هي أكثرها تعرضاً للتدمير

بارتفاع مستوى مياه البحر أيضاً). فالمنطقة العربية مهددة بشحة مصادر المياه، والانفجار السكاني، وكذلك في تعثر العملية التنموية، وفشل مشاريع التحديث الاقتصادي والاجتماعي والسياسي. وقد شهدت وتشهد، حروباً مدمرة وأزمات عسكرية فائقة الخطورة، دفعت البيئة (فضلاً عن الانسان) ثمناً فادحاً لها. فمن تفجير حقول النفط وترويض الطبيعة لأغراض الحرب، الى تقليل جريان الأنهر وتجفيف الأهوار، وانعدام شبكات الصرف الصحي، وانتشار الصناعات الملوثة، والعزوف عن تطبيق مبادئ التنمية المستديمة وغيرها قد أسهمت في تدهور البيئة. إضافة الى ذلك يمكن ذكر ما يلي مما له علاقة مباشرة بتطور المنطقة وتأثير ذلك على البيئة:

١ــ تحوي المنطقة أكبر خزين احتياطي للنفط (وهي أكبر منتج له حالياً) تعتبر صناعته ذات علاقة مباشرة بموضوع الغازات الحابسة، وبالتالي بمشكلة الحرارة.

٢ــ تجري في المنطقة أحداث ومشاريع خطيرة، خاصة على مستوى الثروة المائية، تؤثر عاجلاً أم آجلاً على مصير البيئة وبالأخص في حوضي الفرات ودجلة.

٣ــ لم تحسم بعد وجهة التطور في المنطقة، خاصة على الصعد الاقتصادية وعلى مستوى صناعة القرارات، بل ما زالت تعاني من عرّاقيل كارثية ممثلة بالارتجالية والبرامج الهشة التي تقر في ظل التوترات السياسية أو التحالفات المتغيرة التي تفرضها الظروف الآنية، سواء على صعيد العلاقة مع اسرائيل،أو بين الدول العربية نفسها.

وأخيراً فمن البديهي اذا ما أريد للأجيال المقبلة أن تلحق بالركب الحضاري الانساني، أن تُعتمد أسس تنموية كفوّة ومعاصرة تستجيب ليس فقط لحاجة شعوب المنطقة في التطور، بل كذلك لمتطلبات الحفاظ على بيئة سليمة ومعطاءة، تضمن استمرار الازدهار والتقدم.

بواكير التغلغل البريطاني في العراق

د. مجيد مسعود

هذه المقالة مستمدة بتصرف من موسوعة معنونة «دليل الخليج»، حيث يقول المؤلف البريطاني لوريمير أن تزايد أهمية الخليج بعد عام ١٨٩٩ أدى الى ظهور الحاجة الى ملخص تاريخي وجغرافي لهذه المنطقة، ولهذا أمرنا نائب الملك البريطاني في الهند بجمع مواد هذا الدليل عام ١٩٠٣ فإعده المؤلف مع فريق عمل من مختلف التخصصات. وهو من قسمين، الأول لتاريخ المنطقة وما حولها، والثاني كمعجم جغرافي للمنطقة. نُشر قسمه الثاني عام ١٩٠٨، أما القسم الأول فمات مؤلفه عام ١٩١٤ قبل انهائه، فصدر بعد وفاته. والقسم الأول في ستة مجلدات (٣٧٧٦ صفحة)، في حين القسم الثاني في سبعة مجلدات (٢٥٩٥ صفحة)، والملاحق تضمنت الخرائط وشجرات الأنساب للأسر الحاكمة.

نقدّم هذا الملخص المكثف عن شركة الهند الشرقية (نكتفي لاحقاً باختصار اسمها الى «الشركة») أعدّ استنادا الى الطبعة العربية التي أعدها الديوان الأميري في قطر. جدير بالذكر أن محتوى هذا الدليل قد تضمن آراء وملاحظات وتعابير ومسميات تعبر عن رأي المؤلف ومن معه، وهو يحمل وجهة نظر السلطة البريطانية ومصالحها، لاسيما في فترة إصدار الدليل. ولهذا فهي بحاجة لمراجعة وتمحيص المؤرخين من أبناء المنطقة، وتحليل هذه الحقب التاريخية من منظور المصلحة العامة لشعوب المنطقة. وقد وجدت من المفيد إطلاع القراء على بعض الوقائع التاريخية كما وردت في هذا الدليل، لاسيما دور هذه الشركة، في التمهيد للتغلغل البريطاني في العراق.

ان هذه الوقائع التاريخية تؤكد أن دور الدولة في البلدان التي نشأت فيها الثورة الصناعية وحققت التراكم الرأسمالي، كان كبيراً ومباشراً في حماية صناعاتها وتغذيتها بالمواد الأولية الرخيصة وغزو الأسواق حتى بالسلاح، وذلك بعكس ما يدعيه المطالبون بتحجيم دور الدولة في النشاط الاقتصادي، وتصفية القطاع الخاص محلياً كان أم أجنبياً. والنتيجة هي شفط الفائض الاقتصادي الوطني وتسريب غالبيته للخارج، وبالتالي إجهاض محاولات التنمية الحقيقية لاشباع الحاجات الأساسية للمجتمع وفئاته الأساسية.

علاقة الدول الأوروبية بالخليج

عرفت الدول الأوروبية الخليج للمرة الأولى خلال المحاولات التي بذلها البرتغاليون في القرن السادس عشر للتخلص من احتكار العرب للتجارة بين آسيا وأوروبا، ثم ظهر الهولنديون في مطلع القرن السابع عشر، وعندما أحرزت بريطانيا انتصارها على الاسطول الاسباني عام ١٥٨٨ كثّفت نشاطها التجاري مع الهند عبر هذه المنطقة. تأسست الشركة عام ١٦٠٠ بمرسوم ملكي وكان عدد المساهمين الأصليين فيها ٢١٧ مساهماً، وبرأسمال مدفوع مقداره ٦٨٨٧٣ جنيهاً. بدأت بتثبيت أقدامها في الهند، بين عامي ١٦٠٠ و١٦١٢ خرج ١٢ أسطولاً تجارياً بأموال المساهمين الى الهند، أي بمعدل أسطول واحد سنوياً. وفي عام ١٦٠٨ وصلت أول سفينة إنكليزية الى «سورات» في الهند، وكان قبطانها يحمل توصية من الملك البريطاني الى حاكم سورات الذي استقبله بترحاب. وعام ١٦١٦ تأسست أولى الوكالات التجارية الانكليزية في إيران، بواسطة ممثل الشركة، تنفيذاً لتعليمات المقر في لندن، ومعه خطاب من الملك يقره على فتح باب المتاجرة مع ايران، واضعاً بذلك حجر الأساس لمحطة على طريق الهند. كان طابع الشركة في ذلك الوقت تجارياً بشكل أساسي، لكنها أدركت بالتجربة أن الوضع والمكانة السياسيين تتغلبان في نهاية المطاف على الصبغة التجارية.

انتقلت ملكية بومبي وميناثها عام ١٦٦١ من البرتغال الى التاج البريطاني، كجزء من هدية زواج الأميرة البرتغالية من الملك البريطاني! مع تعهد بضمان سلامة أملاك البرتغال في جزر الهند الشرقية. تنازل ملك بريطانيا عام ١٦٦٦ عن بومبي وميناثها للشركة مقابل ايجار سنوي قدره عشرة جنيهات سنوية...! فأقامت الشركة سلطتها، وبعد ١٨ عاماً نقلت مقرها الرئيسي في الهند الى بومبي. وأرسل مقر الشركة في لندن عام ١٦٩٠ تعليماته الى رئاسة فرعها في بومبي، جاء فيها «ان زيادة الأرباح هي محل

اهتمامنا بمقدار ما هي تجارتنا، وهذا هو الذي يحملنا على أن تكون لنا قوات نواجه بها أحوالاً قد يقع فيها لنا عشرون حادثاً تعرقل تجارتنا. ان هذا هو الأمر الذي يجعل منا أمة في الهند. . .»! هكذا وجهت الشركة التجارية نشاطها الى سياسة السيادة الاقليمية على الأرض. وحين تأسست «شركة الهند الشرقية الجديدة»، اندمجت الشركتان عام ١٧٠٨ باسم: الشركة المتحدة للتجار الانكليز في جزر الهند الشرقية.

ملامح العراق في مطلع القرن ١٧

كتب الرحالة البرتغالي تيكسيرا الذي زار العراق عام ١٦٠٤ وصفاً لمشاهداته، جاء فيها أن السور الذي يُحيط ببغداد من الشرق، كان مبنياً من الآجر المحروق. ترتبط به عدة منشآت، بينها أربعة تحصينات في كل منها عدد من المدافع البرونزية الثقيلة وهي بحالة جيدة. وخارج السور خندق عميق، وفي بغداد دار لصك النقود الذهبية والفضية والمعدنية. وفيها مدرستان إحداهما للرماة والثانية لحملة البنادق. وكانت التجارة تسير الى الهند عن طريق دجلة فالبصرة. والى حلب عبر الصحراء، وفي أوقات السلم هناك طريق مباشر للتجارة مع ايران. وقد حصل تمرد في كربلاء والنجف، شاهد الرحالة البرتغالي خيولاً وثياباً وأسلحة لجنود أتراك قتلهم الأهالي تباع علناً في السوق. ويقول ان البصرة تضم حوالي عشرة آلاف بيت، كثير منها كبير، ويحيط بالمدينة خندق واسع عميق مملوء دائماً بالمياه. ويحكمها تركي تحت امرته قوات يبلغ عددها حوالي ثلاثة آلاف رجل. وفيها دار للعوائد يبقى منها فائض بعد كل النفقات الادارية. وكانت التمور أهم صادرات البصرة الى بغداد والقطيف وايران. وعام ١٦٠٤ قامت السلطة العثمانية بهدف القضاء على مقاومة العرب المتمردين، ببناء بعض القلاع والتحصينات في أماكن عديدة وعلى ضفاف النهر.

أدى ارسال مستر كونوك عام ١٦١٦ الى فتح طريق بريطاني بين ايران وأوروبا عبر بغداد وحلب، فقد طلب ممثل الشركة من القنصل البريطاني في حلب أن يؤمن رحلين عربيين موثوقاً بهما لينقلا رسائله عبر بغداد الى حلب. وفي العام نفسه تمكن من الحصول على فرمان للتجارة البريطانية من الشاه عباس، عن طريق بغداد ـــ حلب. احتل الايرانيون بغداد عام ١٦٢٣ ثم وصلوا الى كركوك فالموصل، وجنوباً بعد سنتين الى البصرة. لكن الأتراك تمكنوا بعد ١٣ عاماً من استعادة بغداد، فوقعت فيها مذبحة بأمر من السلطان العثماني مراد. حيث انفجر فيها مخزن البارود أدى الى خسائر جسيمة بين القوات التركية المرابطة فيها، فحاول الانتقام لهم. وظل السلطان مراد في العراق حتى

عام ١٦٣٩، وربما زار النجف، فسميت إحدى بواباتها باسمه (باب مراد)، وظلت كذلك حتى مطلع القرن الحالي. وتروي الحكايات الشعبية بأن السلطان مراد دخل النجف سائراً على قدميه احتراماً للامام علي.

بداية التجارة البريطانية في العراق

بدأت العلاقات التجارية بين بريطانيا والعراق بإرسال باخرة عليها شحنة صغيرة الى البصرة عام ١٦٣٥. وبعد خمس سنوات وتحت ضغط المنافسة مع الهولنديين، أرسلت الشركة اثنين من موظفيها الى البصرة. إلا أن السوق كان مُتخماً بسلع أسطول برتغالي قادم من مسقط، لهذا لم يبيعا من شحنتهما إلا ما قيمته ٣٠ ألف ربية. ويبدو أن الاضطرابات السياسية في العراق عام ١٦١٤ قد أعاقت تقدم الشركة، وبعد عامين فتحت في البصرة وكالة تجارية واجهت منافسة الهولنديين. عام ١٦٥٧ صادرها والي البصرة، بسبب اشاعة روّجها التجار عن قرب تصفية الشركة لأعمالها في العراق. لكنها بعد أربع سنوات أرسلت مندوبيها كرانمر وسانتهيل الى البصرة على ظهر الفرقاطة أميريتا وهي تحمل شحنة من الأقمشة والفلفل والأخشاب والرز وغير ذلك، على أن يُذكرا الوالي بوعده بأن يُقدم للشركة مقراً أفضل من الذي استولى عليه.

عام ١٦٦١ وقعت بريطانيا وتركيا اتفاقية الامتيازات الأجنبية في الشرق، التي حددت بشكل عام حقوق رعايا بريطانيا في الامبراطورية العثمانية ومنها العراق، وكذلك الضريبة التي تُدفع للسلطات التركية. وتم انشاء وكالة دائمة للشركة في البصرة عام ١٧٢٣، وفي العام التالي، بحث مجلس إدارة الشركة في بومبي تجارة الشركة في البصرة، جاء في تقريره: «إننا حتى الآن لم نستطع القيام بشيء يذكر في خدمة السادة أصحاب الشركة، باستثناء وعد حصلنا عليه من الوالي بأن لا ندفع ضرائب أكثر من ٣٪ على مصنوعاتنا. تقرر وضع اعلان ينشر في البصرة، يطلب من جميع التجار من رعايا بريطانيا العظمى والمتمتعين بحماية الشركة المعظمة، أن يخضعوا لقوانين الوكالة الموجودة في البصرة، وان لا يدخلوا مع الحكومة في شيء من أمورهم إلا بواسطة الوكالة. . .».

وكانت الوكالة تتاجر بالأقمشة الناعمة بكل أنواعها وبالحديد وبضائع أخرى. وكان ممثل الشركة يجمع الضرائب للحكومة، حيث أشارت بعض التقارير أن نسبتها وصلت الى ٨٪ بالمائة، أي أكثر مما جاء في الاتفاقية. وكتب المقيم البريطاني في أحد تقاريره: «كانت هذه البلدة هادئة خلال فترة طويلة مضت، وكان الأهالي مُرغمين على الهدوء

والسكينة، وكانت كل أنواع الحبوب والغلال متوفرة ورخيصة، والتجار لا يقربهم أحد بسوء، والمكان على وجه العموم، أكثر هدوءاً مما كان عليه منذ سنوات طويلة. . .». وظلت العلاقة السياسية بين بريطانيا والعراق محصورة في نطاق التعامل بين ممثلي الشركة والسلطة المحلية. وعندما عُين (مستر شو) مقيماً في البصرة، تلقى تعليمات عامة من الوكيل التجاري والقنصل البريطاني في بندر عباس، جاء فيها: «إننا أيضاً مكلفان بابلاغك أن الشركة لا تتسامح على الاطلاق في قبول أي عذر يقدم بشأن تقديم قروض للسلطة المحلية، أو بيعها بضائع دون تسلم ثمنها مُقدماً، وبهذه الطريقة تكون الشركة المعظمة على يقين من عدم حدوث خسائر في تجارتها بسبب الديون. . .».

الهولنديون والفرنسيون في العراق

خلال تلك الفترة كان للهولنديين مقيمية في البصرة، وقد ألقت السلطات التركية القبض على المقيم بتهمة علاقته مع إحدى البغايا. . .! وقبل إطلاق سراحه أجبروه على دفع رشوة ٥٠ ألف روبية، بعدها سافر البارون العاشق، وأغلقت المقيمية الهولندية، إلا أن السفير الهولندي لدى الباب العالي استطاع الحصول على فرمان بإعادة رفع العلم الهولندي وفتح المقيمية في البصرة. وأقيم تمثيل قنصلي للفرنسيين في البصرة عام ١٧٤٠، عندما عُين قنصل لهم في بُغداد، الذي أصبح فيما بعد أسقف الكاثوليك فيها، وبعد ثمانية أعوام عُين من المواطنين العاديين قنصل للفرنسيين. وعام ١٧٥٥ صدرت التعليمات للمقيم البريطاني بأن يخضع المقيم الفرنسي ونشاطاته للمراقبة الشديدة، وأن يبرق عنها أولاً بأول الى مجلس مدراء الشركة. وجاءت هذه الأوامر من بومبي عن طريق الوكيل في بندر عباس، الذي كان يوصف بأنه الوكيل لكل شؤون الدولة البريطانية في المنطقة.

تزايد نفوذ الشركة

يشير بعض الأحداث الى تزايد نفوذ الشركة خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر. فعلى سبيل المثال حصل نزاع بين قبيلة بني كعب والسلطة التركية، حيث كتب الوالي علي باشا في تشرين الأول ١٧٦٣ الى مسؤول وكالة الشركة قائلاً: إنني أريد في سبيل تأمين مصالح حكومتي أن أسير بجيش عن طريق البر، وترسل أنت سفنك لمحاصرة مصب النهر، ولك الحرية المطلقة في أن تحرق وتدمر، أو تستولي على أي

شيء تصادفه مما تملكه قبيلة بني كعب. . أرجو أن تثق بأن مساعدتكم الفعالة هذه ستلقى من السلطان كل اعتراف وتعويض. . .».

أرسلت الشركة سفينتاها تاتر وسوالو لمساعدة الوالي، وحصلت عدة اشتباكات لهما بسفن بني كعب. وتقدمت الشركة عام ١٧٦٩ باحتجاج ضد سليمان آغا والي البصرة، متهمةً اياه بنشاطه غير المرضي تجاه البريطانيين مما أدى الى عزله الاستجابة لهذه الشكوى بعزله. في آب ١٧٦٤ استطاع السفير البريطاني في القسطنطينية الحصول على أمر يسبغ على وكيل الشركة في البصرة صفة قنصل لبريطانيا فيها، ومعاملته كسفير. ولهذا كتب جرانفيل لزميله (ان هذه أفضل الطرق وأضمنها في هذا الجزء من العالم لحماية تجارة الشركة وملكيتها وحقوقها، انها تؤمن لوكلاء الشركة الى الأبد، وبأسلوب أكثر ثباتاً من أي أسلوب آخر، اقامة هادئة في البصرة، كما أنها تحمينا نهائياً من لعبة الباب العالي الخطرة في التغيير السنوي لنسب الضرائب. . .). في ربيع ١٧٧٣ انتشر الطاعون فجأة في البصرة، فقضى على الكثيرين وأفزع الجميع. فانسحب وكيل الشركة وموظفوه الى الخارج، بينما ظل بقية العاملين في الوكالة، ممتنعين عن الاتصال بالأهالي، وعندما نفد مخزون الطعام لديهم غادروا الى بومبي. بعد انتهاء الوباء، أصبح مركز الوكالة في البصرة، من أهم القواعد البريطانية في منطقة الخليج. وكان على موظفيها المحافظة على مظهرهم. ولم يكن يسمح لهم بالسير في الطرقات، بل عليهم ركوب الخيل مرتدين الثياب الفاخرة، مع أن التعليمات كانت تطالب بضغط المصروفات ولاسيما بند الهدايا للحاكم وبطانته كرشاوى لتمشية أعمال الشركة.

وتنوعت تجارة الشركة من استيراد المنسوجات الحريرية الرقيقة والصوفية الخشنة، كما كان البن اليمني بنداً هاماً في قائمة المستوردات. وأصبح تصدير التمور العراقية تجارة رابحة للشركة. وقد أبدى مجلس إدارة الشركة اهتمامه بضرورة المحافظة على الطريق البري للاتصال بين أوروبا والهند عبر البصرة ــ بغداد ــ حلب. حيث كان يرتاده مسافرون أوروبيون معظمهم من العاملين في الشركة أو في رعايتها، ممن كانت تواجههم مخاطر تطلبت اتخاذ اجراءات للحماية.

في آب ١٧٦٩ طلب والي بغداد بإلحاح من الوكيل البريطاني إعارته سفن الشركة للقضاء على تمرد القبائل في المنتفك بزعامة الشيخ عبدالله. إلا أن الوكيل الذي يتذكر النتائج السلبية لتدخلهم ضد قبيلة بني كعب، راوغ متعللاً بأن السفن كبيرة لاتستطيع العمل في الفرات.

تنظيم عمل الوكالة

دبت الخلافات بين العاملين في الوكالة وتبادلوا الاتهامات باختلاس أموال الشركة، مما أدى الى فصل عدد منهم بعد تحقيق أجراه مبعوثا الشركة، كما أن العلاقة بين الوكالة ومجلس الادارة في بومبي أو المقر الرئيسي في لندن مرت بأزمات، وحصلت شكاوى من تجار البصرة عن تأخير الوكالة لنقل بضائعهم من الهند، مما دفع المقر في لندن لإعادة تنظيم عمل الوكالة.

وصل الطاعون الى بغداد عام ١٧٧٣ منتقلاً اليها مع قافلة قادمة من أرضروم، وقد اتخذ والي بغداد الاحتياطات باعتزاله مع رجاله في منزل ريفي على مسافة ثلاثة أميال من بغداد. بينما الأهالي عانت من كثرة الوفيات وتوقف النشاط الاقتصادي، وانتشار الفقر. وبعد انحسار الوباء عاد العاملون في الوكالة بسفينتين جديدتين تحمل كل منهما ١٤ مدفعاً حملتا اسم دجلة والفرات، وقد فرح الوالي لهذه العودة فقدم للوكيل حصاناً.

كانت القبائل جنوب بغداد مستقلة عملياً، تدفع أموالاً للوالي مقابل حمايته لها. وكانت مقرات شيوخ القبائل تتوفر فيها مواد التموين الضرورية، ولديهم الخيول الأصيلة، وكانوا يجبون الضرائب على القوارب النهرية باسم الشيوخ ولصالحهم. أما السلطات التركية فكانت تجبي الضرائب المختلفة، مثل ضريبة البحر في ثغر البصرة بواقع ٣ بالمائة من قيمة البضائع التي يوردها التجار، وترتفع أحياناً الى ٨ بالمائة. كما تجبى الضريبة نفسها على البضائع التي تشحن الى خارج العراق من البصرة، والى بغداد وحلب. وهناك ضريبة على النخيل والتمور، ورسوم أخرى لقاء بعض الخدمات. وكانت بغداد مركزاً تجارياً وصفها بارسونز: «إنها السوق الكبير لمنتجات الهند وايران والقسطنطينية وحلب ودمشق، باختصار إنها أكبر مخزن في الشرق».

في خريف ١٧٧٣ كان الحاكم الايراني في كرمنشاه يعد قواته لاحتلال كردستان التي كانت تابعة لولاية بغداد. وكانت الحجة الظاهرية لدوافع الهجوم المحتمل سوء معاملة الزوار للعتبات المقدسة، والمطالبة بإلغاء الضريبة التي تستوفى منهم. أما السبب الفعلي لهذا التوتر فيعود الى سعي الشركة لتحويل طرق تجارتها من الهند عبر ايران واستبدالها بالعراق.

وفي فجر يوم ٩ نيسان ١٧٧٥ حاولت جماعة من الايرانيين تسلق الأسوار المحيطة بالبصرة في أماكن مختلفة بين بوابة الزبير وبوابة بغداد، ودار قتال بين المهاجمين والمدافعين، واستمر التلاحم أكثر من ساعتين. فسارع البريطانيون الى ترك مبنى الوكالة والسير نحو مصب خليج العشار، الذي كان بحراسة أكثر من ثلثمائة عربي، وعندما طلع النهار كان المدافعون قد استطاعوا صد الهجوم. ورأى الوكيل مور الانسحاب من البصرة،

إلا أنه لم ينقل البضائع الى السفن، وترك كل شيء على حاله ماعدا خزانة الشركة التي نُقلت الى السفينة، التي أبحرت الى الكويت التي كانت تابعة لولاية البصرة.

وصل مستر جاردن الى بوشهر في نيسان ١٧٧٥ على ظهر الطراد دريك وبحمايته وصلت أيضاً ثلاث سفن. ودخل في مفاوضات مع الايرانيين ووعدهم بإعادة التجارة معهم، على أن يوافقوا على حماية البريطانيين وأملاكهم في البصرة، وتم فعلاً فتح الوكالة في بوشهر.

وكتب بارسونز «وهكذا تُرك البصريون التعساء وحدهم وتخلى عنهم من كان من واجبهم ومن مصلحتهم أن يدافعوا عنهم. . .».

وعندما تكرر هجوم الايرانيون وتخاذل البريطانيين، استطاع أهالي البصرة الصمود سنة كاملة، وأخيراً في منتصف نيسان ١٧٧٦ وبعد أن يئس المدافعون من وصول أية امدادات من بغداد، قام وجهاء المدينة بتسليمها بشرط (معاملة أهل البصرة باحترام لأرواحهم وعائلاتهم وممتلكاتهم). ولكن القحط الذي رافق أيام الحصار وبعده مس الفقراء وهم الغالبية، مما اضطرهم لبيع كل ما يملكونه وعمت البطالة وتدهورت الأحوال. وحين انتقلت إدارة البصرة للايرانيين، تراجعت التجارة، وسببت هذه الحالة قلقاً شديداً للمقيم البريطاني الذي كان يحصل على عمولة قنصلية ١ بالمائة على واردات التجار الأوربيين إضافة الى مرتبه، ولهذا فقد تقلص دخله. وخلال احتلال الايرانيين للبصرة ١٧٧٦-١٧٧٩ أصبح البريد البري البريطاني يُرسل الى حلب عن طريق الكويت بدل الزبير. ولم يكن هذا الاجراء مرضياً، فقد هاجم البدو قافلة الرسائل واستولوا على ممتلكاتها بما فيها الرسائل.

الأتراك يستعيدون البصرة

كان احتلال الايرانيين للبصرة عبئاً ثقيلاً عليهم، ومشروعاً خاسراً اقتصادياً، ولهذا انتهى عام ١٧٧٩. فقد أرسل صديق خان مندوبيه للتشاور مع لاتوش وايراهام، حيث حصل منهما على قرض بقيمة ٦٠٠ تومان لنفقات نقل قواته الايرانية. وبعد رحيلهم سيطر رجال بني كعب والمنتفك على المدينة الى حين إعادة السلطة التركية عليها. وانتعشت التجارة البريطانية في البصرة خلال السنوات العشر التالية لرحيل الايرانيين، ثم تراجعت بسبب تمرد رئيس قبيلة المنتفك وسيطرته على المدينة لفترة قصيرة، بعدها طاردته السلطات التركية وفرضت حكمها على البصرة.

عندما شغر منصب الوالي في بغداد، قام ممثل الشركة بإرسال الأموال للسفير

البريطاني في القسطنطينية لارشاء كبار الموظفين وأم السلطان لقبول مرشحهم سليمان باشا، الذي كان مديناً للوكالة مالياً ومعنوياً لاطلاق سراحه من السجن الايراني، ولهذا كان مخلصاً للبريطانيين. وعند تسلمه لمنصب والي بغداد قدمت الشركة له كشفاً بمبلغ ٢٠٠٠ جنيه، طالبوه بتسديدها، وهي بمثابة التكاليف التي أوصلته لهذا المنصب، وكان الوالي لا يخفي شكوكه من كون السفير قد احتفظ لنفسه بالقسم الأكبر من هذا المبلغ. في عام ١٧٨٣ وافقت حكومة بومبي على اقتراح المقيم بتعيين وكيل دائم للشركة من أهل البلاد ويكون مقره في بغداد وبمرتب شهري ١٠٠ روبية. وتكون مهمته تسهيل الأمور للشركة من قبل والي بغداد، وتم ذلك اعتباراً من حزيران ١٧٨١، ومكافأة لخدماته صرفت له رواتب عن الفترة السابقة.

بغداد في عهد سليم الثالث

خلف عبد الحميد الأول في سلطنة تركيا ابن أخيه سليم الثالث بين ١٧٨٩-١٨٠٧ وكانت الامبراطورية العثمانية في عهده تتكون من ٢٦ ولاية، منها ولاية بغداد التي تشمل البصرة، لكنها لا تتضمن الموصل. وكانت تركيا عهدذاك في حرب مع روسيا وقبلها مع النمسا، فيما كانت بريطانيا وفرنسا تقفان بنفوذهما الى جانب تركيا. ثم تعكرت العلاقة مع فرنسا بسبب غزو نابليون لمصر، ثم عادت ودية عام ١٨٠٦. بينما ساءت علاقة تركيا مع بريطانيا، حيث كان متوقعاً تقدم نابليون عن طريق الفرات في الطريق الى الهند.

تأزمت علاقة الشركة في العراق في نهاية حكم سليمان وكان السبب الظاهر دفاع المقيم البريطاني عن مسيحي متهم بقتل يهودي، فقامت الجالية اليهودية بتهديد المقيم البريطاني وتمزيق علم الشركة، ونظراً لتردد الوالي في حسم الموضوع، انسحب المقيم مع بعض موظفي الشركة الى الكويت وصارت الوكالة تدير عملها من هناك. وعندما تقدم الوالي بشكوى لمقر الشركة في لندن، صدر أمرها في نيسان ١٧٩٥ بتعيين مقيم جديد وعودة الوكالة لممارسة نشاطها في البصرة.

ثم صدر قرار عام ١٧٩٨ جاء فيه: بناء على اقتراح هارفورد جونز فقد عينه صاحب الجلالة الملك واللجنة السرية للشركة مقيماً لدى الوالي سليمان في بغداد بدرجة وكيل سياسي، وتقديم العون المالي للباب العالي، والعمل معاً لاحباط مخططات نابليون التي تستهدف المشرق. وبهذا وضعت أسس الاتفاق البريطاني ـ التركي المضاد لنابليون في المشرق، وتمت صياغته بمعاهدة تحالف دفاعي أوائل ١٧٩٩. وبعد عامين تعكر صفو

العلاقة بين المقيم جونز والوالي، الذي أخبره بتزايد المشاعر المعادية له، بعد مشاهدة امرأة تركية تخرج من منزله، وعرض عليه المساعدة للهرب، وأبلغه بأن اصراره على البقاء لا يضمن سلامته. فقدم شكواه الى حكومة الهند طالباً الحماية، وانسحب من بغداد الى مكان آمن في الريف، ثم تمت تسوية الخلاف. وعاد الى عمله متصالحاً مع الوالي.

توسعت المقيمية البريطانية في بغداد وتم تزويدها عام ١٨٠٠ بحرس من الهند قوامه ٣ ضباط و٢٦ مجنداً من الهنود، كما جرى تعيين طبيب بريطاني لفحص الوالي بتوجيه من المقيم كإشارة لتحسن العلاقات بينهما. وظلت المراسلات الرسمية تنقل بانتظام عبر الصحراء من البصرة الى بغداد فحلب ومنها الى لندن. طلب آغا الانكشارية من المقيم البريطاني أن يتدخل لدى الباب العالي ليتولى الولاية بعد وفاة والي بغداد، فنصحه بالبقاء في موقعه ريثما تتجلى الأمور. إلا أنه استعجل وحاول احتلال مقر الوالي بالقوة، فاصطدم بزوج ابنة سليمان وتصاعدت المعارك وإطلاق القذائف بين الجانبين، وأغلقت المتاجر ولازم الناس منازلهم. وكان النصر للأخير الذي اعتقل الآغا وقطع جسمه، كما أمر بإعدام ١٤ من أنصاره الانكشارية، وكان المدفع يطلق قذيفة كلما أطاح الجلاد برأس أحدهم. وعندما سيطر علي باشا، أرسل التماساً للباب العالي جمع عليه تواقيع الوجهاء مصحوباً بمبلغ ٦٠ ألف جنيه هي من تركة الوالي المتوفى والد زوجته، لتعيينه والياً على بغداد، وهكذا كان. وعندما طالبوهُ بالمزيد أضاف بعض المجوهرات والتحف، معتذراً لعدم توفر السيولة النقدية لأنه تحمل تكاليف المعارك لصد الهجوم الوهابي على الحلة وكربلاء والنجف، حيث أقاموا مذبحة للأهالي ولزوار العتبات المقدسة كالايرانيين والأتراك وغيرهم. وقد تميز عهد الواليّ علي باشا بالقلاقل، ووصفه جونز في أحد تقاريره «ليس رجل عمل ولا هو رجل لهو، يفتقد الامكانات التي تجعل منه الرجل الأول». في ١٨ آب اغتالته جماعة من عبيده، واستراح منه الناس.

في ٤ نيسان ١٨٠٣ دخل من سماهم الدليل بالغوغاء، بيت ربان سفينة المقيم واخرجوا منه امرأة تعيش في بيته، قيل أنها من القاهرة وكانت مسلمة. . . فسارع المقيم بالاحتجاج مطالباً بإعادتها ومعاقبة المتدخلين. ولما لم يجد استجابة، أنزل العلم البريطاني وأغلق الوكالة وهدد بالسفر الى الهند. وبعد مفاوضات أعاد الوالي المرأة وعاقب الغوغاء! فعادت الأمور الى مجاريها. تميز عام ١٨٠٦ بزيادة كبيرة في العوائد والرسوم التي تحصل عليها الشركة، أما لنمو التجارة و/أو لتحسن التحصيل أو لكليهما. فبلغت ٤١٦٦٣ روبية، مقارنة بمبلغ ٢٧٥١٢ روبية كمجمل سنوات ١٧٩١–١٨٠٥، مما جعل المقيم يقول طالما بقيت

مسؤولاً عن العمل هنا، فسوف يزداد التحصيل الى نحو ٥٠ ألف روبية سنوياً.

اضطراب الوضع في العراق

عام ١٨٠١ قرر الباب العالي عزل والي بغداد فحاول التمرد، وحين تخلى عنه أنصاره، عمد الى الفرار وبعد عبوره نهر ديالى هدم الجسر لتأمين مؤخرته، ولكن استطاع أفراد من قبيلة شمر القضاء عليه ومن معه. فعيّن الباب العالي عبدالله والياً على بغداد، فوصفه المقيم البريطاني بأنه واسع الثقافة مقتدراً إدارياً ومتحرراً دينياً، وأنه موال للانكليز معتبراً مصالحهم لا يمكن فصلها عن مصالح الباب العالي في مثل هذه البلدان. . .! وكان من أول أعماله تعيين مُتَسلّما جديداً للبصرة يؤمن مصالح الشركة أفضل من سلفه، وقام بحملة عسكرية ضد عبد الرحمن باشا الكردي مستهدفاً اخضاع كل كردستان لتصبح ولاية بغداد أقوى أقاليم الامبراطورية العثمانية فلم يفلح بتحقيق حلمه هذا. ثم اصطدم بقبيلة المنتفك بزعامة الشيخ حميد بن ثامر، فغلبته واستسلم لها مقابل ضمان سلامته، إلا أنه قتل، وازدادت هذه القبيلة قوة على أثر انتصارها على والي بغداد عام ١٨١٣.

رغم نشوب الحرب بين بريطانيا وتركيا في أوروبا، إلا أن والي بغداد وجد من مصلحته استمرار العلاقة الودية مع الشركة وبريطانيا عموماً. فكتب بتاريخ ٢٥ كانون الثاني ١٨١٠ رسالة الى المقيم البريطاني أكد فيها «أن كل السلطات لا تستطيع أن تتدخل في ما يجري في المقيمية». وبعد عامين نجح المقيم بالحصول على وعد بتسليم المقيمية جميع البحارة والجنود العاملين على السفن البريطانية في حالة هروبهم منها. كما يسلم لها سائر رعايا بريطانيا الذين تجلبهم السفن المحلية أو سفن مسقط القادمة الى البصرة ليباعوا في أسواقها كعبيد وإماء.

في منتصف عام ١٨١٩ تلقى المقيم تعليمات في حالة وقوع اعتداءات على الوكالة، أو إهانات للعاملين فيها، أو حين تصبح مهددة بخطر، عليه الانسحاب بالوكالة من البصرة الى بوشهر أو الى جزيرة (قشم)، حيث أقيمت قاعدة عسكرية بريطانية. وحصل هذا التوتر إثر هجوم على مبعوث الشركة وهو يحمل رسائل هامة من وكيل الشركة في القسطنطينية فضاعت منه. وازدادت حدة الخلاف في ما بين داود باشا والوكيل السياسي البريطاني، وأعلن الوالي بأنه ليس للأوربيين حقوق معترف بها في بغداد، وأنه ستجمع العوائد على بضائعهم مضاعفة. وتصاعد التوتر وتم حجز الوكيل البريطاني والعاملين معه في مبنى الوالي لعدة أيام. وبعد تدخل ضباط أتراك تقرر رحيل الوكالة بالعاملين فيها الى الكويت حيث

بقيت بين ١٨٢١-١٨٢٣. وهددت بريطانيا بالانتقام لإهانة الشرف البريطاني في بغداد، وتقدمت بقائمة كبيرة من المطالب، وإلا فان استخدام القوة هو الحل. فما كان من الوالي الا الاذعان والاستجابة والاعتذار، وهكذا عادت الوكالة الى البصرة والى بغداد منتصرة عليه. وإرغامه بالتوقيع على اتفاقية جديدة تضمنت ١٢ شرطاً وافق عليها الوالي في آب ١٨٢٣ دون أي اعتراض، بما فيها حق البريطانيين بفرض حمايتهم على من يشاؤون من الناس!. ثم تقدم والي بغداد بطلب أسلحة وذخائر وخبرات ضباط انكليز، وأنه سيدفع جميع التكاليف. في البداية رفضت حكومة الهند هذا الطلب. إلا أن مجلس مدراء الشركة أوصى بقبوله مبيناً «لا شيء أرخص من المعلومات، وهي ميزة للدولة التي تحوز عليها، مقارنة بتلك التي لا تتوفر لها مثلها، ونحن نود أن يكون هذا في ذهنكم دائماً، وبكل البلاد المجاورة».

وكانت أطماع روسيا قد أصبحت عاملاً هاماً في رسم السياسة البريطانية في آسيا، وربما كان مجلس إدارة الشركة مهتماً بالموضوع، لأنه يخشى تسلل أوربيين من غير بريطانيا الى العراق بصفة خبراء ومدربين عسكريين، وهذا أحد أسباب نصيحته بقبول طلب والي بغداد والمماثل له.

نفوذ بريطاني دائم

بطلب من بريطانيا زار الرحالة فرايزر العراق عام ١٨٣٤ وقدم تقريراً جاء فيه: «لا يمكن أن نسهب في وصف الميدان الذي يفتحه التغيير في الحكومة في ما يخص الصناعة ورأس المال بين النهرين. انها من أفضل المناطق مناخياً وتربة وقرباً من مراكز الحضارة والتمدن في العالم القديم. وإذا تطور الاقليم العراقي وساده الهدوء والأمن فإنه سيصبح هدفاً هاماً من أهداف الدولة البريطانية، ومهما كان شكل الحكومة التي تقوم فيه، أو طبيعة ومدى ارتباطها بالباب العالي مستقبلاً، فان على الدولة البريطانية، واجباً وفرضاً أن يكون لها نفوذ دائم في حكومته. بل أنها يجب أن تقوم هي نفسها بتوجيه كل السياسة والاشراف على جميع التطوير والاصلاح، مهما كانت الأداة التنفيذية التي تنفذ رغباتها».

خلال تلك الحقبة لم يكن العراق متأثراً عملياً بغير النفوذ البريطاني، رغم مساعي فرنسا وروسيا لاحتلال موقع في هذه البلاد، بناء على اقتراح قدمه المقيم البريطاني في العراق أصدرت حكومة الهند عام ١٨٢١ قراراً يمنع الرعايا البريطانيين من دخول العراق بدون جواز سفر معتمد من سلطاتها المسؤولة. وذلك لتقليل عدد المغامرين الذين يسيئون الى سمعة بريطانيا ومنافسة الشركة. وضع مجلس ادارة الشركة ارشادات للوكيل منها أن

يلتزم دائماً بمنع استقلال والي بغداد عن الباب العالي، وعدم استقلاله هو عن السفير البريطاني في القسطنطينية، ومراسلته بكل الشؤون التي تخص الوكالة وزبائنها. وأن يرفع الى حكومة بومبي نسخاً منها. وأن يتجنب اقحام نفسه في أعمال الولاية الداخلية والخارجية. ولم يقبل مجلس ادارة الشركة بتقليص النفقات بقصد التوفير، مشيراً الى «تعقد وتشابك الظروف التي جعلت مصالح دول أجنبية عديدة تلتقي على أرض العراق» مما يتطلب الحذر الدائم وتقوية الوكالة وأن تطلب ذلك زيادة في النفقات.

تمت خلال الفترة ١٨٢٦–١٨٣٢ عمليات مسح هامة لجزء من ساحل بلاد الشام ولنهري دجلة والفرات، وبشكل خاص أسفل دجلة كمنطقة هامة. وفي عام ١٨٣٣ قابل الكابتن تشيزني الذي وضع خطة الاتصال بالهند عن طريق العراق الملك فشجعه على الاستمرار ونصحه باعداد أسطول بخاري صغير، يكون مرساه بين النهرين ليساعد على عرقلة تقدم روسيا. وقد وافقت لجنة الملاحة التجارية على هذا المشروع واعتمدت له مبلغ ٢٠ ألف جنيه، أضافت اليه الشركة ٥ آلاف جنيه. وأصدرت الحكومة التركية فرماناً يسمح لشركة الملاحة البريطانية بتسيير سفن بخارية في الفرات، لتسهيل التجارة بين البلدين وهكذا فقد صممت الباخرتان «دجلة» و«الفرات» في ليفربول، ونقلتا قطعاً صغيرة عبر الصحراء الى الفرات الأعلى. ووضع مرجل الباخرة بعربة يجرها ١٠٤ من الثيران القوية، ومعها ٥٢ رجلاً، مروراً بسوريا التي كانت عهدذاك تحت حكم محمد علي باشا والي مصر.

وفي أحد الأيام هبت عاصفة فأغرقت السفينة «دجلة» قرب مدينة عانه، ومات من فيها وهم ١٤ من الأوربيين و٥ من العرب. أما السفينة «الفرات»، فقد تعرضت لأضرار طفيفة، ووصلت البصرة، ثم عادت عبر شط العرب صعوداً عبر دجلة لغاية بغداد. وعينت الملازم لينش قبطاناً لها، وقد نجح باعداد مخطط لمجرى دجلة والفرات وتحسين العلاقة مع القبائل المجاورة لمجرى النهرين. ورغم التشغيل الناجح للنقل النهري، ظل البريد ينقل بالطريق الصحراوي على الخيل والجمال.

مجزرة كربلاء

عاشت كربلاء منذ ١٨٤٢، ولحوالي العشرين عاماً، أشبه بجمهورية ذات حكم ذاتي، معفاة من مطالب ممثلي الباب العالي. وكانت قد شهدت تمرداً أدى الى مقتل ثلاثة مبعوثين ممن أوفدهم اليها والي بغداد. وعندما تولى نجيب باشا ولاية بغداد، أراد أن يمد نفوذه الى كربلاء فاصطدم مع أهلها الذين استعانوا بمسلحي العشائر المجاورة. وعندما أمر الوالي

نجيب بالزحف بفرقة من الفرسان مع عشرين مدفعاً وثلاث فرق مشاة الى كربلاء، ومحاصرتها. وبرفضهم الاستجابة اشتعلت المعارك، وكان ميزان القوى لصالح قوات الوالي، التي ارتكبت مجزرة دموية بأهالي كربلاد وسلبت ممتلكاتهم، وحولت مرقد العباس بن علي بن أبي طالب الى ثكنة عسكرية ومربطاً لخيولهم، إمعاناً في إذلالهم بإهانة مقدساتهم.

وعندما نشرت أخبار هذه المجزرة التي قدر ضحاياها بحوالي ٣٠ ألف قتيل، طالبت حكومات فرنسا وروسيا وبريطانيا وايران باجراء تحقيق، وتم تشكيل فريق لهذا الغرض زار المدينة المنكوبة وقدم تقريراً قلص فيه عدد القتلى الى ٥ آلاف من الأهالي، و ٤٠٠ من الأتراك المهاجمين، مما يدل على مقاومة الأهالي للغزاة. وحمل التقرير حكمدار الجيش التركي المسؤولية المباشرة للكارثة، وقد رتب السفيران الروسي والبريطاني في القسطنطينية تسوية بمقتضاها يعلن الباب العالي استنكاره لهذه المجزرة، وتقديم مبلغ لاغاثة المصابين من أهالي كربلاء، والعمل على اصلاح العتبات المقدسة، وتوقف الاساءة اليها.

وهذا الوالي نجيب باشا لم يكف عن اضطهاد العراقيين، وكان العدوان التالي على سكان بغداد، خاصة في محاولة إخضاع أهالي محلة الشيخ عبد القادر الكيلاني، المحتجين على الضرائب المتزايدة عليهم. الذين تظاهر حوالي ١٥٠٠ شخص منهم، متوجهين الى منزل الوالي نجيب حاملين مذكرة تتحدى إجراءاته، فصدهم بقوة قمعية. كما أرسل حملة عسكرية على كردستان، واصطدمت قواته مع قبيلة بني لام، ثم امتدت اجراءاته القمعية ومضايقاته الى قبائل شمر وعنزه، مستهدفاً إخماد أي تململ أو مظاهر قوة مناهضة للاحتلال التركي، لضريبة الرأس.

عامي ١٨٤٦ و١٨٤٧ تفشت الكوليرا في بغداد فمات الكثير من الناس، أما الوالي وأعوانه ومعهم الوكيل البريطاني والقنصل الفرنسي فتركوا بغداد الى مكان آمن.

وجاء في تقرير كتبه الوكيل البريطاني عام ١٨٤٨ عن حكم نجيب باشا «يُقدر الدخل العام للحكومة بما لا يقل عن مليون جنيه استرليني. وفي عهده لم تعمر أي أرض للزراعة، ولم تتحقق زيادة في التجارة، ولم تكتشف ثروات معدنية، ولم يحدث ابتكار في الصناعة أو نمو في الانتاج، بل على العكس من ذلك فان كل فروع الزراعة والتجارة والصناعة قد تأخرت وانحط مستواها من الجذور». وأضاف «انك سوف تدرك بأنه لم يكن ممكناً جمع هذا الدخل دون أن توقع ظلامات وآلام بالأفراد والناس، ودون أن يستوجب الأمر بغضاً رهيباً للسلطة الحاكمة التي تسمح، بمثل ذلك الجور الساحق».

التتمة في عدد قادم

ايـران - الـولايـات الـمـتـحـدة
جـر حـبـل أم تـثـلـيـم جـدران؟

حميد سلمان الكعبي

كان الليبراليون الايرانيون عموماً يتصورون الولايات المتحدة، الى أوائل الخمسينات من هذا القرن، دولة تحررية تؤازر استقلال الشعوب، وكان دليلهم الساذج على ذلك السياسة الأميركية الانعزالية أثناء الحرب العالمية الأولى، ومبادئ الرئيس ويلسون، وموقف الحكومة الأميركية المناوئ لاحتكارات النفط العالمية - البريطانية أساساً آنذاك - جاهلين، أو متجاهلين، ان ذلك الموقف كان دعماً لاحتكارات النفط الأميركية لا حرصاً على استقلال الدول المنتجة للنفط. وقد عزز هذا التصور سقوط بعض الأميركان ضحايا هنا وهناك، في خضم نضالات الشعب الايرانية التحررية، كمقتل مبشر أميركي في تبريز بُعيد الحرب الأولى، وفي النضال ضد احتكارات النفط البريطانية، حيث سقط نائب القنصل الأميركي قتيلاً في طهران، في عشرينات القرن، بسبب دوافع الأول الانسانية باشتراكه في مظاهرات قمعتها الجندرمة الايرانية، وتهوّر الثاني، الذي تواجد في محل كان عملاء شركات النفط البريطانيون يمارسون فيه عمليات تخريبية، فقتلوه.

وبلغ ذلك التصور أوجه على عهد المرحوم الدكتور محمد مصدق، وفي ذهنه، حتى أنه اعتبر الولايات المتحدة حكماً بينه وبين بريطانيا، في حين كانت الدولتان تخططان - على اعلى مستوياتها - للاطاحة به في انقلاب عسكري دموي، فشل بالصدفة، ولكنه سرعان ما نجح بعد بضعة أيام نتيجة صدفة أخرى ساعدتها غفلة المرحوم مصدق

وأنصاره، والسياسة المتخبطة لأقوى حزب ثوري يساري ـــ حزب توده ـــ، ليتضح الدور الأميركي جلياً بكل جلاء.

ومنذ آب ١٩٥٣ صار واضحاً في ايران أن الولايات المتحدة هي التي تدير ايران بوصفها بيدقاً صغيراً في استراتيجيتها العالمية، وتطورها لتجعل منها بيدقاً كبيراً في استراتيجيتها المتعلقة بحدود الاتحاد السوفييتي السابق وبمنطقة الخليج الفارسي[١] فكان جر ايران الى سياسة الأحلاف العسكرية وزرعها بمراكز التجسس والانصات وتقوية جيشها ليلعب دوراً خارج حدوده، ونهب ثروات ايران النفطية واستعادة موارد النفط التي كانت تحصل عليها عن طريق اغراقها بالأسلحة والتجهيزات العسكرية والأمنية، واقامة الدورات التدريبية لقوات الجيش والأمن المختلفة، ثم انشاء وتطوير جهاز السافاك[٢] الرهيب على أيدي وكالات المخابرات المركزية وتحت اشرافها واشراف الموساد الاسرائيلي بعد ذلك.

وكان طبيعياً أن تتخذ الولايات المتحدة موقفاً معادياً للثورة الايرانية، تجلى ـ أثناء الثورة ـ بايفاد مبعوث عسكري كبير ليشرف علي التخطيط لتدبير انقلاب عسكري مضاد، لكن لم يستطع تحقيق هذه المهمة، فأي تحرّك مغامر كان سيؤدي ـ في تصور مخططي السياسة الأميركية ـ لا الى الفشل وتصفية الجيش من كبار ضباطه الموالين للولايات المتحدة فحسب، بل والى تشديد عداء النظام الجديد للولايات المتحدة أيضاً، ثم ـ في رفض اعادة أموال الشعب الايراني التي كان الشاه المقبور قد حول قسماً كبيراً منها الى الولايات المتحدة طيلة مدة نهبه، وحمل الباقي في الحقائب التي رافقته في الطائرة التي راحت تتنقل به في كل البلدان التي نبذته، بعد فراره. *

أما على الجانب الايراني، فازاء الموقف الاميركي هذا، وازاء رفض الولايات المتحدة تسليم الشاه عندما طالبت به حكومة الثورة، قام عدد من الطلبة الايرانيين، في حركة عفوية، باحتلال السفارة الأميركية وحجز من كان فيها، الا أن تدخل بعض مسؤولي النظام الثوري، السريع، أنهى العملية دون أن تترتب عليها نتائج جدية. وقد أوحت هذه العملية لـ «الطلاب الموالين لخط الامام الخميني» الى القيام بعملية ثانية، مخطط لها، دون أن يعترضها أحد هذه المرة، فاحتلوا السفارة، وأخذوا أكثر من خمسين شخصاً من موظفي السفارة وحرسها رهائن مدة تجاوزت أربعمائة يوم، واستولوا على بعض وثائق السفارة ـــ المتخلفة عن ماكنة القص والتقطيع، فأعيد ترتيبها والصاقها لتستعيد شكلها القابل للقراءة، وانتهت العملية باعادة بعض أموال الحكومة الايرانية ـــ لا أموال الشاه

«الشخصية» ـــ المودعة لدى بنوك أميركية أو مدفوعة لشركات أميركية كمقدمات لصفقات تجارية مختلفة، وبقي قسم آخر من تلك الأموال ينتظر حسمه في محاكم أميركية أو دولية، كما بقي الحظر التجاري الذي سبق أن فرضته الولايات المتحدة على ايران ـــ رداً على احتجاز الرهائن ـــ ساريا. لكن مسروقات الشاه لم تعد طبعاً. وهكذا، فلو كان هدف مخططي العملية هو تلك الأموال حقاً، فقد كانت العملية فاشلة، أما اذا كان الهدف قطع العلاقات بين البلدين واعلان عداء النظام الجديد للولايات المتحدة وسد الطريق أمام التغلغل الأميركي في ايران، فهي ناجحة تماماً.

حاولت الولايات المتحدة استعادة مواطئ أقدامها في ايران، عن طريق مساعدة عملائها في تنفيذ انقلاب عسكري كان هدفه الأول القضاء على آية الله الخميني نفسه في قصف جوي، كما سعت لاسترداد الرهائن في عملية عسكرية خرقت بشكل واضح سيادة ايران (وقد فشلت كلتا العمليتين) وكانت النتيجة استحكام القطيعة بين البلدين بشكل يكاد يكون تاماً، وشدد ذلك الاستحكام الموقف الأميركي الداعم لصدام في حربه العدوانية ضد أيران، خاصة في السنوات الأخيرة من حرب الثماني سنوات، ولم يخرقه الا زيارة مك فرلين الخائبة لايران.

بعد وفاة المرحوم الخميني، وتسلم الشيخ الرفسنجاني رئاسة الجمهورية الاسلامية الايرانية، بشكلها الرئاسي الجديد، حاول أن يجس نبض الادارة الأميركية لاستئناف العلاقات (ربما جواباً منه، وان متأخراً، على خطوة ريكان في ايفاد مك فرلين). وذلك على يد معاونه السيد عطاء الله مهاجراني. الذي كتب مقالاً في عموده اليومي باحدى مسائيات طهران. ولكن المحاولة سرعان ما وئدت فقد هبت أوساط «اليسار» المقبول رسمياً لتنتقدها في حملة شديدة، حملت أوساط «اليمين» لا على الانضمام الى حشد الناقدين فقط، بل والى المزايدة عليهم أيضاً، مما حمل الرفسنجاني الى التنصل منها، ثم اختتم «زعيم الثورة الاسلامية» السيد علي خامنئي الحملة بتوجيه رسالة الى مهاجراني قال فيها «انك قدمت مشورة لن نعمل بها». وقد بدا الموضوع وكانه نسي طيلة ثماني سنوات، وكان ذلك طبيعياً بعد تبني الولايات المتحدة استراتيجية التطويق ـــ واللجم المزدوج، ثم ضغوطها الدبلوماسية على حلفائها، الأوربيين خصوصاً، من أجل عدم الاستثمار في ايران ثم تشريعها قانوناً يعاقب المستثمرين ـــ حتى غير الأميركان ـــ اذا ما استثمروا في ايران أكثر من مبلغ معين.

وقد عانت ايران من ذلك. فخسرت مجالات للنشاط خارج البلاد من ناحية (كاذربايجان مثلاً) وفرصة تحديث صناعات استخراج وتكرير النفط والغاز في الداخل،

من الناحية الأخرى، خاصة ما يحوّل منها خارجياً.

وهكذا، كان طبيعياً أن يحاول الرئيس الجديد، السيد محمد خاتمي، نفخ البالون الاختباري ذاته، في الظروف الجديدة. فقد جاء مبشراً بالتجديد، مصرحاً بعزمه على اقامة المجتمع المدني أي الانتقال من «الشرعية الثورية» الى «الشرعية الدستورية» في الداخل وتحسين صورة ايران في الخارج، اضافة الى كونه اعتمد كثيراً على الشباب في الفوز بالانتخابات، عدا عن كونه يعتبر ــ هو نفسه ــ من جيلهم، بمعنى أنه من رجال الصنف الثاني في الثورة، ولم يكن له فيها ــ وفيما رافقها وتلا نجاحها ــ دور يذكر. وكان كل ذلك في حسابه ــ ويبدو هذا الحساب صحيحاً ــ يؤهله لدخول المفاوضات مع الولايات المتحدة بريئاً من جريرة احتلال السفارة الأميركية طليقاً من تبعاتها. وكان طبيعياً بالنسبة إليه أن يلج من باب «حوار الحضارات» و«مخاطبة الشعب الأميركي مباشرة»، ليلتف على «تحريم» زعيم الثورة ويتفادى حملة مضادة من أوساط «اليمين»، التي كان يعرف انها ستثور ليس لأنها لا تريد الدخول في مفاوضات مع أميركا، وانما لمجرد التشنيع على «اليسار»، ورفض الفكرة لمجرد أنها صدرت عنه هو. وقد برع هو في تصوير موقف هذه الأوساط، اذ وصف بعض معارضي الفكرة بأنهم يخشون أن يأخذ المبادرة غيرهم، فهم الذين سعوا للترويج لها وتسويقها مدة طويلة، وقد انبعثت الفكرة من مصالحهم، ويجدون أنفسهم الأقدر على تنفيذها.

واذا كانت محاولة رفسنجاني ــ مهاجراني وئدت في المهد، لأنها لم تتجاوز كثيراً عمود الصحيفة التي طرحت فيها، فان بالون خاتمي تمكن من وصول الملعب الأميركي ليتفجر هناك، محدثاً ردود الفعل المطلوبة من أي بالون اختبار. ولا يوجد شك في أن السيد خاتمي قد فاتح مسبقاً السيد خامنئي بمشروعه، والدليل على ذلك أن مؤسسة الاذاعة والتلفزيون ــ وهي معقل رئيسي لـ «اليمين» ــ ومسائية «رسالت» ــ لسان «اليمين» ــ استقبلتا حديث السيد خاتمي، في اليوم الأول بترحاب، وأن السيد الخامنئي أطرى على الهدف الرئيس منه قبل أن ينتقده ويعلن رفضه لدخول مفاوضات واقامة علاقات، كما أنه لم يشر الى رفضه السابق الذي أغلق باب النقاش حولها في عهد رفسنجاني. يضاف الى ذلك أن الأمر يتعلق بسياسة الدولة العليا، وهذه ترسم بناء على توصيات مجمع تشخيص مصلحة النظام (حسب توسيع صلاحياته حديثاً من قبل زعيم الثورة) ومصادقة زعيم الثورة عليها، ثم تبليغها للحكومة لمجرد التنفيذ.

كانت ردة الفعل الأولى لحديث الرئيس، داخل ايران، ايجابية من الجانبين، فتحدث الجميع

عن فوائد الحوار بين الشعوب، وحسن طرح المسألة، وتوقعوا احراجاً كبيراً للجانب الأميركي جراءها. كما أن الايرانيين المقيمين في الخارج تلقوها بترحاب كبير، خاصة وقد أشار الرئيس الى أن الغالبية العظمى منهم مواطنون ايرانيون شرفاء، يواصلون تقاليد بلادهم الثقافية في الاشعاع الحضاري على بقية الشعوب، ومنحهم دوراً في حوار الشعوب الذي يفكر فيه.

ولكن الاعلام الغربي شن خطة مرسومة للاستفادة من المبادرة الايرانية للحصول على تنازلات أبعد. فكان مدار عملها في اليوم استخراج آراء ايرانيين (مختارين طبعاً) في المبادرة، فكان أن عكست الاذاعة البريطانية رأياً لأستاذ ايراني يعمل في بريطانيا قال فيه: مع أن الخطاب موجه للشعب الأميركي، الا أن المقصود به الحكومة الأميركية، وقال آخر أن اليمين سيعارض الفكرة لمجرد صدورها عن ممثل لليسار. أما صوت أميركا فنقل رأياً لاقتصادي ايراني يعمل في صندوق النقد الدولي قال فيه مستهزئاً: لا أفهم معنى قول الرئيس خاتمي بأن ايران ليست بحاجة الى الولايات المتحدة، فلو لم تكن بحاجة اليها فما معنى الحوار اذن؟ أما على المستوى الرسمي، خاصة في الولايات المتحدة، فكانت ردود الفعل الأولى ايجابية، بانتظار معرفة موقف بقية مراكز القوى الايرانية. وقد أعلن ذلك مسؤول أميركي بعد يوم أو يومين صراحة.

وهكذا، فقد تكشفت مواقف الطرفين، وراحت الأنظار والأسماع تتطلع الى كلام الجد.

لقد ملأت وسائل الاعلام الغربية الدنيا بالشروح والتفسيرات والتعليقات، لتصب جميعاً في مطالبة ايران ببراءة كاملة من تاريخها لما بعد الثورة كله: اعلان شجبها لعملية حجز الرهائن، اعلان تخليها عن «الارهاب» الدولي، البرهان عملياً على انصرافها عن مشاريع تطوير أسلحة الدمار الشامل، واتخاذ موقف «ايجابي» من «عملية السلام» في الشرق الأوسط. ومعروف ماذا تعني مفردات الارهاب الدولي والموقف الايجابي من عملية التسوية في القاموس الأميركي! أما وسائل الاعلام فأخذت تنشر شروحاً وتفسيرات وتعليقات الخطين المعترف بهما رسمياً في ايران، وهما ما تسميه وسائل الاعلام الغربية بـ«اليمين» و«اليسار»، ويقبل «اليسار» هذه التسمية، في حين لا يحبها «اليمين». ولأفراح «اليسار» يثني على كل حرف من الحديث ويفسره مبرزاً ايجابيات ما كان خاتمي نفسه يفكر فيها، في حين راح اليمين يشتم لا النظام الأميركي وحده، وانما الشعب الأميركي نفسه، وحتى أسلافه، مؤاخذاً الرئيس لينكولن مثلاً — الذي عبر خاتمي عن احترامه له — على ماسونيته، جاهلاً أن الماسونية لم تكن على عهده سبّة، متجاهلاً أن جمال الدين الأفغاني صار ماسونيته بعد ذلك التاريخ ورغم ذلك فهو يحظى باحترام الفكر الرسمي السائد في ايران.

وبلغ اسفاف مؤيدي خاتمي أن قال أحدهم: «بعد فوز السيد خاتمي، تفضل مقام الزعيم بالقول: إن هذه الحركة العظيمة (انتخابه) أوجدها مقلب القلوب. حقاً، أي تعبير جميل وفني مكانه. والحق ان الأمر كذلك. وان الانسان عندما ينظر الى الامور والوقائع، فانه يرى (مما بعد الانتخابات) يد الله فوق رأس هذا السيد الكريم». (حجة الاسلام منتجب بنا، جريدة سلام، ١٧/١/١٩٩٨). وكان اسفاف خصومه من الطراز نفسه، حيث نشرت «رسالت» التعليق التالي: «رأى ملك زاهداً فسأله: أفتذكرنا قط؟ قال: نعم، عندما أنسى الله. وحكاية بعضهم مع الأمريكان هي حكاية هذا الملك وذلك الزاهد! عندما ينسون الله يذكرون أميركا!... الخ» («رسالت»، ١٧/١/١٩٩٨)[٣].

ولكن أهم ما يلفت النظر في ما نشرته وسائل الاعلام هذه، كان مقالة الشيخ «استاذي»، مدير الحوزة العلمية في مدينة قم ــ وهي مركز قوة ضخم يؤثر كثيراً على زعامة النظام الايراني، وان كان لا يوجد معيار علمي لمعرفة مدى تأثيره على الرأي العام الايراني ــ توجه فيها، على نحو لا سابقة له، بالخطاب والنقد التحليلي الدقيق والمباشر لرئيس الجمهورية وخطابه، وقد نشرها في مسائية «رسالت» (= الرسالة، لسان اليمين المعبر عن مصالح وأفكار «البازار الكبير» في طهران)، وقد تصدى له معمم آخر، هو الشيخ محمد جواد كرماني، وهو كاتب شبه دائمي في مسائية «اطلاعات» بمقالة قال في خاتمتها، بعد رد مقالة استاذي بموضوعية وبأسلوب رجال الدين في مجادلاتهم «الحوزوية»: «وأخيراً، فلأنني... صميمي جداً مع السيد استاذي، امنح نفسي الحق ــ بوصفي شخصاً أكتب، على الأقل تسع عشرة سنة بعد الثورة ــ دعك عما قبل الثورة ــ أكثر منه وقبله، وانني ــ كما يقال ــ أبليت في هذا المجال وكذلك في مجالي النضال والسياسة، عدة قمصان أكثر منه، أن أضع لمقالته، بوصفها أول «تمرين مدرسي سياسي» درجات امتحاني!»[٤] ثم مضى ليمنحه درجة ٢٠ (درجة النجاح العليا) على صدقه وخلوص نيته، و٢٠ أخرى على صراحته وكتابته دون تورية، ودرجة ١٨ على عدم التكلف وبساطة الحديث، لكنه أعطاه ٧ درجات فقط (رسوب) على اتساق الكلام وترتيبه المنطقي، أما عن «قدرة الاستدلال واقامة البرهان» فتساءل كم يعطيه.

أما مؤسسة الاذاعة والتلفزيون، فبعد أن قدمت حديث خاتمي كاملاً على الهواء وقت اجرائه (في الصباح الباكر حين لا يسمعه أو يشاهده أحد تقريباً)، وأعادته مساء اليوم نفسه بعد نشرة الأخبار الرئيسية، وفعلت مثل ذلك في الاذاعة، اكتفت بتقديم فقرات منه وتلخيصات له في النشرات التالية، ثم راحت تنقل انعكاساته في وسائل الاعلام العالمية،

مؤكدة على أوصاف عمومية، مثل «مهم»، «ايجابي» و«مؤثر»، ثم انتقلت بعدئذ لتقديم تحليلات لخبراء تم انتقاؤهم بحساب بالغ الدقة، أبرزهم وزير الخارجية السابق، الدكتور ولايتي، الذي حلم طويلاً باقامة علاقات مع الولايات المتحدة مباشرة أو بالواسطة ــ فلم يوفق، وأخذت تعرض أفلاماً سينمائية للسهرة تدلل على قبح الولايات المتحدة، كان بعضها من القدم بحيث أصابه التهرؤ، وبعضها الآخر من الجدة بحيث دفع الناس للتساؤل أين كان الفلم يعرض قبلاً؟ ومتى تمت تهيئته؟ وعندما ألقى زعيم الثورة خطبة الجمعة التي هاجم فيها الولايات المتحدة، مؤكداً على عدم حاجة ايران الى اقامة علاقات معها، اختارت مؤسسة الاذاعة والتلفزيون العبارات التي تصب في هذا المجرى لتجعلها فواصل بين برامجها، متناسية مدحه لفكرة رئيس الجمهورية، وثناءَهُ على عمله وتحذيره «البعض» من ظلمه عن طريق عدم فهمه أو اساءة عرض أفكاره!.

وقد استعرضت جريدة «عصر ما» (=عصرنا) نصف الشهرية[٥] مواقف المخالفين[٦] لمبادرة الرئيس خاتمي فاغتنمنا عن تجشم عناء العمل نفسه، خاصة وانها لخصت في ذلك العدد مواقف المؤيدين أيضاً، كما حللت الموقفين وقدمت استنتاجها الخاص عن الأمر كله بعد ذلك[٧].

وكان أبرز ما في دراسة هذه الجريدة للحديث استعراض ايجابياته: تحسين صورة ايران أمام العالم، التحدث بالمنطق والتحليل بدلاً من الشعارات، و ــ وهو الأهم ــ التأثير على الرأي العام الأميركي، وسلبياته: ايجاد سوء فهم عن نية خاتمي بمفاوضة الحكومة الأميركية، عرض الحضارتين الغربية والأميركية وكأنهما كل واحد، عدم الاشارة الى سلبيات الحضارة الأميركية من ابادة الهنود الحمر وسلب أراضيهم والتمييز العنصري ونهب ثروات الشعوب وايجاد الفتن وشن الحروب الدموية ضد الأمم المستقلة، وكذلك الهفوات اللسانية التي وردت في الحديث مثل ابداء الرئيس أسفه لحجز الرهائن.

واستشهدت الجريدة في استعراضها للحديث ورد فعل المخالفين بكلام نقل عن السيد خاتمي في جلسة مغلقة، قال فيه: «أصاب القلق من حديثي مجموعتين. الأولى تضم من يخالفون المذاكرات والعلاقات مع الولايات المتحدة حقاً، والثانية تشمل أولئك الذين كانوا يسعون منذ سنوات في سبيل المذاكرات والعلاقات مع أميركا، وهم يتصورون اليوم أنني أخذت زمام المبادرة فلم أترك مجالاً لفعاليتهم. ولكنني أتعهد للمجموعتين بأنني لا أنوي دخول مفاوضات مع أميركا واقامة علاقات معها. فلتطمئن المجموعة الأولى، ولتحتفظ المجموعة الثانية باحتكار التفاوض والتساوم مع أميركا لنفسها»!.

ويبقى أن نشير الى أن أهم ما جاء به حديث السيد خاتمي، على مستوى وسائل الاعلام الايرانية: ان «اليسار» لم يهوش على «اليمين» لانتقاده رئيس الجمهورية والرد عليه، كما كان يهوش هذا «اليمين» على كل من يجرؤ على فتح فمه في أبسط انتقاد للشيخ الرفسنجاني، تحت شعار «مخالف هاشمي (رافسنجاني) مخالف للنبي!»![8].

ان السيد خاتمي، الداعي للمجتمع المدني، قد فاز بالثمرة الأولى لجرأته في طرح فكرته دون الحاجة الى وسيط، بتلقي سهام الهجوم ـــ لا مجرد النقد الموضوعي ـــ في صدره، وتحمله اياها دون قمع من جانبه.

اذن، فقد قالت ايران كلمتها «المعدلة»: بيننا وبين الولايات المتحدة جدار عال من عدم الثقة، بادرنا نحن الى ثلمه باقتراح التماس والتفاعل المباشرين بين الشعبين، وعلى الحكومة الأميريكية أن تثلمه من جانبها أيضاً.

فما سيكون مستقبل مساعي ترميم الثقة؟.

عندما طرح الرئيس خاتمي مبادرته قيل ان ولي العهد السعودي، الأمير عبدالله، كان توسط أثناء قيادته وفد بلاده الى مؤتمر القمة الاسلامي، بين البلدين، يعني: انه كان الباعث، بشكل ما، على حديث السيد خاتمي. وبعدما خفت الحديث العلني عن رسالة الرئيس خاتمي، في المعسكرين، يدور همس بأن ثمة اتصالات تجري بينهما فعلاً. فهل ستحتاج الخطوة التالية الى ثماني سنوات أخرى؟.

الهوامش

(١) اعتمدت الاسم العالمي، التاريخي، لهذا الخليج، دون تحميله اعتبارات سياسّية كما يفعل بعض كتابنا.

(٢) = مؤسسة أمن ومعلومات البلاد، وهي جهاز «الأمن» الداخلي لأكثر من العشرين سنة الأخيرة من عمر النظام الملكي.

(٣) رسالت، العدد ٣٤٨١، ١٢/١/١٩٩٨. (٤) اطلاعات، العدد ٢١٢٥٢، ١٣/١/١٩٩٨. وخطوط التاكيد مني.

(٥) وهي اللسان الرسمي لمنظمة «مجاهدي الثورة الاسلامية الايرانية» ـــ وهي غير منظمة «مجاهدي الشعب» المعارضة التي انحدرت لتصير آلة بيد عصابة بغداد. ان منظمة مجاهدي الثورة تنظيم يساري (على يسار «اليسار» المقبول ـــ ومن أبرز قادتها حمد سلامتي وبهزاد نبوي، وهما وزيران سابقان، كما قاد الثاني مفاوضات ايران تجاه الولايات المتحدة في قضية الرهائن.

(٦) «عصر ماه ـــ حديث رئيس الجمهورية ورد فعل مخالفيها ـــ العدد ٨٩ ـــ ٢٨/١/١٩٩٨.

(٧) الجريدة نفسها والعدد ـــ تحليل لرسالة رئيس الجمهورية الى الشعب الاميركي.

(٨) لا يهم هنا أن خاتمي لا يتمتع، ولم يكن يتمتع، بدعم مراكز النفوذ الدينية. ولكن يكفي أنه رئيس جمهورية، ثم أنه معمم، كما كان رفسنجاني، ويزيد عليه بانه «سيد». أي من نسل النبي. ولهذه المسالة أهمية خاصة في ايران

السوق من منظور تاريخي*

دانيال فسفيلد

لم ينشر كارل بولاني بحثاً متكاملاً في التاريخ الاقتصادي، رغم أنه كان محاضراً في موضوع «التاريخ الاقتصادي العام» في جامعة كولومبيا من ١٩٤٥ الى ١٩٥٣، كما أشرف على بحوث طلبة الدكتوراه في هذا الحقل، لكن كتاب معيشة الانسان، الذي حرره هاري بيرسون ونشر عام ١٩٧٧ بعد حوالي اثنتي عشرة سنة من وفاة بولاني، قد جمع بعض كتاباته المتفرقة في هذا الحقل. لقد كنت واحداً من حوالي ١٥٠ من هؤلاء الطلبة عام ١٩٤٧ عندما بدأت الدراسة بعد الحرب العالمية الثانية، وكنت متحمساً لفهم الاضطراب والهيجان الذي وسّم الماضي القريب، والاستفادة من هذا الفهم لصياغة عالم أفضل. وكان «التاريخ الاقتصادي العام» الذي يحاضر فيه بولاني يصبُّ مباشرة في صُلب هذا الاهتمام.

فمحاضراته كانت تقتفي وتتابع تطور المؤسسات الاقتصادية من أشكالها البسيطة للحياة الاقتصادية الى اقتصاد السوق الحديث. ولكنها كانت أكثر من مجرد عملية سرد للتطور. كانت أشبه بهجوم عميق على اقتصاد السوق، باعتباره وسيلةً تنطوي على خللٍ أساسي في تنظيم الحياة الاقتصادية، وفي إشباع حاجات الناس المادية والاجتماعية والنفسية. كانت المحاضرات في جملتها تأصيلاً تاريخياً قوياً للفكرة الأساسية التي انتظمت كتاب بولاني الشهير التحول العظيم[1] والتي تقول أن الجزء الأكبر من التاريخ الحديث يتمحور على جهود الناس لحماية أنفسهم والنظام الاجتماعي ـــ اعتماداً على

الدولة الى هذا الحد أو ذاك من تأثيرات قوى السوق الممزقة.

بدأ بولاني البحث المنظم في طبيعة الحياة الاقتصادية وبنيتها المؤسساتية في المجتمع القبلي. وكانت أطروحته الأولى تقول إن دافع التملك ــ نزوع الفرد للحصول على الأشياء المادية ــ لم تكن القوة الموجهة للحياة الاقتصادية في المجتمعات القبلية. إن الاقتصاد الشكلي الذي تتأسس عليه النظرية الاقتصادية الحديثة يقوم على فرضية نزعة التملك الفردي، لكن الاقتصاد الحقيقي للمجتمعات كان يقوم على أسس أخرى.

ضمن هذا السياق قدّم بولاني ثلاثيته الشهيرة عن أشكال التكامل الاقتصادي: المبادلة reciprocity، إعادة التوزيع، والتبادل السوقي. فكل واحد من هذه الأشكال كان ملازماً لنمط أوسع للتنظيم الاجتماعي: المبادلة (القائمة على المساواة) كانت ملازمة للثنائية في التنظيم، إعادة التوزيع يلازم التوجه نحو المركز، والتبادل السوقي يلازم الفردية الذرية. كان التكامل الاقتصادي القائم على المبادلة وإعادة التوزيع من ميزات المجتمع القبلي، في حين أن التبادل السوقي لم يصبح سائداً في الحياة الاقتصادية إلا مع نشوء الرأسمالية في التاريخ الحديث. إن الاقتصادات القبلية لم تعرف التبادل السوقي إلا في التعامل مع الغرباء من خارج القبيلة.

كانت دوافع المبادلة وإعادة التوزيع في المجتمعات القبلية تتمحور حول صياغة وإبقاء النظام الاجتماعي: أي ضمان استمرار وتعزيز العلاقات القائمة على القرابة والصداقة والتعاون ورئاسة القبيلة وغيرها من العلاقات الاجتماعية التي كان النشاط الاقتصادي مرتكزاً عليها. فإنتاج المنتجات واستهلاكها كان يجري ضمن بنى مؤسساتية توفر القنوات لتقديم الهدايا ودوران المنتجات من السلطة أو البنية القبلية المركزية واليها. أما تخصيص الموارد، بما فيها الجهد البشري، فإنه كان قائماً على مؤسسات اجتماعية وعلاقات اجتماعية على الضد من تخصيص الموارد بفعل قوى السوق التي لا علاقة لها بالاعتبارات الشخصية ــ كما هو الحال مع اقتصادات السوق الحديث.

كان ذلك أول درس عميق ثاقب النظر من محاضرات بولاني. إن حقيقة كون الحياة الاقتصادية ــ غير القائمة على السوق ــ كانت مرتكزة على المؤسسات الاجتماعية أدت الى بروز دوافع وقيم مختلفة عن الدوافع والقيم المرتبطة باقتصاد السوق. فالبنى المؤسساتية هي، بمعنىً ما، مستودعٌ ومكمن لقيم النظام الاجتماعي. فتربية المجتمع للناشئة لاحتلال موقعهم في النظام الاجتماعي كانت منصبّة على المعايير الأخلاقية

والقيم الخُلقية المتجسدة في البنية المؤسساتية. فالمنتجات تنطوي على «قيمة» ليس لكون هذه القيمة نتيجة تثمين للمنتجات في السوق بل لأن المنتجات جزء من شبكة العلاقات الاجتماعية والعضوية. وكذلك الوظائف والمهن، فهي تنطوي على «قيمة» ليس بفضل مردودها النقدي بل بفضل موقعها في البنية المؤسساتية والنظام الذي يحكم المنزلة الاعتبارية وشرف هذه المنزلة. لقد كان بولاني مهتماً في هذه المحاضرات بإبراز التباين بين قيم أنظمة المجتمعات غير السوقية والقيم المادية النقدية لاقتصاد السوق الحديث.

ونبه بولاني أيضاً إلى الفصل بين اقتصاد الكفاف subsistence economy والاقتصاد القائم على المنزلة الاجتماعي status economy للمجتمع القبلي والذي سمّاه بالاقتصاد المنتحل pseudo - economy. وكمثال على ذلك أشار الى تجارة الكيولا(٢) kula في جزيرة تروبريان(٣)، والتوزيع السخي للهدايا بين بعض قبائل الهنود الحمر في الساحل الشمالي الغربي للولايات المتحدة، وكذلك الجمعيات السرية الشائعة في كل مكان.

احتفالات إعادة توزيع الأشياء. وفي حالات أخرى، كان الحصول على المنزلة والجاه والاحترام يتم من خلال الاشتراك في الوظائف المرتبطة بالمؤسسات التراتبية. أما إنتاج المواد الأساسية (القوت والملابس والسكن) فهو من وظيفة مؤسسات أخرى قد تتصف بدرجة عالية من المساواة رغم أن النظام الذي يتحكم بالمنزلة الاجتماعية يقوم على التراتب.

وكان ذلك الدرس الثاني العميق لبولاني. فالندرة والوفرة مرتبطتان بالعلاقة المؤسساتية ما بين ضرورات العيش والمنزلة الاجتماعية. فاستهلاك المنتجات المرتبطة بضرورات العيش يتحدد بطاقة الناس على استهلاكها واستيعابها. وبهذا المعنى، رغم أن بولاني لم يلجأ الى استخدام مصطلح «المنفعة الحدية» فإن الاكتفاء أو الاشباع يتناقص مع كل وحدة اضافية من هذه المنتجات، وبالتالي فإن هناك حداً لتطور الاشباع. مقابل ذلك فإن المنزلة لا يحدها أي ضابط مادي لأنها تعتمد على موقع الشخص مقارنة بالأشخاص الآخرين. فالمرء يستطيع دائماً أن يزيد من الفجوة التي تفصله عمن هم في منزلة أدنى في السلم التراتبي، أو يقلص من هذه الفجوة، وقد يتجاوز الذين هم في مرتبة أعلى منه.

يمكن القول، إذاً، إن فصل استهلاك الفرد من المنتجات عن منزلته الاجتماعية، كلياً أو جزئياً، يجعل إنتاج وفرة من المنتجات الضرورية أمراً ممكناً لأن نمط التوزيع قائم على

المساواة الى هذا الحد أو ذاك، أما الواقع في اقتصاد السوق الحديث فهو أن المنزلة تعتمد على نجاح الشخص في السوق، وعلى مراكمة الثروة كمؤشر على هذا النجاح. وتتخذ المنتجات الاستهلاكية الصفات المرتبطة بالمنزلة الاجتماعية والجاه، وتصبح جزءاً من النزوع نحو المزيد من الجاه والأبهة. وبما أن هذا النزوع غير قابل للاشباع فإن المرء لا يستطيع مراكمة ما يكفي منهما. فالمأكل والملبس والمسكن ــ وهي منتجات استهلاكية ــ تصبح نادرة قياساً بالطلب، غير القابل للاشباع، عليها. اعتماداً على هذه الحجة استطاع بولاني تبيان أن الفرضيتين الأساسيتين لعلم الاقتصاد الحديث (فرضية الندرة وفرضية نمط سلوك التملك) ليستا كامنتين في طبيعة أو في سيكولوجية الانسان، بل انهما مشتقتان من أساليب مأسسة النشاط الاقتصادي.

وكان هذا ثالث درس عميق لبولاني. فبالامكان تغيير العالم، ذلك لأننا غير مرغمين باسم الطبيعة البشرية أو النظام الطبيعي للعيش في عالم الندرة وفي مجتمع يحثُّ على الامتلاك والمادية، فما هذه إلا شروط وأوضاع لبنية التنظيم الاجتماعي ومسار تطورها التاريخي.

اعتمد بولاني كثيراً على كتابات Richard Thurnwald في تصوره لتطور المؤسسات الاقتصادية من اقتصاد الصيد والتقاط الثمار الى الامبراطوريات القديمة. لن أعرض التفاصيل هنا، إلا أن من المناسب إبراز بعض الأفكار الأساسية. فهناك خط متواصل في التطور يمتد من اقتصادات الصيد والالتقاط، القائمة إلى حد كبير على العلاقات الاقتصادية التبادلية (المقايضة)، الى العلاقات القائمة على إعادة التوزيع في الامبراطوريات القديمة. فعلى سبيل المثال، يستطيع الصيّادون الذكور التحول الى رعاة متنقلين في حين تستمر النساء في نشاط الالتقاط. أو يمكن للبستنة gardening أن تتطور من خلال الالتقاط. وباختصار، فان بالامكان تصور تنوع كبير في الجمع بين أنشطة مختلفة.

كان التطور الأساسي، في نظر بولاني، غزو القوام التي على البستنة للرعاة الرحل، هذا التطور هو الذي جعل الزراعة القائمة على الحراثة ممكنة، وكذلك من خلال التوليف بين قوة الحيوان وتكنولوجيا البستنة. فنشأ من خلال ذلك مجتمعات تراتبية قائمة على إعادة التوزيع حيث تقوم الارستقراطية باستهلاك الفائض الاقتصادي الزراعي للفلاحين التابعين. وأصبح هذا الفائض قاعدة لقطاع تجاري ــ حضري يقوم الى حد كبير على تجارة المنتوجات الكمالية للأرستقراطية.

وفي تلك الحضارات الأولى تطور إيقاع تاريخي. فقد أدت مَرْكَزة السلطة الى ظهور السلالات الامبراطورية الحاكمة، التي كانت تنهار فتصبح السلطة لا مركزية يتقاسمها حكام الأقاليم، ومن ثم يعاد تجميع هذه السلطة اللامركزية في امبراطورية ذات مركز موحد وتحت قيادة قائد آخر أو سلالة جديدة من الحكام. وباختصار، فالامبراطورية تتحول الى الإقطاعية التي تتحول بدورها الى الامبراطورية لتنتهي مجدداً الى الاقطاعية. هكذا كانت الدورة التاريخية. ولكن بغض النظر عن البنية السياسية، فإن هذه الأنظمة كانت قائمة على استحواذ الارستقراطية على الفائض الاقتصادي للفلاحين التابعين، وإعاشة المراكز الحضرية التي كانت مشغولة الى حد كبير في تجارة المنتجات الكمالية عبر البلدان. لقد كان هذا نمط اقتصاد كل العالم المتحضر، مع بعض الفروق، ذلك العالم الذي امتدّ من أوروبا الغربية مروراً بحوض البحر الأبيض المتوسط الى جنوب آسيا والشرق الأقصى حتى اليابان. وقد استمر هذا الاقتصاد حتى القرن الخامس عشر. فباستثناء أوروبا الغربية توقف التطور عند هذا الحد. فلم تكن هناك قوى داخل الاقتصاد أو السياسة قادرة على تحويل المراكز الحضرية نحو اقتصاد السوق لتكون هذه المراكز العنصر الرابط والمُوحّد للنظام الاجتماعي، وذلك من خلال استبدال بنية إعادة التوزيع redistributive structure لما كان الفلاحون يقدمونه للسيد أو الاقطاعي. إلا أن التغيّر في أوروبا الغربية لم يأتِ كنتيجة بسيطة لعملية تطور طبيعي. فلقد مر توحيد ودمج اقتصاد أوروبا الغربية المتمركز على علاقات السوق بمرحلة من التطور المعقد. فمن ناحية، كان النظام الاقطاعي في أوروبا الغربية مختلفاً عن حضارات الشرق: ففي أوروبا الغربية كانت العلاقات القرابية لا تُشكّل إلا عنصراً ضعيفا لا أهمية له في البنية الاجتماعية. فبعد الهجرة الواسعة للقبائل، عشية نهاية الامبراطورية الرومانية، استبدلت العلاقات العصبوية، الى حد كبير، بقَسم الولاء. لم يحدث مثل هذا التحول في حضارات الشرق، إذ بقيت علاقات القرابة والقبيلة والعشيرة محافظة على قوتها كعناصر موحدة للبناء الاجتماعي. ففي أوروبا الغربية، عندما ضعفت الروابط الاقطاعية واختفت، لم يبقَ أمام هيمنة قوى السوق أية قوة أخرى.

لقد أشار بولاني في دراسته الى كل الأسس لنهوض وصعود الرأسمالية: فحركة النهضة والاصلاح الديني جرّت الى تغيرات في منظومة القيم المستحسنة والمقبولة ثقافياً، واكتسبت نزعة التملك مشروعية أخلاقية. وساهمت الأساليب الحربية الجديدة في تمكين الأوربيين من السيطرة على المراكز التجارية في شرق البحر الأبيض المتوسط

أثناء الحروب الصليبية وبعدها. وجرى، الى حد كبير، تمويل التحالف السياسي الاقتصادي بين الملوك والتجار والفلاحين ضد طبقة النبلاء، أصحاب الأرض، من أرباح التجارة مع الشرق. واستهدفت السياسات الوطنية ترويج التجارة والتبادل التجاري والاستكشاف من أجل الكسب، بالنسبة للتجار، ومن أجل الدخل، بالنسبة للملوك.

في ثنايا تلك الدراسة اهتمام بدور النشاط الحكومي في تحطيم القيود الاقطاعية (الفيودالية) على توزيع واستعمال رأس المال والأرض والعمل يساوي الاهتمام بدور قوى السوق المؤثرة. فانصبّ بحثه على ركنين أساسيين: استخدام نشاط الدولة لدعم نمو أسواق لعناصر الانتاج، ومساعدة اقتصاد السوق النامي في تحطيم المؤسسات الفيودالية الاقتصادية والسياسية. ويمكن القول أن نهوض اقتصاد السوق كان تطوراً ثورياً «مصطنعاً»، يؤججه الطمع والقوة. وكان هذا هو الدرس الخامس الكبير الذي خرج به بولاني.

كان العنصر الأساسي في صعود الرأسمالية يكمن في تحويل الأرض والعمل ورأس المال الى سلع قابلة للتداول في السوق. فقد حَررت الأرض من القيود الفيودالية الى كبير من خلال النشاط الحكومي أثناء الثورة الزراعية. وجرى تحويل رأس المال، القائم على أرباح التجارة والغزو، الى المراكز التجارية لأوروبا وخصص لاستخدامات توفر فرصة كبيرة للربح. وفي هذا التطور كان العمل العنصر الأخير، الذي دخل سوق عناصر الانتاج، ولم يكتمل سوق العمل إلا مع بدايات القرن التاسع عشر في انكلترة. فالعمال الذين طردوا من الأرض، أثناء الثورة الزراعية التي وفرت الوسيلة للزيادة الكبيرة في عدد السكان، لم يجدوا مكاناً آخر يذهبون اليه سوى سوق العمل المتنامي.

لقد أكد بولاني على أن الأرض ورأس المال والعمل هي العناصر الثلاثة الضرورية في بناء المجتمع. فهي ضرورية لرزق الناس، ولوظيفة العائلة، والمجموعات المدنية التي ينتمي إليها الناس، وكذلك لديمومة النظام الاجتماعي. وعندما تتحول هذه العناصر الى سلع (سلع زائفة في مصطلح بولاني) فإن كامل النظام الاجتماعي، بما فيه الأفراد والعائلة والجماعات التي ينتمي اليها الفرد والقيم والمعايير الأخلاقية، تتوطن كلها داخل قوى السوق وتخضع في الوقت ذاته لهذه القوى. وكان هذا هو الدرس الأخير الكبير لبولاني.

وهنا تنتهي محاضَرات بولاني عن التاريخ الاقتصادي. لقد قامت البشرية بالتحول من المجتمع الى الاقتصاد، من الصيد والتقاط الثمار الى التجارة والصناعة، ومن العلاقات الاجتماعية والمقايضة وإعادة التوزيع الى فردية ومادية السوق. لقد اتسمت

عملية التحول بزيادة كبيرة في الثروة المادية إلا أن هذه الزيادة كانت قائمة على صفقة فاوستية. فقد أبرز السوق مجموعة من الدوافع والقيم والمعايير الخلقية لتحل محل علاقات العصبة، والصداقة، والتعاضد الاجتماعي التي اقترنت ببدايات عملية التحول.

لقد أثارت محاضرات بولاني في التاريخ الاقتصادي أسئلة ذات دلالات عميقة عن طبيعة المجتمع الحديث وشروط الوجود الانساني، وشكلت هجوماً على فلسفة «دعه يمر دعه يعمل» [عدم تدخل الدولة في الشؤون الاقتصادية] وعلى منطق هذه الفلسفة. كما وفرت المبرر لتدخل الدولة في الشؤون الاقتصادية لحماية المجتمع من عواقب السوق المدمرة، ومن أجل توزيع الدخل والثروة والقوة وذلك بوعي اجتماعي وعلى أساس من المساواة. لقد كانت نظرته للماضي والحاضر. نظرة راديكالية حقاً.

وتبقى مؤلفات بولاني مناسبة لزماننا. ويضحك المرء عندما يسمع تمجيد الرئيس بوش ومحافظي الحزب الجمهوري للسوق الحر وما يسمونه «القيم العائلية»، ذلك لأن أكبر ما يعرض القيم العزيزة عليهم للخطر هو قوى السوق، في حين أن تدخل الدولة الذي يزدرونه ليس إلا جهداً يرمي الى حماية الناس والعوائل والجماعات البشرية الأخرى من آثار قوى السوق هذه. وربما يكون هذا هو أهم الأفكار التي تنتظم مؤلفات بولاني.

ترجمة مصباح البياتي.

الهوامش

* قدمت هذه الورقة في المؤتمر العالمي الرابع حول كارل بولاني، في جامعة كونكورديا، مونتريال، كندا، الذي انعقد ما بين ١١-١٤/ ١١/ ١٩٩٢. وكاتبها Daniel R. Fusfeld أستاذ الاقتصاد المتقاعد في جامعة ميشغان. أما Karl Polanyi (١٨٨٦-١٩٦٤) فكان عالماً من الطراز الرفيع، كرس جهده لدراسة موقع الاقتصاد في المجتمع، أي العلاقة بين الترتيبات الخاصة بالانتاج وامتلاك المنتجات وبين الترتيبات القرابية والدين وأنظمة الثقافة. لا تعير النظرية الاقتصادية الحديثة اهتماماً بمثل هذه العلاقة، ولذلك اقترح بولاني توصيفها تحت عنوان «الاقتصاد الحقيقي» substantive economics تمييزاً عن «الاقتصاد الشكلي» formal economics. وفي توكيده على هذا التوصيف، كان يهدف الى ابراز الاستعمالات المختلفة لمصطلح الاقتصاد وما هو اقتصادي، وتجنب الوقوع في شرك إسقاط الاقتصاد الصناعي الحديث على الاقتصادات البدائية والقديمة وكأن هذه الأخيرة ليست إلا صوراً وخامات أولية للاقتصاد الحديث. إن «الاقتصادي»، من وجهة نظر بولاني، مرادف لما هو «مادي». فعند الحديث عن الجوانب الاقتصادية للمجتمع، وخاصة البدائية والقديمة، فإن النظر ينصرف الى جملة الوسائل والترتيبات المتوفرة للحصول على الأشياء المادية وسبل إنتاجها واستعمالها للاستهلاك الشخصي أو الجماعي. وبهذا المعنى فإن جميع المجتمعات، بغض النظر عن حجمها والتكنولوجيا التي تمتلكها ومؤسساتها السياسية، تضم

نظاماً اقتصادياً ـــ أي مجموعة من الترتيبات البنيوية لتوفير المعيشة. مقابل ذلك فإن المعنى الشكلي لـ«الاقتصادي» يشمل الميل الى الاقتصاد أو التوفير ـــ الاختيار ما بين البدائل لغرض تعظيم الانتاج الى أقصى حد وكذلك الارباح والكسب من عملية التبادل، أو التقليل من كلفة إنتاج الاشياء ضمن سياق «الندرة» المادية بالنسبة لما يسميه الاقتصاديون الشكليون الطلب على المواد النادرة. إن مفهوم الاقتصاد الحقيقي، الذي ينتظم دراسات بولاني، ساهم كثيراً في دمج دراسة الاقتصاد مع دراسة المجتمع. (المعلومات الواردة في هذا الهامش مستقاة من الانسيكلوبيديا العالمية للعلوم الاجتماعية International Encyclopidia of the Social Sciences، الجزء ١٢، ماكميلان وفري بريس، ١٩٦٨. يحاول المترجم استقصاء بحث قصير لبولاني عن «المتاجرة بدون سوق في زمن حمورابي» نشره كفصل في كتاب عام ١٩٥٧ حرره وبعض زملائه، بغية ترجمته الى العربية).

(١) ـــ The Great Transformation نشر الكتاب لأول مرة عام ١٩٤٤ وأعيد نشره عام ١٩٥٧. (المترجم).

(٢) تبادل احتفالي للهدايا والهبات، شائع الاستعمال بين سكان جزر المحيط الهادي. وكان الغرض من هذا الاحتفال التبادلي هو تاسيس وتعزيز العلاقات بين الجزر، ويعود أصل هذا الاحتفال الى ممارسات الشعوب الميلانيزية. وهناك ممارسات مماثلة عند بعض قبائل الهنود الحمر في أمريكا الشمالية. راجع مورس غودولييه، «لغز الهبة»، ترجمة رضوان ظاظا، النهج، العدد ٤٨، خريف ١٩٩٧، ص٤٧–٥٤. (المترجم).

(٣) جزر تروبريان، مجموعة من الجزر المرجانية في بحر سليمان، شمال القسم الشرقي لغينيا الجديدة والذي يشكل جزءاً من بابوا غينيا الجديدة. (المترجم).

كيف تتعامل أمريكا مع قضية الإرهاب

محمد صالح ثاميدي

شهد العالم في السنوات الأخيرة موجة من أعمال العنف غاية في الخطورة في مختلف مناطق العالم واستهدفت أهدافاً مختلفة راح ضحيتها أناس أبرياء كثيرون، وغدا العنف اصطلاحاً ذا صيت كبير وشغل حيزاً كبيراً في الصحافة العالمية، كما أصبح كابوساً يخلف الرعب المستمر في المجتمعات المختلفة وخاصة بعد دخول الشاشة الصغيرة كل بيت، فهي تنقل صور الأحداث المروعة وآثارها وضحاياها بين أنقاض البنايات المدمرة أو على أرصفة الشوارع أو في وسائل النقل المتفجرة وفي جميع أنحاء العالم بسرعة متناهية. كما أصبح العنف ظاهرة عالمية لا تتحدد في منطقة أو دولة أو قارة وحدها... ويمارس بأساليب مختلفة وتستعمل فيها أحدث الابتكارات العلمية والتقنية بما فيها الأسلحة الكيمياوية كما حدث في أنفاق مترو طوكيو في اليابان سنة ١٩٩٥... أو تستعمل الرقائق الكومبيوترية والشيفرات السرية... وبات القائمون بالعنف ينتمون الى جنسيات عديدة والى عقائد وديانات مختلفة.

أول عمل عنفي منظم حدث في سنة ١٦٠٥ عندما استخدم غاي فوكيس برميلاً من المتفجرات لتفجير البرلمان البريطاني. أما اليوم فيمكن لجهاز تفجير صغير في حقيبة جيب أن يحقق التاثير نفسه وبأضعاف مضاعفة، وخاصة أن معلومات صناعة المتفجرات وأسلحة الإبادة الشاملة متيسرة على شبكة الانترنيت الدولية.

موقف القانون الدولي من ظاهرة العنف

يتفق فقهاء القانون الدولي على أن ظاهرة العنف الحالية في العالم تتحدد بثلاثة أنواع من حيث طبيعتها وأن معيار التحديد في تقسيم الظاهرة هو الباعث الحقيقي «الإرادة القصدية» من تنفيذ الفعل وتحقيق النتيجة المبتغاة من تنفيذ الفعل وهي:

أولاً: الأعمال الإرهابية «وهي استهداف ضحية بريئة والقضاء عليها بأساليب العنف وبدوافع دنيئة بهدف خلق الرعب والهلع في المجتمع» ويقتصر الباعث الجنائي على انصباب الجاني في تنفيذ فعله الجرمي وتحقيق الهدف بدوافع وغايات دنيئة، ويمكن أن تكون الغايات سياسية أو اجتماعية أو عقائدية أو ابتزازية. . . فإذا تحقق الباعث وفق هذا المنظور اعتبرت الجريمة إرهابية سواء كان الهدف فرداً أو جماعة أو مؤسسة اجتماعية.

كما أن تحديد طبيعة الفعل وبواعثه أمر في غاية الأهمية للتفريق بين الجريمة العادية والجريمة الإرهابية. فمثلاً سقوط طائرة مدنية وقتل ركابها بسبب خطأ الطيار أو خطأ راكب حمل مادة حارقة في حقيبته دون قصد يختلف تماماً عن انفجارها في الجو بسبب قنبلة مزروعة. . فالحادثتان سببتا موت وإبادة الركاب. . . لكن الأولى كانت بسبب خطأ غير مقصود والثانية كانت نتيجة عمل إرهابي. . . ولا يمكن الخلط بين الحادثتين رغم نتائجهما المتشابهة، لأن بواعثهما مختلفة.

ثانياً: الجرائم الاجتماعية الخطيرة والتي ترتكب نتيجة بواعث وسلوك انحرافي نابع من مجموعة العوامل والظروف الاجتماعية والاقتصادية والنفسيّة السلبية التي تكمن في بعض المجتمعات البشرية، وتؤثر بشكل مباشر على الفرد فيكون منحرفاً عن السلوك العام للمجتمع، ويرتكب أعمالاً همجية خطيرة توقع ضحايا مدنية. ويرى فقهاء علم الإجرام الحديث «بأن المجرم هو ابن بيئته». إن السلوك الانحرافي نابع من مجموعة الظروف المحيطة به، فيقدم على ارتكاب فعل إجرامي ذي نزعة إرهابية. وفي أكثر الأحيان تعزى أسباب الباعث الى العوامل النفسية والمرضية مثل انفصام الشخصية (الشيزوفرينيا) أو الكآبة الحادة. . . الخ.

ثالثاً: العنف المشروع: ويمكن لنا الإشارة بهذا الصدد الى ما ورد في ديباجة ميثاق حقوق الإنسان العالمي الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٠/١٠/١٩٤٨ والمتضمن أن «من الضروري أن يتولى القانون حماية حقوق الإنسان، لكي لا يضطر الإنسان آخر الأمر الى التمرد على الاستبداد والطغيان والظلم». ويقصد النص أن يكون هناك نظام سياسي تسوده العدالة الاجتماعية ومبدأ المساواة أمام القانون بصرف النظر عن العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأي السياسي أو المعتقد أو الأصل الوطني أو المركز

الاجتماعي أو الثروة. أما وجود أنظمة سياسية يسودها الظلم والاستبداد والطغيان والاضطهاد القومي وسياسة الفصل العنصري والتطهير العرقي ضد الشعوب والقوميات والاثنيات والمذاهب الدينية واغتصاب الحقوق الفردية والجماعية وعدم تكافؤ الفرص والمساواة أمام القانون في الحقوق والواجبات وعدم وجود نظام لتوفير حرية الرأي والتعبير وضمان الحريات العامة أمام الشخصية، كل هذه الأسباب تدفع الأفراد أو أبناء القوميات أو المجموعات البشرية للنضال من أجل حقوقهم المغتصبة وبجميع الوسائل النضالية المتاحة. وإن هذه الأسباب بحد ذاتها تكون دوافع أساسية لبروز حركات التحرر الوطني والقومي التي تهدف بالأساس لإزالة الأنظمة الغاشمة والمستعمرة والمحتلة، وإعادة السلام والطمأنينة للمجتمع وفق أحكام ميثاق الأمم المتحدة والعهود الدولية التي ترمي بالأساس الى اختفاء العدالة الاجتماعية وحماية الحقوق الأساسية للأفراد والجماعات.

وهذا النوع من النضال التحرري مشروع وفق أحكام وقواعد القانون الدولي، ولا يمكن اضفاء الصفة الإرهابية على النضال بأي شكل من الأشكال. . . ويمكن أن تسرد عشرات النصوص الواردة في ميثاق الأمم المتحدة والاتفاقيات والقرارات الصادرة عن الجمعية العامة والمواثيق الدولية النافذة ومنها:

١ـ أحكام ميثاق الأمم المتحدة (١، ٣، ٧٣). . . والتي تقضي بحق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها واحترام حقوق الإنسان للأفراد والشعوب والأمم المستعمرة كهدف أساسي لمقاصد الأمم المتحدة.

٢ـ قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة المتخذ في دورتها العشرين والخامسة والعشرين والذي يقضي «بشرعية نضال الشعوب الواقعة تحت السيطرة الاستعمارية من أجل التمتع بحقها في تقرير المصير والاستقلال بكل الوسائل الضرورية الموجودة تحت تصرفها».

٣ـ قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة المرقم ٣٠٧٠ والقاضي «بأن الكفاح يمكن أن يجري بكافة الوسائل الممكنة بما فيها النضال المسلح».

٤ـ العهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية الصادر عن الأمم المتحدة في سنة ١٩٦٦ وتقضي مادته الأولى بما يلي: «لجميع الشعوب حق تقرير مصيرها بنفسها، وهي بمقتضى هذا الحق حرة في تقرير مركزها السياسي وحرة في تحقيق إنمائها الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والحضاري».

٥ـ الاتفاقية الدولية لحقوق الأقليات في الجزائر سنة ١٩٧٦.

٦ـ الاتفاقية الدولية الخاصة بإزالة الاستعمار والاحتلال في سنة ١٩٥٦.

٧ـ المعاهدة الدولية الخاصة بمعاقبة مرتكبي إبادة الجنس البشري (الجينوسايد) في سنة ١٩٤٩.

الإرهاب وحركات التحرر ونضال الشعوب من أجل الحرية

وفق أحكام القوانين الوضعية والسماوية، أصبح واضحاً بأن للشعوب وحركاتها التحررية وقياداتها السياسية الحق في النضال من أجل مقارعة الظلم والاستبداد المفروضين من قبل الأنظمة الغاشمة، وإن حركات التحرر تستند في جوهرها على المفاهيم الإنسانية والقيم الخلقية الأصيلة في المجتمعات البشرية. كما أن للنضال أساليبه المشروعة والمحددة. . . وبقدر ما تكون الأهداف النضالية والتمردية مشروعة ونبيلة وتستند الى المبادئ وللقيم الأخلاقية الواردة في المواثيق والاتفاقيات والعهود الدولية، يجب أن تكون الأساليب والوسائل النضالية مشروعة بالقدر نفسه أيضاً، وأن تكون الوسيلة مشروعة للوصول الى هدف مشروع، وخاصة إذا امتد الأذى الى الضحايا المدنيين الأبرياء مثل تفجير طائرة أو حافلة أو قتل الأطفال والنساء. كما أن حصر النضال بالأهداف المدنية وبث الذعر والهلع في المجتمع دليل كاف على إفلاس تلك الحركات والاحزاب سياسياً وفكرياً وجماهيرياً، لأن تلك الحركات قد جاءت بالأساس وفق ضرورات إنسانية الى الساحة كونها تقارع الظلم وتناضل من أجل القيم الرفيعة الواردة في مواثيق حقوق الإنسان وحق تقرير مصير الشعوب وإزالة الاستعمار ومكافحته.

وفق المعايير السابقة فإن هناك فرقاً شاسعاً بين حركات التحرر ونضال الشعوب من أجل الحرية وبين الأعمال الإرهابية والعنف غير المبرر ضد الأهداف المدنية.

أمريكا والإرهاب الدولي

كونها قد فرضت نفسها وصية على البشرية جمعاء في الوقت الحاضر تتعامل أمريكا مع قضية الإرهاب في العالم وفق المفهوم الذي يتلاءم مع مصالحها الحيوية، واتخذت من الإرهاب حجة أو ذريعة أو سلاحاً ضد الأنظمة والدول وحركات التحرر. وتفرض جميع الإجراءات العسكرية والأمنية والعقوبات بحجة معاقبة «الإرهابيين» في حين أنها لا تملك تلك المقومات الإنسانية للقيام بهذا الدور الخطير لأسباب عديدة تتعلق بطبيعة نظامها، ونظرته الفلسفية تجاه حركة التاريخ، وتطور المجتمعات البشرية، وضرورات الحياة والقيم البشرية، والخصوصيات الاجتماعية والاقتصادية اضافة الى الأحداث والقضايا التي تعاني

منها البشرية الآن، حيث تتعامل وفق نظرة شمولية نابعة من المصالح الاقتصادية ونزعة التحكم في العالم ونهب ثروات الشعوب، هذه النزعة التي تبتعد عن جوهر الإنسانية وقيمها المتأصلة. فالوصي بمثابة القاضي والحاكم ويجب أن يتمتع بأهلية العدالة والاستقامة الموضوعية والجدارة، وإلا فإنه يلحق الأضرار الفادحة بالمجتمع ويمكن لنا أن نحدد الخطوط العامة للسياسة الأمريكية تجاه مفهوم الإرهاب بما يلي:

أولاً: الخلط المقصود والمتعمد بين نضال الشعوب المستعمَرة وبين الإرهاب كظاهرة إجرامية، وان الهدف من هذا الخلط هو اتخاذ الموقف المناسب من تلك الحركات وفق مصالحها الحيوية. فإذا كانت تلك الحركات ذات موقع نضالي معاكس لمصالح أمريكا وحلفائها من الدول والأنظمة، تتهم أمريكا نضالها بالإرهاب. أما إذا كانت تلك الحركات في موقع ملائم مع مصالحها تعتبرها حركة إنسانية وتمدّ يد العون والمساعدة لها. وهناك أمثلة كثيرة على ذلك:

١ـ نضال الشعب الفلسطيني ضد الاحتلال الإسرائيلي. فإسرائيل تقوم يومياً بانتهاكات وأعمال غير مشروعة تتنافى مع جميع القيم البشرية. . . إلا أن أمريكا مصرة على دعم إسرائيل والوقوف ضد مصالح الشعب الفلسطيني. . . ولا تمر مناسبة واحدة، إلا وتعلن عن مساندتها الكاملة لإسرائيل سواء في احتلالها الأرض الفلسطينية أو قتل أبنائها المصلين في الحرم الإبراهيمي. . . أو عملية الاستيطان، وتستعمل حق الفيتو ضد كل مشروع قرار يدين إسرائيل.

٢ـ موقف أمريكا تجاه القضية الكردية، فإنها تساند أكراد العراق (٥) ملايين، وتعيّن مسؤولاً في وزارة الخارجية لربط القضية بمصالحها الاستراتيجية في حين تقف ضد أكراد تركيا (٢٠) مليون وتتهم نضالهم بـ«الإرهاب» وتدعم تركيا في جميع المجالات العسكرية والاقتصادية والأمنية للوقوف ضد تطلعات هذا الشعب المحروم حتى من التحدث بلغته الكردية وإنكار هويته القومية.

ثانياً: الإصرار على عدم التفكير بشكل جدي في الأسباب الحقيقية لظاهرة العنف، لأن ذلك يتعارض مع مصالحها الحيوية ونزعة التحكم في العالم التي تتطلب التوازن بين مراكز القوى للأصدقاء والأعداء.

ثالثاً: الموقف الازدواجي والكيل بمكيالين إزاء القضايا الدولية بما فيها قضية الإرهاب في العالم.

رابعاً: اتخاذ قضية الارهاب سلاحاً لضرب الدول والأنظمة التي تتعارض أهدافها مع

المصالح الأمريكية وبالتالي اتهامها برعاية الإرهاب ومحاربتها وفرض العقوبات الدولية أو الأمريكية عليها تحت هذه الذرائع. مثل الهجوم العسكري على ليبيا في ١٥ نيسان ١٩٨٦ بتهمة امتناعها عن تسليم مواطنين ليبيين مشتبه بهما في انفجار طائرة مدنية في أجواء لوكربي في اسكتلندا في سنة ١٩٨٣.

خامساً: اعتبار الارهاب ظاهرة مشرقية نابعة من المجتمع الإسلامي والعربي، وتوجيه الرأي العام الأمريكي بهذا الاتجاه بغية وضع الذرائع والمبررات اللازمة للتدخل في شؤون الدول والأنظمة وحركات التحرر في منطقة الشرق الأوسط وآسيا، والضغط عليها بغية مسايرتها وفق مصالحها السياسية والاقتصادية، في حين أن الارهاب ظاهرة يومية في المجتمع الأمريكي، حيث بلغ مجموع السجناء في أمريكا مليون ونصف مليون سجين في سنة ١٩٩٦ وأن ٤٧٪ منهم مدانون عن جرائم القتل والاغتصاب والسرقة وتجارة المخدرات والقتل المنظم من قبل العصابات والمافيا وفق التقرير الصادر عن الدراسات الفيدرالية.

كما أن الشعب الأمريكي بدأ يصاب بدهشة كبيرة عندما ألقت الشرطة القبض على الشاب الأمريكي الأشقر ذي العينين الزرقاوين (تيموثي ماكفاي) أحد المساهمين في حرب الخليج والحائز على وسام بطولي فيها، بتهمة تفجير بناية المكاتب الفيدرالية في (أوكلاهوما ستي) بتاريخ ١٩ نيسان ١٩٩٥ بواسطة شاحنة مفخخة بواسطة ٤٨٠٠ رطل من المتفجرات، وراح ضحية الحادث ١٦٨ شخصاً أكثرهم من أفراد مكتب التحقيقات الفيدرالية (F.B.I). وظهرت حقيقة واضحة للأمريكيين المذعورين أن الشاب عضو في حركة الوطنيين الأمريكيين المنتشرة في نحو ٤٠ ولاية أمريكية، وحسب تقارير المحققين أن عدد أعضاء الحركة يتجاوز مئة ألف مواطن أمريكي. ولكي يحفظ الإعلام الأمريكي ماء وجهه، بدأ باتهام الشاب بأنه مجنون أو معتوه... إلا أن ذعرهم اشتد عندما شاهدوا الشاب على الشاشة الصغيرة وهو متماسك ليقول «بأنه منفذ العملية وأنه أراد قتل أكبر عدد من الأشخاص لتوجيه إنذار الى الحكومة الأمريكية».

والأكثر من ذلك أن الادعاءات الأمريكية تجاه الإرهاب قد تبددت وانزوت في شخصية المجتمع الأمريكية الذي يتعاطى الإرهاب منذ زمن بعيد، وان الخرافة قد أصبحت حقيقة وانقلب السحر على الساحر بحادث أوكلاهوما ستي وانفجار قنبلة في ساحة أولمبياد اطلنطا عام ١٩٩٦ عندما لم يظهر المتهم عربياً أو مشرقياً أو مسلماً... وإنما هو أمريكي أبيض احتفل بتفجير قنبلة في الذكرى الثانية لمقتل العشرات من أتباع (ديفيد كورتش) على يد قوات F.B.I لفض اعتصامهم في مدينة ريكو بولاية تكساس.

متابعة

«جهاز المخابرات في الحضارة الإسلامية»

د. عدنان عباس

الدكتور الاعرجي، وهو يقدم لنا درساً من التاريخ لربطه بالواقع المر الذي نعيشه الآن، على صواب في الافصاح عن سر اهتمامه بهذا الجانب المظلم قائلاً: «إنَّ الظلمة من شأنها ان تلفت النظر في مهرجان الضوء اكثر مما يلفت الضوء نفسه» ـــ ص٨. وكتابه الجديد* يضعنا امام مرآة انفسنا متسائلاً معنا: الى اين نحن ماضون؟ ولماذا كل هذا الغث اللا انساني؟ سؤال مشروع، جوابه كامن في كل شيء. الكتاب لا يدخل ايضاً في باب الدراسات الايدولوجية او الفقهية أو التنظير المعهودة، انما هو طرح لأحد جوانب التاريخ (المخابراتي) منذ القرن السابع الميلادي مروراً بالعصور الاسلامية المختلفة، وإنْ ترك المؤلف مرحلة من مراحله في الاندلس. هو طرح للاستنتاج واستخلاص الدروس.

يتكون الكتاب من ستة فصول ومقدمة وخاتمة وجرد بالمصادر والمراجع بمنهجية واضحة وبتبويب دقيق تتوازن فيه الفصول بتتبع ظهور جهاز المخابرات وتطوره وادواته. ويبدأ المؤلف كتابه بالاهداء الى شهداء الحركة الوطنية عام ١٩٦١، وشهداء انتفاضة معسكر الرشيد الباسلة في مواجهة انقلاب شباط ١٩٦٣ الاسود (عبر ذكر بعض الرموز)، كذلك شهداء انتفاضة آذار ١٩٩١ المجيدة وكل شهداء القضايا العادلة.

مصادر الكتاب كثيرة، ومن ميزات الكتاب انه اعتمد عدداً غير قليل من مصادر الادب ودواوين الشعر مادةً للبحث. ومن الكتب التي نوَّه بها الكاتب في مقدمته كتاب (نظم

الاستخبارات عند العرب والمسلمين) لعارف عبد الغني، و(موسوعة الاستخبارات والزمن في النصوص الاسلامية) لعلي دعموش العاملي. كما استعان في متن كتابه بكتب اخرى مثل (تاريخ التعذيب في الاسلام) لهادي العلوي. اما المصادر فنورد منها (الاخبار الموفقيات) للزبير بن بكّار، (الامامة والسياسة) لابن قتيبة الدينوري، (الامتاع والمؤانسة) لأبي حيان التوحيدي، (تجارب الامم) لابن مسكويه، (التاريخ المنصوري) لابن نظيف الحموي، (السيرة النبوية) لابن خلكان، (دائرة المعارف الاسلامية).. الخ.

وحبذا لو ان المؤلف قداستعان بكتابي (تاريخ التعذيب في العالم) لرينهارت، و(موسوعة العذاب) ذي السبعة اجزاء لعبود الشالجي. ولكن للانصاف لا بد من القول بانني واثق بدراية المؤلف بالكتابين، وان عمله في جامعة بوزنان وصعوبة الحصول على مثل هذه الاعمال هنا، وتركه لمكتبتين شخصيتين له في العراق والجزائر وهو في غربته لأكثر من عشرين عاماً يجعل من الصعب تحقيق كل شيء.

يتناول المؤلف في الفصل الاول (البدايات الاولى) وخاصة على ضوء ما ورد في كتاب (السيرة النبوية) لابن هشام و(كتاب الاغاني) للاصفهاني لاستقصاء الاخبار وبث العيون. وقد انطلق الاسلام في هذا المجال من باب التحقق من ناقلي الخبر (يا ايها الذين آمنوا اذا جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين). وقد جاء تقصي الاخبار من باب تقوية مركز الدولة في (المدينة). وقد اكد المؤلف في هذا الفصل على أنه «لم يكن هناك شيء يشبه ديوان البريد الذي يقوم مقام جهاز المخابرات اليوم» ـــ ص١٧. ورغم ان بعض الولاة ورواد العقيدة كسلمان الفارسي قد رفضوا مبدأ اطلاق العيون لمراقبة الخصوم، الا ان هذا لا يعني ان ولاة آخرين لم ينخرطوا في هذا الأمر.

يواصل المؤلف تطور عملية نقل الخبر والاستفادة من المخبرين ايام الفتوحات والغزوات. ويضيف بأنه لم يحدث تطور مهم هنا ايام الخليفتين ابي بكر وعمر بن الخطاب ـــ ص١٨. الاّ انّ عُمر استفاد الى حد ما من مراقبة ولاته وتقصي اخبارهم واحوالهم المالية وتوزيعهم لأموال الدولة والخراج. ويركز المؤلف على خطورة هذا الاتجاه من خلال بعض الحوادث التاريخية سواء في مواجهة الخصوم او تثبيت اركان السلطة. ويتابع الكاتب مواقف عثمان بن عفان غير الحازمة في متابعة اخبار ولاته. ويؤكد في ص ٢٥ على «وفرة المعلومات التي كانت تتهيأ للامام علي اينما حلّ وحيثما رحل».

البدايات الاولى ايام الرسول والخلفاء الراشدين (اي حتى عام ٦٦١م) اذنْ لم تكن الاّ «النواة الاولى التي لم تنضج بعد لنشوء جهاز مخابرات في الحضارة الاسلامية» — ص٢٧. ولكنها نواة قادت الى ظهور «انعطاف خطير» — ص٢٧ لاحق ايام معاوية والدولة الاموية (٦٦١ — ٧٥٠). اذ عُرف معاوية باطلاق يد ولاته في ملاحقة المعارضة السياسية والخصوم من شيعة وخوارج وزبيريين. كما واستخدمت اساليب مختلفة لتقصي اخبار المعارضة والمؤيدين على السواء. ويعتبر الوالي زياد بن ابيه «اول من الزم الناس بطاعة معاوية قسراً» — ص ٢٨. كما واتخذ معاوية وزياد الحرس تقليداً للحماية. ويؤكد المؤلف في الصفحات التالية على مدى القسوة التي جُبل عليها عدد من الخلفاء الامويين وولاتهم وخاصة زياد بن ابيه في ملاحقة المعارضة وشق صفوفها واعمال التقتيل والتسميم والرمي من اعالي السطوح لنشطائها واستبعاد الولاة المشكوك بولائهم. كما وظهر «جهاز العريف» لتنظيم امور الامصار. ينص الفصل الاول الى انه قد تأسس، على أيام معاوية، الى جانب جهاز الشرطة جهاز للمخابرات وكان اصحاب الشرطة هم الذين يتولونه — ص٣.

اما الفصل الثاني فيتعلق بتنظيم الجهاز ورجاله، الذي تطورت هيكليته ولم يعد كافياً الرجوع الى الشرطة في مثل هذه الامور. فقد قام الولاة انفسهم بتولي شؤون التجسس على المعارضة وقمع التمردات. من ذلك مثلاً قيام امير الحجاز محمد بن سعيد الاشدق بالتجسس على ثورة ابن الزبير — ص٣٦ او تجسس عبيد الله بن زياد على الشيعة. ويتابع المؤلف تقصيه لتطور الجهاز فيوضح في ص٣٦ بأن ديوان البريد بمهمات مخابراتية تماماً قد ظهر على عهد عبد الملك بن مروان. ويبين المؤلف في الفصل المذكور طبيعة الغدر لدى عبد الملك وغيره للاحتفاظ بالسلطة بأي ثمن كان — ٣٧ — ٣٨. كما وبرز عدد من الجواسيس ذوي المهمات المحددة وتواطؤ بعض اصحاب النفوذ مع الجهاز المذكور. كما ويلاحظ في العصر الاموي ان علاقة صاحب (رئيس) ديوان البريد لم تكن مباشرة بالخليفة.

ينتقل المؤلف بعد ذلك الى تطور العمل بالديوان (الجهاز) في العصور العباسية منذ عام ٧٥٠م، واستفادة العباسيين من اخطاء الامويين وتفاديها. ويتحدث عن التطور السريع والمقنن الذي طرأ على جهاز المخابرات. ويؤكد على ولع الخليفة ابي جعفر المنصور بهذا الجهاز بحيث تحسب لأي طارىء قد تواجهه خلافته كما ارسى مبدأ الولاء المطلق له — ص ٤٢، وكأن التاريخ هنا، كما ايام معاوية، يعيد نفسه لصدّام وجهازه

ويورد المؤلف بعض الشواهد التاريخية لاهتمام المنصور بالجهاز من اجل معرفة اخبار خصومه ومعارضيه. والامر يسري على الخليفة المهدي ايضاً ـــ ص٤٥. ويلاحظ حدوث تطور مهم في العصور العباسية يتحدد بعلاقة اصحاب البريد في الاقاليم والامصار بصاحب البريد ببغداد ثم الخليفة كمرجع نهائي. وقد كان المنصور والمهدي وغيرهما كثيري الثقة بالولاة واصحاب البريد من خلال صلاحيات واسعة مُنحت للأخيرين ـــ والحالة هذه لا تختلف كثيراً عما كان عليه الامر في ايام المأمون.

لقد تطورت هيكلية جهاز المخابرات ايام العباسيين بحيث اصبح هناك «رؤساء ومرؤوسون في هذه المحلة أو تلك. ويبدو انه اصبح لكل محلة صاحب بريد» ـــ ص٤٨. كانت مهام اصحاب البريد تشمل امور النقل ووصول الاخبار وتدوين التقارير للخليفة ـــ ص٥١. كما لا يفوتنا ان نذكر هنا استخدام النساء والاطفال للتجسس واستحصال المعلومات لدى العباسيين والامويين قبلهم، كذلك استخدام طرق مختلفة للتجسس ونقل الاخبار. من ذلك أُشيرُ الى طريقة الرؤوس المحلوقة كالذي حدث لرأس المملوك جابر. اما بصدد رجال الدين والفقهاء والمثقفين والادباء والشعراء فقد وقع البعض منهم في براثن هذا الجهاز او حامت الشكوك حول تعاونه معه. منها الشكوك التي حامت حول محمد بن رافع المتخصص بمجالس الحديث النبوي، او حول الاديب ابي حيان التوحيدي ـــ ص٥٤–٥٥.

اما الذين عملوا لهذا الجهاز فسعيد بن حُميد الكاتب. كما وُلِّي الشاعر المعروف مسلم بن الوليد ديوان البريد في خراسان، والشاعر المشهور ابو تمام ديوان الموصل، وصاحب المقامات المعروف أبو القاسم الحريري ديوان البصرة حيث كان «مشرباً بالتجسس» ـــ ص٥٦. لقد تراوحت علاقة هؤلاء الادباء والفقهاء بين اظهار الولاء للجهاز او نقل المعلومات والتجسس او التبرير لاعماله والرضوخ للسلطة والانتفاع منها. الا يذكّرنا ذلك بـ «ادباء» مخابرات السلطة حالياً.

يشير المؤلف في الفصل الثالث الذي يتعلق بوظائف الجهاز ومهماته الى واحدة من اخطر المهمات اي التجسس في مختلف العصور ـــ وقد شمل التجسس وجوه المجتمع وذوي النفوذ والقضاة واهل الدين والادب والتصوف والعامة ـــ ص ٦٢. وقد كان الخليفة هارون الرشيد بارعاً في ذلك. ولم تكن المراقبة والملاحقة خارج السجون فقط ـــ كما يرى المؤلف ـــ بل وداخلها ـــ ص ٦٣ وشملت المعارضة والموالين. وقد برز الخليفة الناصر لدين الله العباسي في تفننه بالتجسس. والى جانب الملاحقة تبرز الاغتيالات

السياسية للتخلص من الخصوم. (وقد كتب الدكتور الاعرجي مقالة حول الاغتيالات السياسية في العصر العباسي في العدد العاشر من مجلة (المدى) عام ١٩٩٥). ومن الاساليب الاخرى دس السم للمعارضين كتسميم الرشيد لادريس بن عبد الله العلوي. وكان امر الاغتيالات يتمّ مشافهة للاحتراز ـــ ص٦٩. كما واستحدثت طرق لقتل نشطاء المعارضة منها قتلهم داخل السجون ـــ ص٦٩. ومن مهمات الجهاز الاخرى ـــ كما اورد المؤلف ـــ تشويه سمعة المعارضة او القيام ببعض النشاطات الاستعراضية لاظهار قوة الجهاز وحفظ هيبة الخلافة ـــ ص٧٠ ـــ ٧١. كما ومن مهماته عمل الاختراقات في صفوف المعارضة ومراقبة حتى الامور الصغيرة والضجر الشعبي في وسط العامة.

ويتابع المؤلف في الفصل الرابع موقف المعارضة وتكتيكها لتفادي الجهاز. وهو فصل له اهمية راهنة. يورد المؤلف عدداً من اساليب المعارضة المضادة لفضح اساليب الجهاز للايقاع بها واختراق صفوفها وتحوطها واتخاذ الحذر من اجل المواجهة. وقد مال الشيعة كما هو معروف الى التقيّة خوفاً من البطش. فالتقية ـــ كما يشير المؤلف ـــ تعني عند الامام جعفر الصادق وغيره من أئمة الشيعة الامامية «السرية في التنظيم والاحتراس من الخصوم» ـــ ص ٨١. فالاحتراس والحذر من المبادىء الاساسية لدى المعارضة، لذلك كثيراً ما يتم اللجوء الى المشافهة والاحاديث بدلاً من الكتابة او اللجوء للحبر السري لتحاشي الوقوع في يد السلطة ـــ ص٨٨ ـــ ٩٠. ومن الاساليب الاخرى التي اشار لها المؤلف تنكر المعارضة او نشطائها بزي غير زيها اليومي واستخدام الاوكار الحزبية لدى الخوارج والزنج والقرامطة ـــ ص٩٥. وقد تستخدم المعارضة بعض الاساليب كاشعال الحرائق لزرع الاضطراب في اوساط الحاكمين. الاّ ان المؤلف يوضح عدم تثبيته من نسبتها للمعارضة ـ ص ٩٩. وقد تزرع السلطة عيونها داخل صفوف المعارضة ومن وسطها لتعطي الانطباع بانها تعرف كل شيء، كالاعتقاد الذي ساد لدى الناس بأن الناصر لدين الله العباسي يعلم بكل شيء ـــ ص٩٩. من جانبها تقوم المعارضة بحركة مضادة لكشف ألاعيب السلطة ، كذلك لاظهار قوتها. كما وقد تقوم المعارضة بقيادة عدد من المظاهرات، منها تلك التي قادها المعتزلي اسماعيل الصفار في البصرة بحيث ناهز عدد المشاركين فيها اكثر من الف بصري ـــ ص١٠٠. وقد تقوم المعارضة ببعض الاغتيالات السياسية ايضاً.

كما وتبارى عدد من الشعراء في دفاعهم عن هذا الطرف او ذاك.

اما الفصل الخامس فيتعلق بالجهاز ومرافقه. ويخلص المؤلف فيه الى القول بأن

مهمات الجهاز لم تكن مراقبة المعارضة فقط بل وجميع مرافق الدولة ـــ ص ١٠٧. وقد وُضعت ضوابط لذلك ايام الامويين والعباسيين. فالجهاز يقوم بمراقبة الولاة والقضاة وتخويفهم، وموظفي الدولة. وكان الخليفة الهادي يراقب ما يحدث في قصره. ويضيف المؤلف ان الأمر قد وصل بمهمات اصحاب الاخبار في دار الخلافة ان قاموا «برصد من يجلس وهو واضعٌ رجلاً على رجل او من يتبذل او يخدش الحياء بما يقول» ـــ ص١١٦. كما كان يراقب الجانب المالي والصرف لدى الولاة. من جانب آخر كان الخليفة المقتدي معروفاً بمراقبته لوزرائه، كما كان الوزراء يتجسسون على الخلفاء ـــ ويضيف المؤلف بأنَّ قوّاد الجيش والشرطة قد أولوا عناية خاصة من مراقبة الجهاز لهم خوفاً من محاولاتهم وطموحهم للسلطة ـــ ص ١٢٠. كما ويقوم الجهاز باطلاق بعض الاشاعات ومراقبة ردود افعال العامة عن الحياة المعيشية والسلطة.

وينهي المؤلف تبويبه للمادة بالفصل السادس، فيتعرض لأساليب التعذيب والقتل والسجون. هذا الموضوع الذي كتب فيه ايضاً الاستاذ العلوي في كتابه (من تاريخ التعذيب في الاسلام). وقد جاء فصل الدكتور الاعرجي ليكمل ويضيف في هذا المجال. لقد اعتمد الاعرجي هنا عدداً غير قليل من مصادر الادب ودواوين الشعراء لتقصي اخبار التعذيب وادواته، كما قام باحصاء ادوات القتل والتعذيب.

ومنها التسميمُ والرمي من اعلى السطوح وقطع الايدي. كالذي فعله زياد بن أبيه في الكوفة حيث قتل بهذه الطريقة ثلاثين وقيل ثمانين من معارضيه، وهو جالس على كرسي في باب المسجد ـــ ص ١٣٢. او قيام عبيد الله بن زياد بعد فشل محاولة اغتياله بكسر وجه هانيء بن عروة المرادي ـــ ص١٣٢. اما الحجاج فقد كان ـــ كما جاء في الفصل ـــ معروفاً بفظاعته وتعذيبه لمعارضيه وحبه للقتل فعدد قتلى الحجاج في غير حرب قد وصل الى مائة وعشرين الفاً كما عثر في سجونه بعد موته على ثلاثة وثلاثين الفاً» ـــ ص١٣٣. كما كان معروفاً بشغفه بصلب خصومه بعد قتلهم.

وعُرف عن الامويين تعذيبهم لمعارضيهم وانتزاع الاعترافات منهم بالاكراه. هذا وقد تفنن الخلفاء العباسيون وغيرهم بإيذاء وتعذيب خصومهم كتعذيب ام المقتدر للخليفة القاهر بعد قتل الاخير لابنها ـــ ص ١٣٦. وكان المأمون اول من اوجد الصلب على خشبة في الحبس ـــ ص١٣٦. ولا بد لي من اضافة حادثة قطع اطراف الصوفي ابو منصور الحلاج وصلبه، وكان المؤلف قد مرّ على الحلاج مروراً سريعاً. ومن اساليب التعذيب الاخرى التي اوردها المؤلف التشميس وتحمير ثقب الاست ـــ ص١٣٧ ـــ ١٣٨. وهناك

الضرب بالسياط والتعذيب النفسي، مثل ما حدث للوزير ابن الفرات حيث ذبح ابنه امام عينيه في السجن ــ ص١٤٠.

وهناك الاهانات والتشهير بالضحية والانتقام كالذي حدث لمن اتهم بالزندقة على يد الخليفة الهادي ــ ص١٤٣. وهناك التلذذ السادي بقطع بعض اعضاء الجسم او اجزاء منه كالذي حدث للخطاط ابن مُقلة ـ ص١٤٣. ويمكن ان نضيف هنا ما حدث لاحد الخلفاء الفاطميين في السجن حيث قام ابنه بتعذيبه بقطعه لحماً من جسم ابيه وتاكيله له. ومن اشكال التعذيب وادواته التي اوردها المؤلف التنور مثلما أحدث الزيّات الذي كان قد اعد التنور لمعارضيه واصبح واحداً من ضحاياه لاحقاً ــ ص١٤٤. وهناك الخشبة المضرمة التي توضع في الخواصر والبطن كما حدث لاسرى القرامطة ــ ص١٤٥ ــ ١٤٦، وحرق الوجه قبل القتل ــ ص١٤٦. ومن الآلات آلة الدهق التي استخدمها المنصور ــ ص١٤٧، والمعصرة التي اوجدها الملك الناصر، والرّعبوب لضرب الرؤوس، ونفخ البطن بالنمل. ص١٤٦ــ١٤٧. وينتقل المؤلف الى وصف طبيعة السجون وحفر المطمورات للسجناء ايام المعتضد والقاهر، وبناء عدد من الخلفاء سجوناً داخل قصورهم لمعارضيهم السياسيين ليكونوا تحت المراقبة اليومية. وكان رجال السلطة المتهمون بعدد من القضايا يوضعون في سجون خاصة ــ ص١٤٨ــ١٤٩.

لم اجد بعد فراغي من قراءة الكتاب وما فيه من حقائق مؤلمة الاّ ان ادور في «دوامة» ومعي القارىء، دوامة المتجهم وهو يقرأ عن احد جوانب هذه الحضارة. انك تجد التاريخ يتأرجح وهو يداهمك ويقضّ مضاجعك تراثاً ومعاصرة ازاء ما تتلمذت عليه أجيال حول «تكامل» لا تضيق منه الحقائق ومظاهر العجرفة الرسمية المخابراتية التي تزرع العتمة وهي مرعوبة لتعتاش عليها في الوقت الذي تزرع الاحباطات من اية اشراقات بل وتعاديها انطلاقاً من القاسم المشترك لكل الجلادين والظلاميين ــ يأتي كتاب الدكتور الاعرجي في ظروف استلاب العراقيين في الداخل والمنفى، واستلاب المواطن العربي والاسلامي في عالمنا العربي من خلال تقنين الارهاب السلطاني والتعذيب الفكري والجسدي المخابراتي ذي الباع الطويل في ادارة مؤسسات العقل ومحاولة احتواء الضمير وتسفيه النبل وتخريب الآمال والوعي. ولعل أهمية الكتاب تبرز من خلال تقدم الماضي الى الحاضر، عصرنة الماضي واستمراريته. انه درس يتسع لكل مساحات الالم والموت والسوداوية من جهة والتجاوز والبحث عن مخرج للخلاص العام من جهة اخرى.

الموضوع لم يكن هواية، وانما هو هاجس كشف البثور في ظروف القسوة التي لا

محيد من مواجهتها بشجاعة لا مازوخية.

تأتي الدراسة شمعة لتبصيرنا بواقعنا من خلال ماضينا وتقديمه عارياً ومداهمة التاريخ وفهم صراعاته لا مكان فيه لليأس. يجعلنا نعتمل داخلياً، نفور، نتأمل، نتسمّر، لا يرحمنا بأوجاعه التي هي اوجاع الشفاء ايضاً.

الدكتور الاعرجي وهو يضعنا امام انفسنا يؤكد على ان هذا الجهاز قد عرفته حضارات مختلفة، وطال الصغير، والكبير، وبهيكلية اخطبوطية في «ازهى» عصوره، اراد منا ان نتبين الخيط الاسود من الابيض وتسليط الضوء على الجراح التي اثخنتنا وتثخننا. كما يضعك في الصورة لتحديد تجاعيد وجه انظمة و«قوانين» مخابراتية لتقنين التعذيب والقتل وانتزاع الوعي بل والحياة لمن اراد ان يحتفظ بكرامته في قصور «النهاية» الخلافية واقبية الأمن والاستخبارات والشوارع والسجون واعلام الجراد والصحف الدّجالة وشرطة «الأدب» المتورمة صراخاً بالحمد «لأمراء المؤمنين» ومحاصرة المواطن، بل وكسر شوكته (بمعصرة) الناصر الحموي و(آلة دهق) المنصور و(كرين) صدام حسين المتحضر بتقنية غربية وامريكية متقدمة واندفاع قومجي والمنفذة بيد اللاانسان البدائية لقتل النخل والجبل والهور والانسان قبل كل شيء. الهدف هنا ـــ كما يؤكد المؤلف ـــ هو «حفظ السلطة والوالغين فيها» ـــ ص١٥٢ بأي شكل وبأي ثمن كان من خلال مؤسسات الجهاز وادواته ومتزلفيه والمتلوثين بوحل السلطة من «شعراء» الدراهم و«الادباء» القباقيب و«مفكري» القصور والنابشين في «نواميس» الدجل وتخريب الثقافة واصحاب الضمائر الضعيفة والمتهافتين كالذباب على الامتيازات والمناصب.

قد لا يثير كتاب الدكتور الاعرجي جدلاً ايدولوجياً او فقهياً ولكنه سيبقى هدفاً لدراويش الثقافة وظلاميي السلطة ومريديها. واذا كان المؤلف قد اختار العنوان بالشكل الذي عليه انما اراد ان يفصل بين الاسلام كمبدأ وبين تسييسه ومن حكموا ويحكمون باسمه ـــ ص١٥٣ على امتداد عصور الحضارة الاسلامية..

* عُرِفَ الدكتور محمد حسين الاعرجي بتنوعه وامكانياته في مجال تحقيق المخطوطات، نذكر منها على سبيل المثال (كتاب الامثال) للخوارزمي و(ديوان ابي حُكيمة)، و(مقطعات مراث) لابن الاعرابي. كما وصدرت له دراسات ابداعية منها (فن التمثيل عند العرب) و(الصراع بين القديم والجديد). وقدّمَ لعدد من الكتب منها مقدمته لطبعة الجزائر لكتاب الاغاني لأبي الفرج الاصفهاني، ومسرحيات احمد شوقي، اضافة الى مقالاته المختلفة وتوثيقه للقاءاته وحواراته مع شاعر العرب الكبير الراحل محمد مهدي الجواهري، وعمله في مجلة (الرابطة) النجفية في السبعينات، كذلك عمله كاستاذ في عدد من الجامعات العربية وفي بولندا. كما عرف كشاعر اذ صدر له ديوان (رؤيا اورورك).

مناقشات

حول كتابي نوشيروان مصطفى:

هل يصح تبرير الاقتتال الداخلي وسياسة السيطرة ؟!

أحمد بانيخيلاني

نشر السيد نوشيروان مصطفى، في الفترة الأخيرة، الجزء الأول من مذكراته (من شاطئ الدانوب الى خري ناوزنك) والجزء الثاني منها (الأصابع تكسر بعضها)، ومن المتوقع أن ينشر ثلاثة أجزاء أخرى.

ومن الواضح أن كتابة مذكرات وآراء وتوجهات العناصر السياسية والمسؤولين والمتنفذين في الحركات السياسية في الأمور الايجابية منها والسلبية أمر مفيد، حبذا لو تصدى له جميع القادة السياسيين الأكراد، وجرى تثبيته كتقليد في حركة شعبنا التحررية، بغية أن تكون آراء وملاحظات هؤلاء القادة والمسؤولين عن انتصارات وانتكاسات الحركة التحررية الكردية في متناول أيدي أبناء الشعب، للاستفاد منها في النضال الشاق لشعبنا الكردي وعموم الحركة الوطنية الديموقراطية في البلدان التي يعيش فيها.

في المقدمة أود أن أقول: ان هناك عدداً من المواضيع اللغوية، وتحقيقات عن أسماء الأماكن والمواقع الجغرافية، وعن عادات وتقاليد الحياة الكردية التي تناولها المؤلف في كلا الجزئين، وربما سيتناولها في الأجزاء الثلاثة الأخرى الباقية أيضاً. حبذا لو جرى جمعها وتصنيفها وطبعها منفصلة عن المواضيع السياسية. كما أشار في فقرات أخرى، الى بعض الأحداث مثبتاً اياها حسبما أوردها على ألسنة الناس بحيث لا تشكل ضرراً على ستراتيجية تفكيره، التي كرس نوشيروان وحملة أفكاره أنفسهم لها، الا وهي ستراتيجية العداء لـ(حدك) وأسرة البارزاني، وتلك القوى السياسية التي لا تريد أن ترضخ لارادتهم وتسير في ركابهم.

والمعروف عن نوشيروان، انه كان ولا يزال، سياسياً يحتل موقعاً رفيع المستوى في حزبه (اوك) وشخصية تتمتع بالدراية التامة بالأمور المتعلقةبتنظيمه، وكان له باع طويل في جميع الأعمال والممارسات السلبية والايجابية لسياسات (اوك)، الا أنه يسرف وبصورة مبرمجة في المبالغة، ويشوه الحقائق بدرجة كبيرة، مسيئاً الى التاريخ ومستهزئاً بذكاء القارئ. وتأخذ تشويهاته هذه في كثير من المواضع أشكالاً كاريكاتيرية غريبة، بهدف الايحاء للقراء بصحة مقاييسه وتصوراته، الا أن هذه المقاصد لا تنطلي على القارئ المجرب لأنه يعرف جيداً أن هذه الأدلة ان هي الا نتيجة تفكيره هو نفسه!!.

لقد أطلقت بعض الصحف والمجلات التي تناولت هذين الجزأين من مذكرات نوشيروان بالبحث والمتابعة اسماء وألقاباً مختلفة، وعندي ان افضل صفة لها هي «رسائل الحرب»، لأنني حسب فهمي لها (وآمل أن لا يكون ذلك هدف صاحبها منها) وجدتها مكرسة للتهليل والتطبيل للاقتتال الداخلي كاقتتال لا نهاية له إلا بسيطرة تنظيم نوشيروان وحملة أفكاره على مقاليد الأمور بالكامل.

قبل الخوض في تصحيح الوقائع التي شوهها نوشيروان، أود أن أقول انه كان الأحرى به وهو الذي يرى في نفسه أحد منظمي الكفاح المسلح والبارتيزاني ضد النظام الحالي، ان يكرس جزءاً من كتابيه للحديث عن المعارك التي خاضتها قيادته ضد النظام، ذلك أنه كرس في الجزء الأكبر منهما للحديث، وبكثير من النشوة والتلذذ، عن المعارك التي قادها هو ضد (حدك) والقوى الأخرى في كردستان! ألم يكن باستطاعته أن يحدثنا ولو عن معركة واحدة ضد النظام؟ أم يمكننا القول ان مجال تخصصه ونبوغه هو الاقتتال الداخلي وتقتيل الأكراد فقط!!، فلقد أورد على سبيل المثال، في كتابه الأول، اسم (ق.م — القيادة المؤقتة) (١١٦) مرة، وكرس (٨١) صفحة من الكتاب الثاني للتهجم على أسرة البارزاني والبارزانيين وتشويه تاريخهم النضالي في الحركة التحررية للشعب الكردي، ورغم تثبيته عنوان (الجانب الداخلي لأحداث كردستان العراق في سنوات ١٩٧٩-١٩٨٣) على غلاف كتابه، الا أنه توغل بعيداً في تهجماته على أسرة البارزاني بالحديث عن أمور وقعت في أوائل هذا القرن، أو حتى قبله!!.

وأورد بعد الصفحة (١١٦) اسم الحزب الشيوعي العراقي (حشع) (٧٧) مرة واسم الحزب الاشتراكي الكردستاني (حسك) (٥٠) مرة وأكثر من ذلك اسم (جود) وكل ذلك سلباً!، كما لو أنه لم يكن له شأن بالنظام، أو كما لو أنه وتنظيمه لم يأتيا الى الوجود الا لتصفية القوى السياسية الأخرى ومناصبتها العداء!.

ان المرء ليحس، عند قراءته لهذين الجزئين من كتابه، ان كل سنوات الاقتتال الداخلي وتقاتل الأكراد واستباحة كردستان لم ترو غليل كاك نوشيروان ومن على شاكلته، ولهذا فهم يجهدون أنفسهم لتأجيج نيران هذه الحرب الضروس، وبكثير من اللذة والتعطش الى الدماء، دون أن يسألوا أنفسهم ولو مرة واحدة: ترى. . . لماذا يجري كل ذلك؟ ولأية أهداف يقذف بأبناء الشعب الكردي وبناته في أتون الاقتتال الداخلي الملتهب منذ حوالي ربع قرن؟!!.

والأغرب في كل هذا، أن نوشيروان وحملة أفكاره، يريدون أن يقنعوا الناس بأن كل القوى والأحزاب المتواجدة في كردستان انما تأسست لمناصبتهم العداء وتصفيتهم، وهذا ما يذكرني ببطل قصة نشرت في الأربعينات في أحد أعداد مجلة (كَه لاويز) لأن كاك نوشيروان يبدو لي أشبه ما يكون ببطل تلك القصة.

تقول القصة: ان قروياً توجه الى المدينة يتسوق، فدخل في نقاش حاد مع صاحب دكان وأخذ يساومه على سعر قماش أراد أن يشتريه فلم يتفقا على السعر فغضب القروي وثار فرفس المنقلة التي بباب الدكان فتناثرت جمراتها موقدة النار في الدكان. ولما حاول أحد أصحاب الدكاكين القريبة الامساك بالقروي بقر بطنه بخنجره وهرب والخنجر في يده، فصادفه اثنان من أفراد الشرطة وهو على تلك الحالة، فطعن أحدهما بخنجره أيضاً، ثم ألقي القبض عليه. وعند محاكمته توجه الى القاضي مدافعاً عن نفسه بمنتهى المسكنة:

ـ أنا انسان هادئ ومسكين، والله يا جناب القاضي! فانني لم أقترف ذنباً، وان هؤلاء الناس يتهمونني زوراً، وقد فرضوا الشجار علي! لقد أردت شراء كمية كبيرة من القماش من هذا الشخص غير أننا لم نتفق على السعر، فأردت التوجه الى دكان آخر فأوقد النار بدكانه حقداً علي واتهاماً لي، لأنني لم أشتر منه شيئاً! وحينما أردت النجاة بنفسي، مد جاره يده فأخرج الخنجر من عبي وضرب نفسه به، لا لشيء الا لتجريمي فأخذت منه خنجري وهربت، لذا فقد كان الخنجر بيدي حينما صادفني هذا الشرطي الذي ألقى بنفسه على خنجري فانغرز الخنجر بسببها في بطنه، فما هو ذنبي في كل ذلك؟!!.

فما كان من القاضي الا أن أجابه:

أنا أعرف يا بني أنك انسان بريء ولا تؤذي أحداً، كما أعرف أنك لم ترتكب جرماً، الا أن أهل المدينة هذه يتحرشون بك، لذا فقد قررت المحكمة حفاظاً عليك، أن تأخذك لتعيش بهدوء وسكينة في احدى زوايا السجن، لتبتعد عن هؤلاء الناس المنافقين الذي لا يكلون ولا يملون من التحرش بك!!.

الآن لندخل مباشرة، في موضوع الاتهامات والحجج التي ساقها، لشن حرب اقتتال الكرد واحتكار الساحة السياسية والتسلط الفردي في الجزء الثاني من كتابه (الأصابع تكسر نفسها) رغم أن على المرء، اذا ما أراد الرد على كل الاتهامات الواردة فيه، أن يؤلف كتاباً لا يقل حجماً عن حجم الكتاب نفسه!.

في الصفحة (٣٠) يقول: «في شهر مايس حكم على (٣١) من أعضاء الحزب الشيوعي العراقي بتهمة اقامة التنظيمات في صفوف القوات المسلحة،. . . وقد ذهب عزيز محمد لمقابلة صدام ليرجوه بأن لا ينفذوا حكم الاعدام في يوم تأسيس الحزب، ويؤجلوا الأمر عدة أيام، لكي لا تتنغص عليهم الذكرى، فتصبح مدعاة عار لهم.»!!!.

ان الحقد الذي يكنه نوشيروان على الحزب الشيوعي العراقي، قد أخذ منه كل مأخذ، وانساه حتى يوم وشهر المناسبة!!. فلقد حكم على هؤلاء الرفاق في مايس ١٩٧٨ بعد صدور بيان اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي في آذار ١٩٧٨ الذي أزعج البعث الحاكم ايّما ازعاج وطالب بسحبه، ونفذ الحكم بهم في الشهر نفسه، في حين تصادف ذكرى تأسيس الحزب الشيوعي العراقي يوم ٣١/آذار. يبدو أن الأمر قد التبس على نوشيروان فتصور أن ذكرى تأسيس الحزب تصادف يوم ٣١/مايس!!، ولا أدري من أين استقى أكذوبة طلب الرفيق عزيز محمد بعدم تنفيذ الحكم في ذكرى تأسيس الحزب، لأنه حتى الحكام القتلة لم يجرؤوا على تلفيق مثل هذه الأكذوبة السمجة.

لست أدري بم أصف ما ذكر السيد نوشيروان؟ . . . أهو جرأة، أم شيء آخر؟!!.

وفي الصفحة نفسها يتحدث عن ذهابي من (ناوزنك) الى ايران للالتقاء بـ(حدكا) فيقول: «يبدو أن حدكا لم يكن قد أحسن وفادته»!. ولم يكن الأمر كذلك، فلقد أحسن حدكا وفادتي واستقبلني استقبالاً حاراً، وقدم لي المساعدة قدر استطاعته، ولم يقصر فيما بعد والى نهاية سنوات المقاومة في الجبل في تقديم العون والمساعدة لحزبنا والتضامن معه.

وفي الصفحة (١٦٥) يقول: «كنا نريد أن نجعل من السجن مؤسسة حضارية، وان يكون أسلوب تعاملنا مع السجناء مغايراً لأساليب النظام الحاكم بالتمسك والالتزام بلائحة حقوق الانسان ونصوص القانون الدولي فيما يتعلق بحقوق السجناء، وان نمنع منعاً باتاً أساليب الضرب والاهانة».

لنقل، ما دام نوشيروان يعيش في أوروبا، ويؤلف كتبه هذه وينشرها فيها، فلا بأس أن يتزيّا بالزي الأوروبي، وأن يكتب للبعض من الشباب الذين نموا وترعرعوا في أوروبا، ولم يكونوا على علم ودراية بمجريات الأمور في سنوات المقاومة في الجبال، فيصدقون ما يزينه

لهم من سرد للوقائع والأحداث بأسلوب حضاري متمدن!. . . غير أن أعداداً كبيرة من أبناء شعبنا وقواه السياسية وخاصة الآلاف ممن كانوا يعيشون في الجبال، يعرفون نوشيروان عن قرب، وكيف كان وجماعته يمارسون احترام حقوق الانسان!. . . فهم يعرفون كم من الناس قطّعت أوصالهم بالفؤوس، وكم من الجثث اختفت تحت الصخور، والعديد من الذين لم يعرف أحد عن مصائرهم شيئاً من خصوم نوشيروان أو المختلفين معه.

ولا داعي لأن نذهب بعيداً، لكي نقول ان سنوات المقاومة في الجبل كانت استثنائية ومضطربة ولم يكن من السهل فيها وضع حد للمارسات اللا قانونية. فلنتحدث اذن عن السنوات الاعتيادية للحكم داخل المدن بعد الانتفاضة وتشكيل البرلمان وحكومة (الأخوين العدوين) الفيفتي فيفتي، فأبادر الى سؤال كاك نوشيروان: من هم الذين نهبوا ممتلكات الشعب الكردي من مؤسسات ودوائر الدولة في كردستان بعيد الانتفاضة ودفعوا بها خارج الحدود؟، ومن هم الذين تسببوا في تشريد أسر وعوائل الآخرين، وحرموا النساء والأطفال والشيوخ من مأواهم في مدن كردستان وقرّاها تحت ذريعة كون أبناؤهم أو أقاربهم من مسلحي أو أصدقاء أو مؤيدي غرمائهم؟!. وهل يستطيع كاك نوشيروان أن يقول لنا، أية جهة قضائية أو محكمة أصدرت أوامرها أو أحكامها بحق كل أولئك الرجال والنساء والأسرى الذين لا يحصون والذين قتلوا دون أن يرتكبوا جريمة وألقيت جثثهم في الشارع الستيني في السليمانية واربيل، أو الذين اختفت آثارهم، وبأية مادة من مواد لائحة حقوق الانسان أو أي قانون أدينوا؟!. وهل يستطيع كاك نوشيروان أن يوضح لنا: وفق أي بند من بنود لائحة حقوق الانسان رمي محمد حلاق ورفاقه الأحد عشر في حفرة جماعية بملابسهم في معسكر السلام بعد أن أطلقت عليهم النيران وأهيل عليهم التراب على الطريقة الصدامية، ومن ثم اضطروا الى اخراج جثثهم وتسليمها الى أهاليهم؟!. أو هل يستطيع أن يقول لنا: في أية محكمة ووفق أي قانون قتل الشاعر والكاتب (أبو بكر علي) المعروف (ماموستا أمين)؟!.

فاذا كان كاك نوشيروان ومريدوه قد قام بكل هذا خلال فترة الحكم في المدن. . . فان للمرء أن يتصور كم راعوا حقوق الانسان وكانوا «متحضرين» و«ديمقراطيين» في الجبل!!. قد يكون طبيعياً أن يتحدث كاك نوشيروان بشجاعة في أي موضوع يرتئيه. الا أن عليه أن يتروى حقاً حينما يتصدى للادعاء بحقوق الانسان، ذلك أنه لم يلتزم بالحقوق التي يتحدث عنها حتى مع المخالفين لشخصه في تنظيمه، ناهيكم عن الحديث عنها بحق أناس لم يكونوا غير أسرى لديه ولدى جماعته!!.

في الصفحة (٢٠٧) يقول: «تزامن القتال الأول بين (جود) و(اوك) مع تعقد العلاقات بين ايران والاتحاد، وكانت حدة الصراع والتوتر بين مسلحي جود والاتحاد تتصاعد في عموم كردستان». وهنا يريد الايحاء بأن (جود) شنت القتال ضد (اوك) بتحريض من ايران!.

أولاً: أود أن أقول أن (جود) التي تأسست عام ١٩٨٠ هي الجبهة الوحيدة التي لم يكن لدول الجوار دور في تشكيلها، لا دور سوريا (كما في جوقد) ولا دور ليبيا (كما في اتفاق الـ ١٩ حزباً) ولا دور ايران (كما في اتفاقية الصلح والاتفاق الثنائي بين مام جلال والمرحوم ادريس البارزاني في طهران). مع تقديرنا الايجابي لهذه الأدوار.

ثانياً: ان القتال بين الاتحاد و(حسك) كان قد بدأ منذ انفصال المرحوم رسول مامند عن الاتحاد في عام ١٩٧٩ وجرى أول صدام مسلح بين مفرزة من الاتحاد وأخرى من حسك في ١٩/ نيسان/ ١٩٧٩ في سفوح جبل (كوسرت)، ولم تكن أي من (جود) أو (جوقد) قد تأسستا بعد!، وكان (حسك) قد كتب في رسالة له الى (حشع) عند اعتقال نوشيروان في ٢٣/ ١/ ١٩٨١ يقول: «ان الاتحاد شن (٢٤) اعتداءً على مفارزنا في الأشهر الثمانية الماضية وتسبب في استشهاد (١٦) فرداً من عناصرنا».

وجاء في البلاغ العسكري للاتحاد الوطني الكردستاني في ٢١/ ٥/ ١٩٨١: «ان أنصارنا حاصروا مجموعة من مسلحي القيادة المؤقتة ممن باعوا أنفسهم والذين كانوا قد جاءوا إلى قرية (سريشمه) الواقعة خلف (كه لاله) لزرع الفتنة والقيام بأعمال السلب والنهب، ولقد تم أسرهم، بعد قتال دام نصف ساعة جميعاً وبأسلحتهم».

هذا وحدثت العشرات غيرها من المعارك والاصطدامات المسلحة خلال الفترة نفسها وكانت سوق الاتحاد فيها رائجة مع ايران على العكس مما يدعيه نوشيروان. وقتلوا في العام نفسه رفيقنا الشهيد (ماموستا قادر) ونهبوا سلاحه وأرسلوا قاتله الذي كان أحد كوادر الاتحاد الى منطقة كرميان لاخفائه، كما قتلوا وفي العام نفسه أيضاً، الشهيد (خليل رضا كبابجي) ودفعوا قاتله الى تسليم نفسه الى السلطات الحكومية!.

ويتحدث في الصفحة (٢١١) عن مقتل (عبدالله ماويلي) بطريقة توحي وكأنها هي الحقيقة، غير أن الحقيقة هي غير ذلك: فقد كان عبدالله حين التحاقه بنا يحمل معه ثلاث رسائل سبق وان أرسلها له كل من: مام جلال والملازم عمر وقادر خه بات (مسؤول منطقة بالك للاتحاد) والثلاثة كانوا يشيدون به ويلقبونه بـ«المناضل والثوري» و«يطالبونه بالالتحاق بالثورة»، «ليقوم بملء مكانه الفارغ فيها»، وقد قلبوا له ظهر المجن حين التحاقه بنا، فأخذ كل من تنظيم نوشيروان و(حسك) يلحان علينا بتسليمه لهما

بتهمة أنه سلم أحد كوادرهما الى السلطة فاعدمته!. والغريب ان هذا الكادر كان شخصاً واحداً غير أن الطرفين كانا يدعيان انه كان كادراً في صفوفهما! وقد أبدى عبدالله استعداده للمثول أمام لجنة تحقيق مشتركة لمحاكمته وتوضيح الحقائق، الا أنهما امتنعا عن تكوين اللجنة وأصر كل طرف منهما على مطالبتنا بتسليمه اليه مباشرة ليقوم بمحاكمته!. أما الحقيقة عن اعتقال عبدالله ماويلي فكانت كالآتي: لقد توجه عبدالله الى (دركله) للالتقاد بعائلته وكان يرافقه أحد مسلحيه، فشن المرحوم (حسن كويستاني) هجوماً عليه بمفرزة خاصة، اعتقلته ونقلته الى قيادة الاتحاد. غير أن نوشيروان الذي تحدث عن عبدالله ماويلي حديثاً ما أنزل الله به من سلطان لم يشأ أن يوضح لنا ما الذي عملوا به؟ ومن الذي حاكمه؟ وماذا جرى لجثته؟. في الوقت الذي يستهويه كثيراً الحديث عن «السجن المتحضر» و«مراعاة حقوق الانسان» هذه الأيام!!.

ويتحدث في الصفحة (٢١٣) عن تصورات الشيوعيين لـ (اوك) و(حدك) فيقول: «كان البعض منهم يتصور ان (حدك) لا يشكل خطراً على (حشع) لكونه عشائرياً ومعروفاً برجعيته وعمالته لايران والامبريالية، اما الاتحاد خطر لأنه يخدع الشبيبة باسم الماركسية والتقدمية»!!. انه لعجيب هذا الأمر فنوشيروان هنا ينفث حقده الشخصي وباسم الحزب الشيوعي والديمقراطي الكردستاني معاً!!. فان كنا ــ حقاً ــ نقيم البارتي على أنه رجعي وعميل، فكيف وقعنا معه اتفاقاً ثنائياً وجبهة؟!. وكيف قاموا هم للذين لم يكونوا يكلّون ولا يملون عن تقييم البارتي بأنه العدو الرئيسي للشعب الكردي، بتوقيع الاتفاق الثنائي معه في طهران، وكانوا يدعون الماركسية والتقدمية؟! وكذا يمكننا القول بالنسبة للجبهة الكردستانية والبرلمان وحكومة الفيفتي فيفتي أيضاً!.

انني أود أن أؤكد هنا ان (حشع) لم يقيم البارتي قط بأنه عميل لايران والامبريالية، وكان حتى في الفترة التي جرى الصدام بينهما، وهما متخندقان في خندقين مختلفين، يرى ولا يزال، انه رغم كل أخطائه حزب قومي ووطني، كما الاتحاد نفسه، رغم كل أخطائه هو الآخر أيضاً.

واننا، لا في السابق ولا الآن، لم نعط الحق لأنفسنا باتهام الناس بالخيانة اعتباطاً، ثم العودة لنزع هذه الثياب عنهم والباسهم ثياب الوطنية. أو اطلاق صفات الوطنية والثورية عليهم ونعتهم بالقادة التاريخيين وذوي الخبرة والتجارب الطويلة تارة، والنظر اليهم على أنهم العدو الرئيسي للشعب الكردي تارة أخرى، أو أن نمنع الباسدار الايرانيين عن أن «تلطخ أقدامهم تراب كردستان المقدس فترة»، ونحملهم على الأكتاف لنوصلهم الى

الأعماق في كركوك وجمبور وسهل كرميان فترة أخرى، أو أن «نشل اليد التي تمتد من الخلف لتطعن الجيش العراقي غدراً» طوراً، ونقرع الطبول وننفخ أبواق القتل العام ضد أي كان من أفراده وتنطلق حناجرنا لتردد لهم «أسطورة الثلج الملتهب» و. . . الخ و. . . الخ!!!.

وأود التأكيد أيضاً، على أننا لم ننظر لا الى كاك نوشيروان ولا الى تنظيمه يوماً، على أنهم ماركسيون، وان رفعهم للافتات الماركسية، لفترة من الفترات عموماً، لم يكن الا بسبب من الشعبية الواسعة التي كانت تتمتع بها في تلك الفترة من ناحية، بين صفوف الشبيبة الكردية المخلصة حقاً، وهنا لا بد من التوضيح، انني حينما أتحدث عن الـ (كموه له)، لا أقصد أشخاصاً مثل الشهداء ارام وجعفر وشهاب وأنور والعشرات من الذين اعتلوا المشانق غير هيابين في سجون الموصل وبغداد وكركوك مدافعين ببطولة عن مبادئهم وهاتفين بالحياة والانتصار للماركسية ـــ اللينينية، أو الذين ضحوا بدمائهم في ساحات النضال الأخرى.

ويكتب في الصفحة (٢٥٥) قائلاً: ان الحزب الشيوعي أخذ يدعو الى تحويل كردستان الى ساحة حرة للنشاط السياسي والأنصاري لجميع الأحزاب، منذ أن نُقل الى الجبل. وهنا لا بد من القول: أولاً ان الحزب الشيوعي انتقل بنفسه الى الجبل، ولم ينقله أي أحد آخر. ثانياً: فلتقرر الجماهير ما اذا كان هناك أي نقص في هذا التوجه. ثم ألم تكن هذه هي رغبة وارادة الوطنيين الأكراد ودعوتهم جميعاً، ولا زالت؟!.

وفي الصفحة (٢٥٦) يتحدث عن ممارسات وأعمال القوى الأخرى (من غير تنظيمه) فيقول: انهم كانوا منشغلين دائماً بأعمال السلب والنهب والقتل وتعرية الجماهير. واعتقد أن الأمر قد التبس مرة أخرى على كاك نوشيروان، فقد كان الأحرى به أن يزيد على الأقل القول، بمن فيهم الاتحاد. علماً أن حشع وباسوك كانا بعيدين عن مثل هذه الممارسات، والجمهور خير شاهد على ذلك. انه يريد أن يأتي بالمبررات لكل هذا الاقتتال وسفك الدماء ولا يريد لأي طرف أن يخرج منه دون أن يتصبب عرقاً كما يقال!.

ويقول في الصفحة نفسها: «نظراً لأن حشع نفسه كان حزباً صغيراً، فانه كان ينظر الى الانقسامات في الحركة الكردية بفرح، وكان يحبذ أن تتواجد مئات الأحزاب والمنظمات الصغيرة على أرض كردستان، لعله يكون هو الأكبر فيها»!. فأولاً: ان صواب الموقف والسياسة لا يرتبط بالكبر والصغر، فحزب صدام وحزب نوشيروان وحدك أحزاب كبيرة، غير أننا نرى في أي طريق دفعت بكردستان والعراق. وثانياً: وبالضد من أهواء نوشيروان فقد كانت للحزب الشيوعي العراقي ولا تزال جماهيريته وحضوره في

ميادين النضال، وهو ليس حزباً صغيراً!. لقد كان العمل والنضال من أجل وحدة صفوف القوى الوطنية والتضامن فيما بينها عموداً أساسياً من أعمدة فكر وسياسة حزبنا منذ تأسيسه، وأن دوره وسمعته في هذا الميدان معروفان لدى شعبنا وقواه الوطنية. . . إلا أن سياسات التطرف والتسلط لفردي والسيطرة بقوة السلاح لكاك نوشيروان والذين يشاركونه آراءه كانت حجر عثرة كبيراً في هذا الطريق!. ثم ان حشع لم يحبذ أبداً الأحزاب الصغيرة، غير أنه كان ولا يزال على قناعة تامة بأن ذلك ليس منوطاً برغبته، وبأنه من الطبيعي في مجتمع متعدد الطبقات والشرائح الاجتماعية، ان تتواجد أحزاب ومنظمات متعددة. اننا لم نكن نفكر بالطريقة التي كان يفكر بها نوشيروان الذي كان يعجبه أن يردد «نحن لا نسمح بأن تصبح كردستان بلداً تكثر فيه الميليشيات؟ ثم ماذا كانت النتيجة: سفك دماء كثيرة، نهب وسرقات، تشرد عشرات الألوف من الأكراد ومن ثم هذه الهجرة الجماعية الناجمة عن الظروف الضعيفة نتيجة للاقتتال الداخلي.

وفي الصفحة (٢٥٧) يتحدث عن انتفاضة مدن كردستان المجيدة في ١٩٨٢ ونتائجها قائلاً: «كانت أطراف جود وخاصة حشع يحثون الجماهير في اذاعاتهم على مواصلتها الى أن يسقط النظام» ثم يقول: «أما نحن فقد كنا نوجه منظماتنا السرية الى انهائها بهدوء، كما وغيرنا لهجة اذاعتنا التحريضية».

نعم، لقد كنا ولا زلنا، ندعو الى استمرار النضال الى أن يتم اسقاط النظام، وكما أعرف فانك أنت وتنظيمك، والى أسابيع معدودة قبل ذلك، كنتم تدعون الى ذلك أيضاً، الا أنكم غيرتم توجيهاتكم لمنظماتكم وغيرتم لهجتكم التحريضية في اذاعتكم، ليس لبعد نظركم، كما تريدون الايحاء به، بل لأن النظام «قد خطا بعض الخطوات الجيدة في تقليله القمع في المدن» كما زعمتم!. لماذا لا تقول انكم حاولتم تمهيد الطريق للعودة الى النظام، ذلك أنك وفي نفس الصفحة وبالضد مما جاء في عدد قليل من الأسطر التي سبقتها قد اعترفت بـ«ان النظام قمع الانتفاضة بشدة». ومن ثم تقول: «ان فاضل البراك في تقريره الى صدام كتب يقول: كان عدد القتلى والجرحى والمعتقلين كالآتي: في السليمانية: (١١) قتيلاً و(٢٣) جريحاً و(١٣١) معتقلاً. وفي كركوك: (٦) قتلى و(٩٥) جريحاً و(٢١٠) معتقلاً. وفي اربيل: (٧) قتلى و(٢٠) جريحاً و(٤١٠) معتقلاً.

ان هذا هو ما يريده نوشيروان حينما يقول: «ان العراق وبغية التخفيف من الامتعاض، حقق قسماً من هذه المطاليب وخفف القمع والارهاب في المدن»!.

وفي الصفحة (٢٦٧) يقول «لقد قال الملا أحمد بانيخيلاني: اننا قلنا بأننا سنتخذ .

موقفاً ولم نقل بأننا سنعلن عن موقفنا!. وحقيقة المسألة لم تكن كما نقلت الى نوشيروان وبالشكل الذي يردده الآن. فقد كنت قد قلت: اننا سنتخذ موقفنا اذا لم يقبل (البارت) بموقف حزبنا. وكما هو معروف فان اتخاذ الموقف في السياسة يمكن أن يتجلى بالعديد من أشكال الاعلام والنشر وغيرها. ولكنه كما يبدو لا يمكن أن يعني عند نوشيروان، حينما يتعلق الأمر بالبارت، الا اعلان الحرب عليه، لاغير.

ويقول كذلك: «لقد كان حدك يهاجم حدكا في الجانب الايراني باستمرار، ولم يكن حشع ينتقده أبداً، الا أنه كرس كل امكانياته الاعلامية ضد الاتحاد حينما توجه الاتحاد لمساعدة حدكا».

انني مضطر هنا الى القول بأن الأمر لم يكن كذلك هذه المرة أيضاً، يا كاك نوشيروان!. فاننا لم نصدر بياناً أو احتجاجاً ضد مساعدة اوك لحدكا، أولاً، وأصدرنا، حينما هاجم البارت حدكا بياناً أذيع من قبل اذاعتي حدكا وحشع (صوت الشعب العراقي وصوت كردستان) ثانياً، وبامكانك وبامكان أي شخص آخر الحصول على نسخة من البيان من أرشيف اعلام حشع وحدكا، وبسبب من هذا البيان أصدر الايرانيون أمراً بالقبض عليّ!!.

انني في الحقيقة لا أود الخوض في التهجمات التي شنها نوشيروان على حدكا وتصغيره لشأنهم، فهذه هي مهمتهم، غير انني أدعو القارئ الكريم الى ملاحظة ما جاء في الصفحة (٢٦٤) من الجزء الثاني من كتابه ليعرف ما اذا كانت المساعدات التي قدموها لحدكا من منطلق قومي، أم من منطلق الثأر وتطمين جهة أخرى، وتهيئة طريق التفاوض مع صدام؟!. انه يقول: «لم تكن قد بقيت لنا أية علاقة مع ايران في ذلك الوقت، ولم تكن لنا أية آمال بأن تقوم ايران بمساندة واسناد الاتحاد أو المعارضة العراقية، بل وكنا قد توصلنا الى القناعة بأن ايران لم تكن فقط غير جدية في مساعدتها للمعارضة لاسقاط النظام، بل وكانت تعمل لتفتيت الصخر والشجر والشيعة والسنة والكرد والعرب والمعارضة والنظام، أو على الأقل اضعافهم واذلالهم!!». . «وكانت قد وصلت وجبة كبيرة من المساعدات العسكرية للاتحاد تناهز الخمسة آلاف كلاشينكوف والألف من الـ(R.B.G) ومئات الهاونات والصواريخ، وكان المسؤولون الايرانيون قد وعدوا بفسح المجال لنقلها الى كردستان عبر ايران، غير أنهم سرعان ما وضعوا اليد عليها حال وصولها ايران!».

مرة أخرى أقول: ليلاحظ القارئ هذه المقاطع من أقوال نوشيروان ويرجع الى كتابه ويعيد قراءة الموضوع وسيتوضح له بسهولة: ان مساعدة الاتحاد لحدكا في هذه المعارك

لم تكن من منطلقات قومية بحتة، بل للثأر وتطمين طرف آخر!. والا فما الذي جعل نوشيروان ورفاقه يوقعون اتفاقاً ستراتيجياً طويل الأمد مع ايران اذا كانوا يرون انها ضد العراق عموماً بعربه وأكراده، بشيعته وسنته؟!. أيمكن القول ان ايران عام ١٩٨٥ لم تكن هي هي ايران عام ١٩٨٢؟، وهل تغيرت سياستها ازاء الكرد نحو الأحسن، ام ان سياسة تنظيم نوشيروان انزلقت نحو الأسوأ؟ وما الذي تعنيه العلاقات الحالية الحميمة التي تربط الاتحاد بايران هذه الأيام، ولماذا يقوم نوشيروان وحزبه بمساعدة حدكا الآن، أو على الأقل لماذا لا يكفون عن العمل على كسر ظهره بدلاً من يكونوا له ظهيراً!!.

وفي الصفحة (٢٨٨) يقول: «لقد انزعجت ايران من الاتحاد انزعاجاً كبيراً حينما تصدينا لمساعدة حدكا، ولم تكن ترضى باحلال السلام بين جود والاتحاد، وكان باب الخيار السياسي أمام جود مسدوداً تحت ضغط ايران، ولم يكن أمامنا غير خيارين صعبين لا ثالث لهما، أولهما: اخلاء الساحة لجود والعودة ـــ كما كانت بعض أطراف جود تقول ـــ الى اسطبلات (بكرجو). والثاني: ان نصمد ونطردهم. فقد كان لجود ايران تلجأ اليها، اما نحن فلم يكن لنا مكان نتوجه اليه لا في الأرض ولا في السماء»!!!.

ان نوشيروان يتحدث عن نفسه بقدر كبير من المسكنة والبراءة، تجعل «الكافر نفسه يرثي لحالهم» كما يقول الأكراد. فان كان الأمر كذلك حقاً فلماذا أوصلوا أنفسهم الى هذا المنحدر السياسي ومن الذي دفع بهم ليقوموا بذلك؟!. غير أن الحقيقة هي غير ما يدعيه نوشيروان من أنه لم يكن لهم مكان لا في الأرض ولا في السماء، بل كانوا يريدون «بلع» الأرض والسماء دفعة واحدة»!!.

فلقد حضر نوشيروان نفسه اجتماع التوقيع على الاتفاق بين اوك وحشع في السادس من شباط عام ١٩٨٣ وكذلك الاتفاق المبرم قبل ذلك بين اوك وحدك في مقر حشع في بشتاشان عام ١٩٨٢ اضافة الى الاتفاقيات المعقودة بينه وبين حدك وحسك في سهل اربيل. فلا أدري كيف كان باب السلام مسدوداً مع جود بعد كل هذا.. هذا أولاً! وثانياً: هو يقول: «لقد أخرجنا جود بحيث لا يمكنهم العودة الا بعد سنوات»!. فان كان الأمر كذلك فلماذا لم يكن ثمة مكان تتوجهون اليه لا في الأرض ولا في السماء؟ أما عن غضب ايران فسببه لم يكن مساعدتكم لحدكا فقط، لأن قتالكم ضد ايران لم يدم الا أسابيع محدودة، وكان هذا ترضية وتطميناً لحكام بغداد!. ان العلاقات بين الاتحاد وايران كانت مستمرة الى أواسط ١٩٨٢ وقد بدأت الشكوك تساور ايران شيئاً فشيئاً، بعد توالي زيارات الوفود الحكومية العراقية الى ناوزنك في أيلول ١٩٨٢ وتقرب الاتحاد من النظام العراقي أيضاً.

وفي الصفحة (٢٨٩) تحت عنوان (اتهامات حشع) يقول: «لقد كان حشع قد جعل من معركة بشتاشان وسيلة للدعاية ضد الاتحاد. والحقيقة ان الكثير مما كانوا يرددونه كان ملفقاً. فكانوا يدعون بأن هجوم اوك كان بطلب من الحكام البعثيين وبمساعدتهم وترضية لهم، كجزء من عربون الاتفاق مع الاتحاد».

حسناً، كاك نوشيروان! أي من هذه الأقوال كانت أكاذيب ملفقة؟ هل قتلكم الشهداء الـ (٦٥) الذين قتل البعض منهم بعد أسرهم؟ أم نهبكم لممتلكات وأجهزة وذخيرة المقرات؟. مرة أخرى أكرر: أي من هذه الاتهامات كان كذباً؟!.

وفي الصفحة (٢٩٧) يصف تضامن الأحزاب الشيوعية والديمقراطية وأنصار السلام ومحبي الانسانية في العالم مع الحزب الشيوعي العراق وادانتهم لجريمة بشتاشان الدموية التي هزت وجدان الانسانية بما يسميه (قرقرة الوز). لا يا كاك نوشيروان ان ذلك لم يكن قرقرة وز بل صوت الانسانية ومحبي السلام واعداء الحرب، انه صوت التضامن الاممي الحقيقي!.

وفي النهاية أود أن أقول لكاك نوشيروان ولحملة أفكاره·

أولاً: ان محاولة تشويه الحقائق لن ينجي المذنبين من مسؤولياتهم أمام التاريخ عن الكوارث التي سببوها لشعبهم.

ثانياً: يقول الكرد: ان من مات تركه حتى الشيطان وشأنه. ان بذل الجهود والمثابرة على تشويه اسم وسمعة وتاريخ مصطفى البارزاني والبارزانيين المليء بالتضحية من أجل شعبهم أشبه ما يكون بمحاولة حدل الماء بحادلة ونتيجتها لن تكون الا الاضرار بمن يقوم بها وفقدان الموضوعية. لا شك أنه ليس هناك قائد أو شخصية معروفة في هذه الدنيا لم تكن له نواقص أو لم يبدر منه أعمال ضارة. ومن الواضح أن لحياة الرئيس البارزاني،شأنه شأن جميع القادة الأكراد جانبين، فانه الى جانب ما قام به من أعمال مفيدة ومليئة بالنتائج الايجابية لشعبه فقد كانت له بعض الأعمال السلبية والمضرة. وليس هناك شخصية كردية أو غير كردية يمكن أن توضع خارج دائرة النقد، ولكن النقد ينبغي أن يكون موضوعياً وأن يجري تقييم الامور بضمير ومنطق، وليس النقد المليء بالحقد والضغينة الشخصية وتشويه الحقائق، سواء فيما يتعلق بالبارات أو فيما يتعلق بشخص البارزاني أو فيما يتعلق بالقوى والشخصيات الأخرى والذي لا يستفيد منه الا الأعداء.

ومن الواضح أن القتال بين اوك وحدك في سبيل السلطة، قد تسبب في انزال الخراب والدمار في كردستان اضافة الى الدمار الذي ألحقه صدام ونظامه بها. ان ما لم يستطع

صدام القيام به خلال ربع قرن قد تمكن اوك وحدك من القيام به وهو تقسيم كردستان الى منطقتين تسيطر عليهما الميليشيات، وان الفرصة الجيدة والملائمة التي سنحت لكردستان العراق قد باتت قاب قوسين أو أدنى من الضياع. وأن مخاطر تصدع المجتمع الكردي وتشويه شخصية الانسان فيه ماثلة للعيان، اضافة الى ابتكار وشيوع لغة سوقية هابطة ومقرفة في المؤسسات الاعلامية، لغة السباب والشتائم واختلاق التهم، والقسوة والبطش في السياسة الكردية والتي لن تنجب لنا الا أحفاداً هزيلين لا ترجى منهم أية فائدة ولا تجيد أفواههم الا السباب والشتم البذيء، وللأسف فان مؤسسات الاعلام التي تسترشد بفكر نوشيروان في هذه الناحية تسبق مثيلاتها بأشواط. والكارثة الأكبر من كل هذا الصفات التي يتقاذفها الطرفان ضد بعضهما البعض. ترى ولا يجرؤ أي طرف من الطرفين استخدامها في الحديث عن المخططات والمؤامرات التي تقوم بها الدول التي تتحكم بكردستان ضد شعبنا الكردي وحركته التحررية.

انني أرى أن أية اهانة لأي طرف هي اهانة للطرف الأخر وإساءة للشعب الكردي، لأن كلاً من الطرفين أراد أم لم يرد فانهما يقفان في خندق واحد هو خندق الكوردايه تي، وأن الذين يقفون من بعيد لتأجيج نيران القتال واحماء سوق الشتائم وتبادل الاتهامات بالخيانة وخدمة النظام الدكتاتوري كجحوش. . . الخ لن يمضي وقت طويل الا ويندموا على ذلك، ولن يبقى لهم الا الخجل مما يقومون به، لأن طرفي القتال، رغبا في ذلك أم لم يرغبا، لا بد وأن يتصالحا، وكما هو معروف فان جميع الحروب العالمية والمنطقية والأهلية في جميع أنحاء العالم لم يوضع لها حد الا بالحوار والجلوس حول طاولة المفاوضات.

لذا فانه لمن الضروري أن تتعلم قيادتا الحزبين، بما فيهما نوشيروان نفسه، من حياتهم ومن تجاربهما الذاتية وتجربة شعبهما وشعوب العالم. وان يجنحا للسلم ويصونا دماء الشبيبة الكردية ويتعاونا ـــ مع كل القوى الخيّرة لشعبنا لبناء ما خربه النظام الدكتاتوري والحصار الجائر والاقتتال العبثي فيما بينهما.

والآن وقد تحول القتال بين قادة اوك وحدك الى قتال للدول المجاورة ولصالح أعداء الشعب الكردي فان من الضروري والملح جداً أن يتخلوا عن التفكير بالثأر وتصفية الأحقاد، وأن يفكروا بمصير شعبهم المبتلى وبلدهم المدمر، وحينئذ فقط يمكن لهم أن يوقفوا هذه الكارثة، وأن يخرج شعبنا منها ـــ على الأقل ـــ بخسائر أقل!!.

أيلول/ ١٩٩٧

مناقشات

حـــول أصـــل الأكـــراد

د. وهبية شوكت محمد

في العدد ٢٧٨ مقالة بعنوان «لكي لا تكتسب الضحية سمات الجلاد» بقلم عبدالله عطية، رداً على «لمحة عن تاريخ الكرد وحضارتهم القومية» من دراسة أعدها الأستاذ محمد أمين عبدالكريم. وأحب القول هنا:

١ــ الحضارات ليست وقفاً على شعب أو قوم، بل هي أشكال تواصل انساني اشتركت فيها البشرية وتعاقبتها الأجيال... ولا يحق لشعب أو قوم ما الادعاء بأن حضارته هي حضارة مستقاة بأصولها وجذورها من نتاج شعب أو قوم آخر.

٢ــ أن الثقافة واللغة أيضاً تتبلوران بتواصلهما مع ثقافات ولغات مجموعات بشرية لها علاقات اقتصادية وتجارية وجيرة جغرافية.

٣ــ الأكراد، كأي شعب آخر، تبلورت معالم قوميتهم ومقوماتهم القومية عبر ارهاصات التاريخ والتواصل الثقافي واللغوي مع الأقوام والشعوب المجاورة عبر ما ينوف على عشرة آلاف سنة. أما بالنسبة الى مصطلح الكرد وكوردستان... فهي مصطلحات حديثة يعود تاريخها الى الحقبات الاسلامية (بالأحرى العثمانية). وكانت كوردستان تدعى قديماً ميديا والأقوام القاطنة فيها الميديين.

٤ــ كانت أراضي كوردستان في العصور ما قبل الميلاد تسمى الأراضي الميدية (الماد) والأقوام التي تعيش عليها الأقوام الميدية... وفيما بعد اتحدت هذه الأقوام فيما بينها وشكلت ما سمي «اتحاد الأقوام الميدية». واستطاع هذا الاتحاد أخيراً تشكيل قوة

رادعة لمقاومة الحملات العسكرية للامبراطورية الآشورية، ومن ثم تكوين دولة موحدة قوية وهي الامبراطورية الميدية الكبرى التي بلغت أوج عظمتها من عام ٦١٢ الى ٥٥٠ ق.م.

٥ـــ أما الأقوام الذين كونوا هذا الاتحاد فهم: أـ الكوتيون، ب ـ الولو ج ـ الحوريون (الهورينيون) د ـ الكاسيون. فهم يكونون الأصول الأثنية للأكراد الحاليين الذين لا يزالون يعيشون في المناطق نفسها التي عاشت فيها هذه الأقوام أ ـ الكوتيون في شمال غرب سلسلة جبال زاغروس الى منطقة جبال أرارات وشمال بحيرة (وان) ب ـ الهورينيون (الحوريون) في جنوب بحيرة وان الى المناطق الحنوبية الغربية من آسيا الصغرى وجزء من شمال سورية ومناطق أربيل وكركوك امتداداً الى جبال زاغروس والقسم الوسطي منها في الجانب الايراني الحالي ج ـ اللولو في مناطق سهول شهرزور شرق مدينة السليمانية د ـ الكاسيون في القسم الجنوبي من سلسلة جبال زاغروس مجاورين للسومريين والبابليين والأكاديين والعيلاميين

٦ـــ ان مناطق نزوح الأكراد لم تكن آسيا الوسطى أبداً كما يقول الكاتب عبدالله عطية بل ان المصادر التاريخية تذكر ثلاث نظريات عن أصل الأكراد الاثنيين القدماء:

أ) أنهم وجدوا في المنطقة نفسها حيث المياه الدافئة التي ساعدت على وجود الأحياء البشرية الأولى وذلك استناداً على التنقيبات الأثرية في الكهوف (مثل شانيدر، هزارميرد، شامثو وكهف القساوسة وحساروت. والمجمعات السكنية الشبه القروية المكتشفة في نيفالي تشوري جنوب مدينة أورفا الحالية بعد تشييد سد اتاتورك على الفرات، المنطقة السكنية في كابونو قرب دياربكر (أمد) الحالية وقرية جرمو قرب مدينة جمجمال على الطريق الرئيسي بين كركوك والسليمانية. والتواريخ المشارة الى هذه القرى هي ١٠آلاف، ١٢ آلاف و٦ آلاف سنة أما الرسومات في الكهوف المذكورة أعلاه فتعود الى العصر الحجري ـــ الحديث (نيوبوليت)

ب) كونهم أنهم نزحوا من شمال أوربا عن طريق القفقاز كشعوب هندو ـــأوربية... وهذه النظرية تثبت عدم صحتها المكتشفات الأثرية الجارية في المنطقة... حيث أن تاريخ نزوح الأكراد المشار اليه يعود الى العصور الجليدية حين كانت أوربا غارقة في عصور جليدية فليس من المحتمل نزوح موجات بشرية من أراضي مغطاة بالجليد أو حتى وجود مستوطنات بشرية هناك في تلك العصور

ج) يعتقد بعض الأثريين أن أصل الأكراد من السومريين (السومريون كونوا

حضارة متقدمة في جنوب وادي الرافدين في الألف الخامس قبل الميلاد ومن المعتقد أنهم من منطقة سلسلة جبال ارارات والقسم الشمال الغربي من جبال زاغروس) وقد دلت الدراسات الانتروبولوجية على أن شكل الانسان السومري لا يختلف كثيراً عن شكل الانسان الكوردي الحاضر الذي يعيش في هذه المناطق. وعدا ذلك فمن مكتشفات مكتبة آشوربانيبال في نينوى ومكتبة أوركيش عاصمة الهورنيين (الحورينين) قرب مدينة عامودة في شمال سورية. وتطابق القواميس المكتشفة في هذه المكتبات باللغة السومرية و الخط المسماري ومقارنتها مع مثيلاتها من الكتابات المسمارية الأورارتوية والقواميس والتي هي كتابات مشتركة للأقوام الكوتية والهورينية، تطابق في شكل صيغ الكلمات وجذورها واشتقاقاتها.

٧ـ أما عن الامبراطورية الميدية، فهي ليست وهمية ولا مبالغاً فيها. . . فقد تأسست الدولة الميدية حوالي ٧٦٨ ق.م كدولة صغيرة وكانت هناك دويلات كثيرة في المنطقة مثل دولة كوتيوم ٣٥٠٠ ق.م – ٢٥٠٠ ق.م، دولة لولوبي ٤٠٠٠– ٣٥٠٠ ق.م. امبراطورية اورارتو ١٥٠٠ – ٦٠٩ ق.م. مانا ١٢٠٠– ٦١٢ ق.م، ميثانيا ١٥٠٠– ٦١١ ق.م وغيرها من الدويلات الصغيرة. فيما بعد اتحدت الأقوام المذكورة بقيادة الدولة الميدية الصغيرة تحت اسم (اتحاد الأقوام الميدية) وأسست الامبراطورية الميدية الكبرى وارفق نسخة من خريطة هذه الامبراطورية والدول ليعلم الكاتب الأستاذ عبد الله عطية بأن الباحث الأستاذ محمد أمين عبد الكريم لم يأت بمعلوماته من الفراغ (. . .)

. . . فلماذا هذا الغمط والاجحاف بحق شعب سكن المنطقة منذ آلاف السنين بغض النظر عن أصوله وجذوره ومناطق نزوحه أصلاً. ثم أن الشعوب لو غيرت لغاتها أو ثقافاتها واعتقاداتها الدينية فهي تبقى من نفس الأصل والجذر. فمثلاً غير المصريون لغتهم أربع مرات في التاريخ من المصرية القديمة الى القبطية والهيلينية ومن ثم العربية ولكنهم بقوا رغم ذلك مصريين وكذلك الآذربيون غيروا لغتهم الى التركية بعد الاجتياح المغولي– التتري. وشعوب غيرها. . . الخ.

٨ـ لم يتعاون الميديون مع الفرس في القضاء علي الامبراطورية الآشورية. . . بل تعاون الميديون مع البابليين لأن الفرس لم تكن لهم دولة قوية آنذاك، حيث تعاون الملك الميدي كياكسار (كيخسرو) مع الملك البابلي (بنوبلاصر) واسقطوا الامبراطورية الآشورية بدخولهم نينوى عاصمة الآشوريين قرب الموصل في آب ٦١٢ ق.م في عهد الملك الآشوري (سين شاريشكون – ساراك) الذي انتحر برمي نفسه في نار قصره

عند دخول الحلفاء. . . ولقد نشأ هذا التحالف من زواج ابنة كياكسار ثامئي تيدا (ميداس) من ابن بنوبلاصر الأمير بنو خذنوصر الذي أصبح ملك بابل وبنى لها الجنائن المعلقة. وليس كما يعتقد كاتب المقال. ولا أعرف مصادر معلوماته الخاطئة هذه!!؟.

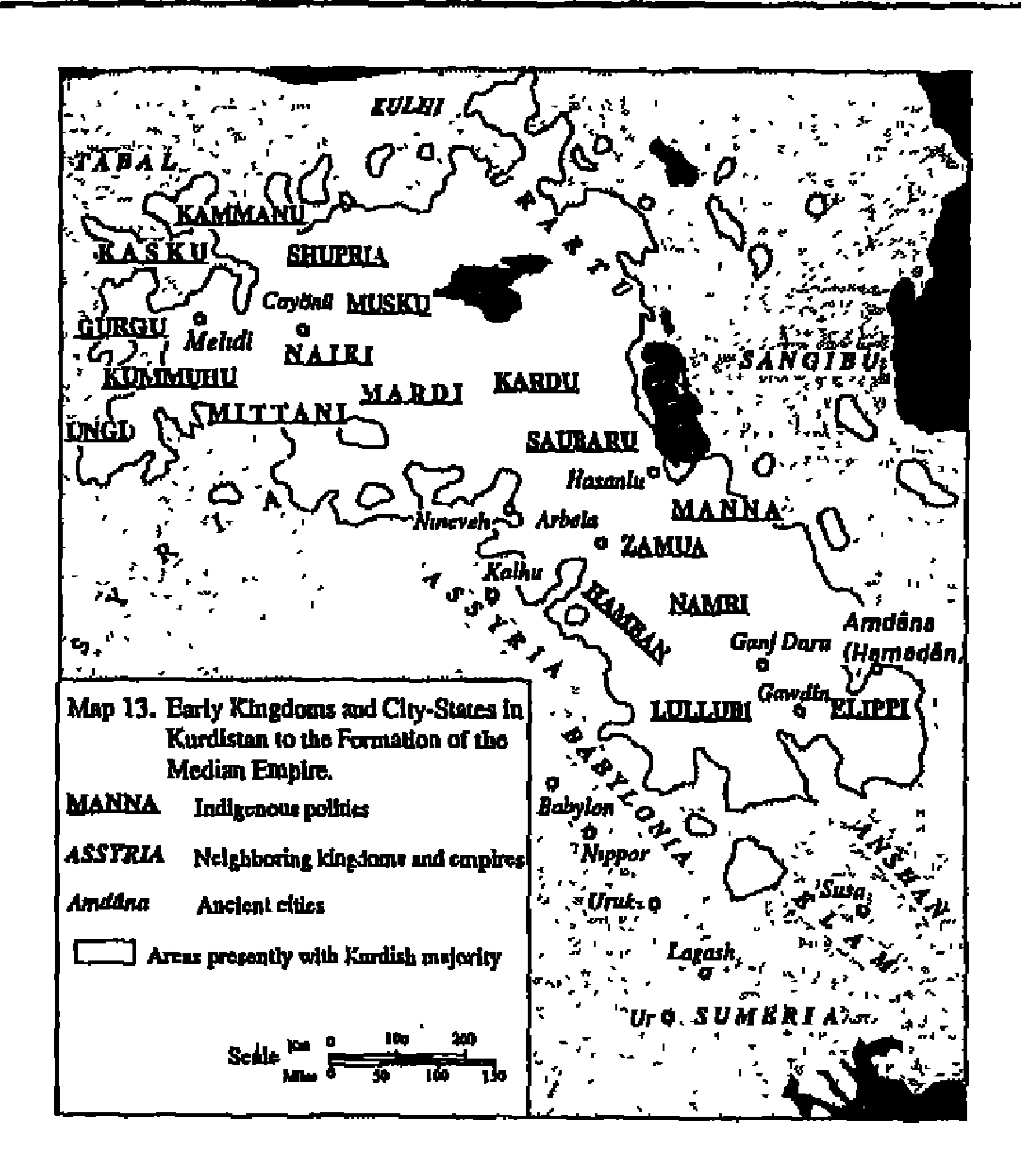
٩ـ قضى كورش الثاني الفارسي الاخميني على الامبراطورية الميدية في عهد ملكها استياك بعد معارك طاحنة دامت ثلاث سنوات عام ٥٥٠ ق.م. ثم تأسست الامبراطورية الفارسية على أثرها.

١٠ـ أما بالنسبة الى تاريخ كوردستان بعد الاسلام فليس هناك داع للرد على ردود الكاتب المحترم لأن الوثائق والأدلة كثيرة في هذا الصدد ويمكن لكاتب المقال قراءة أية مصادر تاريخية اسلامية عن ذلك

أخيراً أرجوه أن يقرأ بعض المصادر مثل:

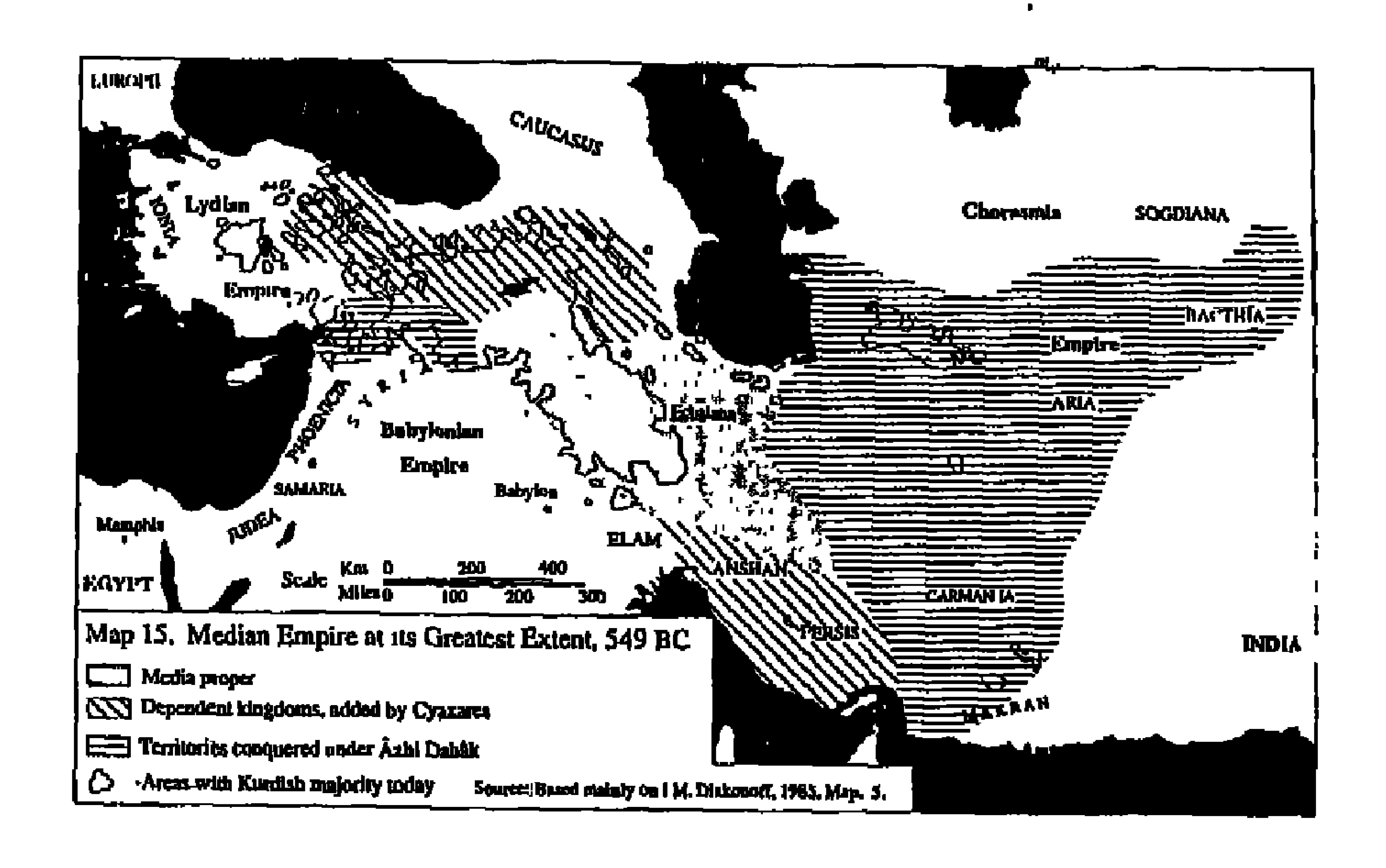
١)ميديا ـ عن الامبراطورية الميدية، كتاب بحث دراسي شيق ٩٠٠ صفحة ألفه الأستاذ ئي.م.دياكونوف خبير الآثار وفقيه اللغات الشرقية القديمة وخبير القطع الأثرية القديمة في متحف ارميتاج لينتغراد ترجمة كاتبة هذا المقال. ٢) The Kurds لميهرداد ازادي ٣) مينورسكي: الأكراد ٤) تامابوا: حياة الأكراد ٥) الأكراد وكوردستان لمحمد أمين زكي في جزئين عن تاريخ الأكراد القديم والحديث.

دمشق ١٩٩٧/١٢/٢٤



Map 13. Early Kingdoms and City-States in Kurdistan to the Formation of the Median Empire.

دول المدن على أرض كردستان الحالية قبل تأسيس الامبراطورية الميدية



Map 15. Median Empire at its Greatest Extent, 549 BC

الامبراطورية الميدية في مداها الأوسع عام ٥٤٩ قبل الميلاد


أدب وفن

المسير أعظم من البلوغ

من ثلاثينات هذا القرن العشرين حتى تسعيناته، وآذار ونيسان يحفلان دوما ــ في تاريخنا العراقي ــ بما ينمُّ عن الاصرار على المسير نحو الشمس، مثل إصرار كلكامش على المسير نحو عشبة الخلو. وإذا كان مسير كلكامش لم يؤدِّ إلى تلك العشبة، فإنه أدى إلى ما هو أعظم منها.. المسير نحو الشمس.. المسير نحو إيثاكا، وسيظل ذلك دوما، فالمسير أهم من البلوغ وأعظم! فلا غرابةً أن يولد حزبٌ للمُستَضْعَفين، مثلما لا غرابةً أن يصاب بالنكسات.. وليس غريباً أن يُفَجِّر الناسُ انتفاضة آذار ـ شعبان ١٩٩١، مثلما ليس غريباً أن تُقمَعَ تلك الانتفاضة ذلك القمع الرهيب..

.. المسير متواصلٌ، والطريق لا حبةٌ رغم الهَبَوات، وآذار كفيل بنبض الجذور، ونيسان يقول لنا أغصانَ تلك الجذور وأوراقها وثمارها، ولن نبلغ الشمس إلاّ بالمسير، والمسير أعظم من البلوغ.

هنا ـ وفي هذا العدد ـ يسرنا أن نحتفي ببعض من ثمارنا الابداعية، فنهنئ فناننا الكبير محمود صبري ببلوغه السبعين، وفنان شعبنا خليل شوقي ببلوغه الخامسة والسبعين، وننشر ـ بمناسبة بلوغ فنان الجنوب طالب غالي عامه الستين ـ بضع مساهمات حميمة، وردتنا من أحبائه المبدعين، تتبعها قصائد باللهجة المحكية العراقية، التي كانت وما تزال الوسيلة الأجمل في الغناء العراقي الذي يُعدُّ طالب غالي واحداً من مبدعي نخيله وأنهاره وآبلامه العَشّاري!

«أدب وفن»

المحرر

نزار قباني يرحلُ
رحلةً لن يكتبَها !

رحل «الأوتوغرافُ» الأنيقُ.. هذا **المُخبّأ**، بفرح، تحت وسائد الصبايا، وتحت قمصان الشبّان.. هذا **المُهَيّأ** لقولٍ جديدٍ في شؤون العرب التي تَستَجِدُّ، وشجونِهم التي تستبدّ!

.. رحل نزار قباني، ونحن لا نرى إلا حضورَهُ (وتجدُّدَ حضوره) في المكتبات والأغاني.. **في الأجيالِ المتعاقبة** منذ (طفولة نهد)، **والأجيالِ الخائبة** منذ (هوامش على دفتر النكسة)!

.. رحل نزار، ولمّا يرحلْ عنا عذابُ ذلك «النهد» في «طفولته»، ولا وَجَعُ هذا «الوطن» في «نكسته»!

ومادام نزارُ الشاعرُ قد رحل رحلةً لن يتمكّنَ هو من الإفصاح عنها، فنحن ـ إذن ـ مطالبون بمواصلة الروحِ نحو ذلك «النهد» حياةً، ونحو هذا «الوطن» قضيّةً!

مهدي محمد علي

تهنئة الى ...

الأستاذ الفنان محمود صبري

في مناسبة عيد ميلادك السبعين نمد إليك الأيدي مهنئين بحرارة ومحيّين فيك الفنان والمفكر والإبن الوفيّ لشعبنا ووطننا.

لقد أوقفتَ نفسك وكرستَ مواهبك وقدراتك، منذ حوالي خمسة عقود من السنين حتى اليوم، لقضية الناس والحياة والفن والتقدم الانساني. وفي مسيرتكَ الحياتية المفعمة بالتطلع السامي والسعي الهادف المثابر أغنيتَ بثمار عقلك وروحك المبدعَين ثقافة شعبنا، ووضعتَ تلك الثمار في متناول أبناء الشعب وسيلة للإنعتاق والإرتقاء الإنساني.

من القلب نحييك ونتمنى لك العافية المقيمة والحيوية، ونبقى نطمح دائماً إلى جديد ذهنكَ الخصيب وروحكَ المتوهجة معرفةً وجمالاً.

اللجنة المركزية

للحزب الشيوعي العراقي

الأستاذ الفنان خليل شوقي

يسعدنا أن نبعث إليك، وأنت تحتفل بعيد ميلادك الخامس والسبعين، أحر التهاني وأخلص التحايا وأطيبها.

لقد كنت دائماً من ذلك البعض من الناس، الذي يعارك الزمن وعادياته والصعاب وأعباءها والخيبات ومراراتها، ويبقى يعمُر حياة وضياءً وإبداعاً، ويهب الدفء والفرح والجمال ويحضُّ عليها. ومازلتَ اليوم كذلك، وأنت تحيي عيدكَ اليوبيلي، متقد الذهن،

خلاق الروح، مضطرم القلب حباً للناس، ساعياً معهم إلى الخلاص من عهود الظلم والظلام ـــ عهود الجوع والكبت والهوان.

وليس صدفة أن العراقيين اعتبروك على الدوام ـــ ويعتبرونك ـــ فنانهم ـــ فنان الشعب.

معهم جميعاً نتمنى لك في هذه المناسبة العزيزة طول العمر ودوام الصحة والنشاط والعطاء.

اللجنة المركزية
للحزب الشيوعي العراقي
شقلاوة ١٤/١١/١٩٩٧

الرفيق العزيز الفنان طالب غالي

نغتنم مناسبة بلوغك العام الستين، لنتقدم إليك بجميل التهاني وطيب التمنيات.

إن أمثالك من المبدعين الشعبيين، مستلهمي روح الناس وتراث الوطن، ومتنكبي رسالة الفن من أجل الحياة، هم الذين يحولون المرارات الى أناشيد، ويحيلون الأحزان غناء وهلاهل.

مع محبي فنك الكثيرين، يا من تغنيت بالنخل والشط والبلم العشّاري، وغنيت للناس ومن أجل الناس، في زهوة الأعياد كما في عتمة العذاب والتشرد والغربة.

نرجو لك دوام الصحة والنشاط والمسرّة، ونتطلع الى جديدك الجميل دوماً.

اللجنة المركزية المركزية
للحزب الشيوعي العراقي
شقلاوة ٤/٣/١٩٩٨

ستينية طالب غالي

صوت الوطن في غناء «طالب غالي»

زينب

لو تصفحنا عالم الغناء العراقي الذي التصق بالتربة العراقية وارتوى من رطوبتها وهام مع الطيور المغردة في سماها، ليغرس بين جوانحنا أعذب الأحاسيس وأجملها، معطراً بأريج الحنان والعاطفة الصادقة.. لوجدنا أن أغلبه جاء من جنوب العراق الذي يتجرّع الآن كل العذابات الموجهة إليه من قبل السلطة الغادرة والحصار الدولي الجائر وقد نال ثغر العراق الجميل (البصرة) بشكل خاص أثقل الأوجاع وأمرها.. هذا الثغر المبتسم دائماً لكل زائر.. المحتفي بكل غريب.. الثغر الذي جعل من نفسه وطناً للجميع.

هذا الثغر أنجب لنا أعظم الشعراء الذين عاشوا حياة مجتمعهم بعمق فذاقوا حلوها ومرها وجاءت أشعارهم صوراً لتاريخ حقبة لا ينمحي. أشعارهم هذه التي عشقها الناس وتغنوا بها مثل: بدر شاكر السياب، سعدي يوسف، محمود البريكان، عبد الكريم كاصد، مهدي محمد علي، صلاح نيازي وغيرهم من الذين ارتوت نفوسهم بهموم العراق وأهل العراق.

وهذا الثغر أنجب لنا فناناً سينمائياً أصيلاً ليسجل اسمه كأبرز فنان سينمائي شعر منذ الوهلة الأولى أن هذه السلطة لن تسمح للكلمة الحرة بالانطلاق ولا للصورة النبيلة بالظهور. فآثر الهجرة إلى دار الغربة خوفاً على ملامح فنه من التشويه. إنه الفنان المبدع قاسم حول.

وهذا الثغر نفسه أنجب لنا فنانين مسرحيين مخلصين لإبداعهم وللوطن فأعطوا

للمسرح وجهه الحقيقي الذي يجسد صورة الحياة بعمقها.. بما فيها ومنهم: لطيف صالح، علي فوزي، علي العضب، جبار العطية، قصي البصري، فلاح هاشم، والمرحوم توفيق البصري.

أما في عالم الغناء والتلحين فقد ارتفع الصوت البصري مجلجلاً أخاذاً ساحراً مثل طالب غالي، كوكب حمزة، فؤاد سالم، حميد البصري وغيرهم.

وبين فنون الغناء والشعر والسينما تبرز اللوحة المعبرة بأناة عن روح العراق شمالاً وجنوباً ـــ لتلقي الضوء على جوانب الحياة الصارخة بحقيقة المعاناة.. فتبرز أسماء لامعة مثل: فيصل لعيبي، عفيفة لعيبي، صلاح جياد ـــ مكي حسين ـــ هادي الصكر، حسين شويِّل، محمد سعيد الصكار، وقد تكون هناك أسماء من المبدعين عموماً ممن لم يسعفني الحظ باللقاء بهم فأرجوهم ـــ المغفرة ـــ وأتساءل هنا.. هل حظي هؤلاء المبدعون بما يستحقونه من تكريم وتقييم؟!!

ولماذا تغافلت عن عطائهم أقلام النقاد أو أدعياء النقد!!

ولماذا يحظى الفنان العربي في كثير من البلدان العربية بكل آيات التمجيد والإكبار!!

وتغرد لهم الصفحات الطوال في الاشادة العالية؛ بيما يحرم مبدعونا من كل هذا!!

وأتساءل أيضاً لماذا يجانب نقادنا هذه المهمة الثقافية التي تتيح للأجيال القادمة الاطلاع على كنوز فننا الإبداعي في الشعر والموسيقى والمسرح والسنيما والغناء لاسيما ونحن نعيش مرحلة قاسية تغلفها الظلمة من كل جوانبها من اضطهاد وتجويع وحرمان!!

هذا الظلم المسلط على رقاب أبناء شعبنا الطيب من شماله الى جنوبه من قبل القابعين على كرسي الحكم يلعبون بمصائرنا كما يلعب الماهرون ببيادق الشطرنج؟!

انه من واجب النقاد الآن أن يتبعوا آثار هؤلاء المبدعين ليقولوا كلمة الحق في عطائهم النبيل، ففي عالم الغناء مثلاً نبحث عن أولئك الذين طحنتهم المأساة فلم يجدوا بداً من أن ينسجوا أنغامهم من نفحات الأنين الصارخ من أعماق النفوس التي أحبوها، وكلما توغلوا في هذا النغم ازدادوا ندباً في معاناة الناس من جوع وحرمان وظلم..

إنها بلوى كبيرة ليس باستطاعة أي مبدع مخلص إلا أن يغوص في أعماقها ليقول بعد ذلك شيئاً معبراً عن مكنونه.. وهو بذلك يفي ديناً عليه تجاه كل أولئك الذين نهل من عذاباتهم أجمل ألحانه ورسم أعذب قوافيه.. ثم لتفيض عيناه بالدمع قبل عيونهم.

هنا تتلاحق الصور لأولئك المبدعين أمام الشاخصة وليبرز من بينها لعيني صورة

الفنان (طالب غالي) الصوت البصري المحنّى بدماء أبناء بلدته.. البصرة.. والملون بنغمات آلامهم وأنين عذاباتهم.. وصوت البصرة.. هو صوت العراق كله من شماله الى جنوبه فالمقصلة التي نصبت في البصرة لذبح الفرحة في قلوب الناس هي نفسها التي نصبت في بغداد ـــ وكربلاء والنجف والناصرية وكردستان وكل مدن العراق حواضر وقرى لذا عندما يغني طالب غالي.. فهو يغني معبراً عن مشاعر كل أبناء وطنه مشاركاً لهم في الفرحة والحزن والشكوى.

ومن يسمعه لا بد أن يحس باللوعة تعصره ولا يستطيع أن يغلق قلبه دون لواعج التراتيل الشجية التي تحيطه بجو من الاحاسيس النبيلة الحزينة ـــ ولا يستطيع أن يمنع دموعه من الانسياب.. وهكذا أنا عندما أستمع الى غنائه.. أجده عاشقاً مخلصاً لهذا الدمع حين يقول:

خلي دمع الحزن يذكرنا بالأحباب والوطن وآلامه
الدمع شهگة فرح للعاشگ أبد ما تاب عن حبه وأحلامه

وترتسم صورة العراق أمام مخيلته صارخة بالأسى تذكره بالغربة المؤلمة فتمحو بذاك كل صورة عن العراق فيقول:

يا عراگ تدري العمر ـــ ما يحلى من دونك
واحنا على بابك صبح ـــ نشتاگ لعيونك
يمته نشوفك فرح ـــ وانصير الك ازهار
نبقى نشيلك جرح ـــ نبقى عليك انغار
الله يا هالوطن ـــ تكبر ونبقى ازغار
خله دمع الحزن ـــ خله يفيض انهار

ويتعاظم شوقه الى البصرة المدينة الطيبة التي ترعرع تحت جوها وسماها

يا وطن شوكي الك والنخل والمِّيتك ما مثله حب وشوك

ثم يتحسر قائلاً:

وين الگه مثلك يا وطن وين ـــ انت بحلاك أجمل الأوطان

وفي منفاه القسري تتزاحم أمام عينيه صور الأهل والأحباب البعيدين عنه فتصرخ مناجاته لهم..

ياالبعيد شحالك؟ شحال الليالي ـــ غمض جفني وبالحلم شفتك يا غالي
هم ذكرتْ شلون چنِا ـــ نحلم بدنيانا جنه

لو سهر ليل الحزن عاشر جفونك ياالبعيد؟!

يالبعيد الدنيا خلتنا حيارى كل محب فارگ حبيبه وعاف داره

آه من جرح اللي بينا وقسوة الغربة علينا

يمته هذا الزمن يتغير مساره.. ياالبعيد؟!

ولكن لوعته لا تخلو من العتب على من عاشرهم وابعدته الأيام عنهم ومنهم من شاركه وطأة التشرد والغربة.. فيحزن لحزنهم وان كان يخيل إليه أحياناً أنهم نسوه ولم يسألوا عنه. فيقول في البداية:

كالو لي عنك حزين ودمعتك سايله

كالولي عنك غريب ضايع ويدور هله

تعبّت ضيم الوكت ساعة فرح ماشفت

جرح اللي بيك ينزف والنزف داخله

ويعلو عنده صوت العتاب فيقول:

يا بو عيون الفرح گلي شنو البدلك؟

لا مرة عني أسالت لا مرة گتلي شلك؟

تنس الذي انزلك بحشاشته ودللك

ولملم نجوم الفجر من كثر شوگه إلك

ويتوجّع صارخاً:

لا هي سنة عشرتك واحسبها ذكرى تمر

ولا هي سوالف عشگ ما بين وصل وهجر

شو احنا عشنا سوه واربينا ويه الهوى

وانت لعيوني دوه

ويفيض قلب الفنان بالعشق ملفوفاً بأنسجة الشوق واللهفة نحو الوطن:

عشاك ما خذنا الهوى للوطن عشاگ.. مشتاگ يا موطن هلي مشتاگ مشتاگ

اشمك وأنت عني بعيد اشتمك.. واضمّك لو يمرني عيد اضمّك

اشتاگ ألفي النخل أشتاگ أشتاگ.. اشتاگ الريحة هلي أشتاگ أشتاگ

ولكن الدرب عنيد أمام أوجاع هذا الفنان وتتشابك صور الذكريات ممتزجة بصورة أمه وصورة أهله وشط العرب الذي كان مسرحاً للحب والجمال.. وظلال النخل الذي ظلل صباه والذي هشمته بعد ذلك قنابل الجبروت والطغيان. صور حزينة تتزاحم مع صور

آلاف الجياع المصطفين أمام الأفران للحصول على رغيف خبز يتحول بعد ذلك الى دبابيس حادة تمزق أفواههم الجائعة لرداءته.

كل هذا يتجسد في مناجاة (طالب غالي) الفنان المعطاء الذي أحب وطنه وخلق من حنجرته أجنحةً تحمل أغانيه وألحانه مرفرفة في اسماعنا تهز مشاعرنا تذكرنا بأن الوطن لم يمتْ وإن كان ثوب الحزن يسربله.. بل إنه سيعيش بحبنا له.. وسنعيش معه حتى تصطبغ سماه بلون الفرح والبهجة على سنى فجر جديد.. ويبقى اسم طالب غالي.. في الاذهان:

ولكن هل يكفي هذا!! فلكي تتعمق هذه الصورة على الفنان ان يغني صارخاً بالناس ان يهبوا ويفجروا الارض تحت أقدام الطغاة ويرفعوا عالياً رايات الحيرة ليجد الشعب السعادة.

يوتوبوري/ السويد
آذار ١٩٩٨

اصدارات وردتنا

المدى ، فصلية ، العدد ١٩ ، بمساهمات لكريم مروة ، هادي العلوي ، ابراهيم السامرائي ، مجيد الراضي ، فلاح الجواهري ، محمد حسين الأعرجي ، حنا مينه ، محمود أمين العالم ، عبد الوهاب البياتي ، سعيد عقل ، سعدي يوسف ، محمد دكروب ، حبيب صادق ، محمد حسن الأمين ، خيال الجواهري ، فوزي كريم ، شاكر الأنباري ، علي الشوك ، حميد الأمين ، جواد بشارة ، بشير القمري ، عامر الدبك ، خالد زغريت ، محمد سعيد الصكار .

قصص ، فصلية ، العدد ٢ ، بمساهمات لحازم حبايب ، فوزي كريم ، محمود سعيد ، سليم مطر ، أ .س . باري ، عارف علوان ، حسام الدين محمد ، طه خليل ، لؤي حمزة ، أحمد العبدلاوي ، هـ . دهكردي ، محمود الرحبي ، كامل فرعون ، فراس سليمان ، سعيد فرحان ، صلاح عبد اللطيف ، عبد الله صخي ، كريم عبد (رئيس التحرير) .

بصريانا*

طالب غالي

بيتُنا كانَ على شاطىء نهرٍ في الجنوبْ
بينَ حمدان وكوتِ الزّين في أرضٍ سخيّه
تُنبتُ القدّاحَ والحنّاء والكرمَ المحلّى
والصباحاتِ النديّه .
بيتُنا من خفقةِ الأرواحِ منسوجُ
ومن نبضِ القلوبْ
والأغاريدِ الشجيّه .

بيتُنا . .
بينَ حنايا النخلِ مزروعُ . .
فلو هبّتْ شمالْ
هفهفَ السعفُ ومالْ

* هذه القصيدة مرسلة من الفنان الشاعر طالب غالي خارج إطار الملف، ولكننا آثرنا نشرها هنا استكمالاً للاحتفاء (ادب وفن).

نشوةً ،
وارتعشتْ خُضرُ الظّلال
وتغنّى الطيرُ والنهرُ وزهرُ البرتقال .
بأهازيجِ الجنوبْ
ومواويلِ القمرْ

كُلُّ شيءٍ في ربوعِ البصرةِ الأحلى
غِناءٌ ومحبّةْ
وترانيمُ وترْ
. . .
بصرياثا . . أجملُ الجنّاتِ في الدنيا
فعيناها سَماءٌ وبَحر
وشُموسٌ وحَمامٌ ودُموعٌ . . .،
ومحطّاتُ سفر
وعلى بسمتها الجذلى . .
يتيهُ النخلُ زهواً وعَجَبْ
ثُمَّ يأتيها بأنواعِ الرُّطَبْ
والعناقيد الذّهبْ
وتمرُّ الأنهرُ السكرى تزفُّ الشمسَ . .
في موكبِ عِرسٍ وَطربْ
فإذا أفرد جُنحيهِ المساءْ . .
ترجعُ الأنهارُ من رحلتها
وبكفّيها مئاتُ الأنجمِ الزُّهرِ
وضحكاتُ القصبْ

بصرياثا . .
كانت الأقمارُ تأتيها على جُنحِ غَمامْ
وتداري شعَرها المنثورَ بين النخلِ والنهرِ
وأعشاشِ الحمام

ثم تغفو . .
بعد أن هدهدها النايُ بأمنٍ وسلامْ

بصرياثا الآن تعبى . .
مُنذ أن هَبّت رياحُ العصفِ والنارِ عليها
من صحارى التيهِ والبحرِ وأدمت شفتيها
سبّلَتْ أجفانها الوسنى على شوقٍ وحُزنِ

فهي ما عادت تُغنّي . .
بعد ما غادرها العُشاقَ من دونِ وداعْ
وأحاطت بيتّنا العائمَ في الحُزنِ سماواتُ الحرائقْ
وتباريحُ الجياعْ

بصرياثا . .
فمتى نحتضنُ الفجرَ على أهدابكِ السُمرِ
وفي همسٍ نموتْ . .

الدانمارك
١٩٩٧/٩/١٥

ستينية طالب غالي

يا حزبي .. يا غالي

عبد الكريم كاصد

كنّا قبل سنين عدّة نظنّ الستّين علامة هرم، ولكن ما أغرب الإنسان وما أرسخ يقينه، وهل هناك ما هو أرسخ من يقين شاهدهُ شباب دائم.

ويبدو اليقين شبيهاً بالوهم حين نعرف أن هذا الشباب الدائم، شباب الملامح والروح، شهد من التجارب والعذابات ما يشيب الطفل، ولكن على الرغم من كلّ معرفتي ويقيني رأيتني، حين علمتُ ببلوغ طالب غالي الستين، غير مصدّق، بعد أن اختلطت علي خطوط الطول والعرض.

ربّما حسب طالب نفسه أنّه لا يزال ذلك الطفل الذي يبحث عن بداياته.. ذلك الطفل الذي لم يبدأ.. ولن يبدأ .. وكيف يبدأ من لم تكن النهاية في حسبانه. هل هو يقين الأبديّة أو وهمها؟

كلّما التقيتُ «طالب» استعدنا ماضياً، وكأنّنا نستعيد مجداً أو كأنّ نهاياتنا باتت وراءنا، ولعلّ هذا المجد ذاته لم يكن سوى حاضر بائس توهّمناه حتّى صار يقيناً، ولعلّه يقين حقّاً، فأيّ مجد نبتغيه في الحياة غير أفراحها الصغيرة ومحبّتها الكبيرة حين نجتمع حول طاولة في نادٍ أو مائدة في بيت أو حديث في الشارع أو نكتة محبّبة في اجتماع مملّ، ولا نزال أنا وطالبٌ مولعينَ باستعادة هذه الأفراح الصغيرة حتّى لو كنّا على عجلٍ في لقاءاتنا البعيدة في المنفى.

وفي واحد من لقاءاتنا الأخيرة في بيتي، في لندن، أسمعني قصيدةً لي بعوان «الخبز»

لحّنها وأدّاها بصوته منذ زمن، وهي قصيدة لم تحوها أية مجموعة من مجموعاتي الشعريّة، فاستحضرت العشرين عاماً وكأنّها دهر أو كأنّها يوم لا بل هو الوهم الذي يستحيل يقيناً كلّما تقدّمنا نحو البداية تاركين وراءنا النهايات.

لماذا يكون الماضي جميلاً دائماً حتّى لو كان شقيّاً؟

مرةً قبل عشرين عاماً أو أكثر اجتمعنا أنا وطالب وياسين النصيّر القادم تواً من بغداد، ورفيق أو رفيقان أحدهما لا يفصله عن المركزية سوى شبرين أو أدنى، فغنّى طالب، وبعد الغناء، كعادة العراقيين، بدأ النقاش وكان موضوعه كتابات بهاء الدين نوري الصادرة حديثاً (الراية ترفرف..) وبعض مذكرات القادة الشيوعيين، فأبدينا أنا وياسين استياءنا من هذه الكتابات التي تصوّر الحزب وكأنّه صنع أفراد فهي لا تهتمّ إلاّ بالبطولة الفرديّة مهملة مصائر الناس البسطاء، فالبطل حين يغادر بيتاً حزبياً في لحظة المداهمة لا يذكر ما حلّ ببقيّة الرفاق أو العائلة التي آوته، فما يهمّه نجاته التي يعتبرها نجاة الحزب.

أبدى الرفيق القريب من المركزية شبرين أو أدنى (ولنسمّه الرفيق المسؤول) حيرته، مثلما أبدى طالب دهشته، غير أنّ طالب سرعان ما اختنق بالضحك عندما جرّنا الحديث أنا وياسين إلى التصريح أنّ الأديب المبدع، ومثالنا كان أبو كاطع، أهمّ تأثيراً من سكرتير الحزب في المنظور التاريخي (ولا أدري ما ضرورة هذا الكلام أو الإطلاق، بمنظور الحاضر أو بالمنظور التاريخي، عندما استعيده الآن، ولا سيما في جلسة شرب).

ما أضحك طالب ليس هذا الرأي بالتحديد وإنّما التصريح المقابل الذي أدلى به الرفيق المسؤول معبّراً عن فزعه، ومتوقّعاً الجنون لشخصه لو جلس معنا ثانيةً. وهذا ما لم يحصل لحسن حظّه، مثلما لم يحصل أن أصابه خبل أو جنون، وما حدث نقيضُ ذلك تماماً، فقد أصبح عقله يعمل بسرعة الضوء، ممّا بوّأه أن يكون تاجر سيّارات محترفاً منذ السنة الأولى في المنفى، تاركاً إيّانا، نحن رفاقه، على قارعة طريق «الشعب».

لم يتخلّل الجلسة رغم الاندهاش والهواجس والأحكام القاطعة غير ضحكات الجميع وغناء طالب.. حقّاً إنّني افتقد تلك الجلسات رغم أنّ كلّ عناصرها، كالطبخات العراقيّة، متوفّرة ــ والحمد لله ــ في المنفى، حتّى الرفيق تاجر السيارات ربّما. ولكن هيهات حتّى لو اجتمعنا ثانيةً.

هكذا كان طالب وربما سيبقى مدهوشاً ضاحكاً يغنّي أفراح الجبهة ليستفيق بعد ذلك على ما سيُبكي.

كان غناؤه لافتةً للفرح.. طيراً محلّقاً في السماء:

يا حزبي يا غالي (لاحظوا لفظة غالي الصفة والاسم)
ياللي اسمك انكتب
فوك السما عالي
وحروفه من ذهب

ولا أدري لم كلّ هذا التحليق الزائد عن حدّه، غير أنّ الأغنية عَلقتْ في ذاكرة الأطفال بسرعةٍ لإيقاعها البصريّ القريب من «الهيوه»، فكنّا نجد أطفال رفاقنا في مقرّ الحزب يردّدونها وأقدامهم تهمّ بالرقص لولا «الحزب»، بينما كنّا نحن الكبار (في السن طبعاً)، والشعراء خاصّة، نلهج بالأرض لا بالسماء، وبالطين لا بالذهب، وقد غاصت أقدامنا فيما بعد في ما هو أسوأ من الطين.

كنّا ثلّةً من الشعراء: مهدي محمّد علي، المرحوم مصطفى عبد الله، كاظم الحجّاج نكتب ما هو يوميّ، محتفين بالحياة ومشفقين عليها، برؤية قد تتطابق أو لا تتطابق مع ما هو سائد، وكنّا ندرك جدّة هذه المحاولة مثلما أدركها آخرون فكتب أنور غسّاني عن إحدى قصائد مهدي معتبراً إيّاها تمثّل منحى جديداً في شعرنا العراقي، وكتب سعدي يوسف عن قصيدة للمرحوم مصطفى وهي «أولاد الحيّانية» واصفاً إيّاها بشوكة في العينين، ولم يكن القرّاء بعيدين عن هذا الإدراك، أمّا البعثيّون فقد كانوا متضايقين جداً من هذا الشعر الذي لا يتحدّث عن الإنجازات بل عن نقيضها.

كنا في محاولتنا هذه وريثي أفضل تقاليد شعرنا العراقيّ، وأبناء مرحلتنا وواقعنا المحتدم بالصراع، وقد توّج الشاعر سعدي يوسف هذا الاتجاه، فيما بعد، بقصيدته «بغداد الجديدة». وأرجو أن ينتبه القارىء الى أنّ حديثي عن جدّة هذا الاتجاه لا يعني أفضليته على الأنماط الأخرى من الشعر واتجاهاته، فما هو إلاّ وصف لمنحى وليس تقييماً.

لم يبق طالب في مساره مبتعداً فالتقينا جميعاً لتأليف اوبريت وكان أيضاً عن الحزب الغالي (فقد كان ماليء الدنيا وشاغل الناس أو العكس)، ولكن هذه المرّة لا عن حروفه المكتوبة فوق النجم (أيّ نجم يا طالب القطبيّ وقد أصبحتَ قريباً من القَطب)، بل عن بداياته وتاريخه المليء بالتضحيات والأمجاد.. يعني بالقلم العريض رجعنا على «حمام يللي» و«يا حزبي يا غالي ياللي اسمك انكتب..» ولكن بطريقة شبيهة بطريقة ماركس في قلب منطق هيجل رأساً على عقب.. أي ما كان واقفاً على رأسه أو قفناه على رجليه.

كان أشدّنا اسهاماً وحماساً في كتابة الأوبريت هو المرحوم مصطفى عبد الله غير أنّ جهودنا الديالكتيكية «الجبّارة» في جعل الرأس رجلين والرجلين رأساً لم تتوّج بتنفيذ العمل على المسرح، فبقيتْ منه مقطوعات لا يزال طالب يغنّيها بحبّ إنّ لم يكن بحماسة تتلاءم مع شبابه الدائم المتجدّد، وإن كان يذكّرني أحياناً بالمغنّي الذي يستعيد مجداً ماضياً، ولكن ما أبعد العزيز طالب عن الهرم، بعد أن بلغ «النجم».

لا أدري ما أسباب عدم التنفيذ. لقد خانتني الذاكرة الآن.. لعلّ طالب يتذكّر ذلك او مهدي، ولكن ما اتذكّره جيداً هو يوم الهروب الكبير، عندما التقينا أنا وطالب في طريق عودتنا من مدرستينا فأسرّني أنه صاحبنا المسؤول عن الأوّل والتالي (وهو غير صاحبنا تاجر السيارات) «كتّ» الأول والتالي فحزمنا أمرنا لا أمتعتنا، حيث لا ينفع متاع، في اليوم نفسه، لمغادرة البصرة الحبيبة بلا رجعة «حفاة .. عراة ما اغتذوا خبز ملّة..

كم سنة يا طالب؟

ستصبح عشرين عاما في السنة القادمة، ومازلتَ شاباً أيّها اللعين:

الشمس أجمل في بلادي من سواها

والظلام

حتّى الظلام هناك أجمل

فهو يحتضن العراق

كانت هذه الأغنية، بصوت فناننا فؤاد سالم، هي لقائي الآخر بطالب بعد عشر سنين تقريباً، وكان لقائي الثالث قريباً من هذه المدّة أو الدهر، وربّما سنختصر السنين أو تختصرنا.. من يدري؟.. غير أنّ الشمس ستبقي أجمل في بلادي من سواها.

حتى الظلام....

ستينية طالب غالي

طالب غالي.. قلب ووتر وصوت..

ياسين النصير

-١-

ليس للزمن من توقيت.. قلت لنفسي وأنا أكتب عن صديقي (طالب غالي)، إياك، وان تحدد زمنا للعلاقة.. فتيار مواليد الأربعينات لم ينقطع برغم العصى التي وضعت في مساره.. والسدود..

-٢-

الآن أتأمل من خلال استرجاع الذاكرة، صورة ذلك الفتى الذي أدخل آلة «العود» لأول مرة الى ذاكرتي.. وقبلها رأيته، بل سمعته يغني أغاني عبد الحليم حافظ، صوتاً يقوده شبه ما في السحنة والوجه، وثمة حب خفي تظهر علاماته على تصرفات هذا الفتى الجنوبي.. لا أدري، بل كنت أحسده، لا سيما وإن أول جريدة تظهر في دار المعلمين الإبتدائية، وله فيها قصيدة.. سألت نفسي، لم لا أكتب قصيدة مثله، وأحظى بهذا الحب.. حب امرأة ما، بطبعي كنت غيوراً من الأدباء..

-٣-

في المساءات التي أعود بها الى القسم الداخلي، أعيد ترتيب البيت اليومي لي.. لم أجد فيه ما يستحق الوقوف عنده، لكني وأنا أبني هذا البيت الداخلي لذاكرتي اليومية، يقفز

(طالب غالي) كنموذج لإنسان لا يقف طموحه عند الدرس الذي كنا نتلقاه من أساتذة كبار، رزُّوق فرج رزّوق، الموسوي، وأساتذة عراقيين ومصريين. بل كان يتجاوزه الى الغناء.. وإلى الشعر، والى الحب.. وسألت نفسي أي إمرأة تحب مغنياً، أو شاعراً، ونحن الذين ورثنا تقاليد أن تعاطي مثل هذه الأشياء منقصة.. لكنني اكتشفت، أن المدينة لها خصوصيتها، ولها طريقتها في الحياة.. وعليك.. لعلها كانت الإنتباهة الأولى لي، أن تترك مفاهيم القرية وأخلاقاتها وأقوال الأم والأب والعمام، وملا القرية وقارىء التعازي، وحتى الأستاذ الذي علمك كيف تكتب .. المدينة، وحدها صانعة التجديد.. قلت، إنه فنان جنوبي ومن أبي الخصيب، أو هكذا اعتقدت اول الأمر، ولي مع منطقة أبي الخصيب، حمدان، كوت السيد، والخورة، أم الفلوس، والسراجي و.. وو.. حياة طفولية لا أقدر أن أستعيدها الآن. فقد كان والدي رحمه الله، (قنديلاً) يعمل لحساب شركة تمور «بيت جوك» الإنكليزية، وكنت معه وأخي، وعرفت أن هذه المناطق التي يجلب والدي لها العمال للعمل في جراديغ التمور، لا تهدأ لياليها الصاخبة، هناك، وفي بساتينها، عرفت الدبكات، والشدات الليلية، والرقص والسكر، وقرع الطبول.. وكنت مع والدي، وبعض العمال نسهر الليل كله، في مشاهدة هذه الشدات، والحال التي يرقص فيها الأولاد.. وعرفت لاحقاً أن هذه العادات جزء من بيئة جنوبية يختلط الزنج فيها بأهالي المدينة..

قلت: هل يشكل هذا الفتى إمتداداً لذاكرتي القديمة؟! وكان تساؤلي، ذاكرة بحد ذاته.. وها هو يعيد ترتيب المشهد ثانية أمامي، ومن خلال طلبة، مدينة، وجريدة، وشعر، ورياضة، ولغة مبهمة في التعرف بعضنا على بعض.

ـ ٤ ـ

وانتهى الأمر، أن حقق هذا الفتى حضوراً بين طلبة دار المعلمين في دورتها الأولى، وبين فتيات الثانوية والمحلات المحيطة.. هل أحسده، أو أغبطه، وأنا ابن العامل ـــ الفلاح الآتي من القرنة ـــ الشرش والمتعلق بالمدينة، وبالكتاب.. في هذه الأيام، بدأت أكتب، وبدأت أنشىء، وكان رزُّوق فرج رزُّوق، يرعى ما أكتب ويلغي ما اكتب.. وله في الذي كتبته فضل لا ينكر.. لكني والغيظ يملأني، لم أصل إلى ما وصل اليه الفتى، طالب غالي...

ـ ٥ ـ

ثمة صداقة تنشؤها القرى، المدارس، والانتماءات.. ولكن صداقتي مع طالب،

أنشأتها المفارقة، كنا في حفل التخرج من دار المعلمين عام ١٩٥٩، متحلقين حول موائد، كل مائدة تحمل اسماً، علما، كانت مائدتي بإسم «ابن الهيثم» وكانت ثمة مسابقة شعرية. ولما كنت لا أحفظ الشعر، ولا أجيده، جاء طالب غالي ليكمل ما نقص من الأبيات الشعرية التي وضعت كمسابقة لنا، وبالفعل، فقد فازت مائدتي بالجائزة الثالثة، أما مائدته، فقد كانت الفائزة الأولى.. وثمة، صوت نسائي يملأ أجواء القاعة.. إنها أم لنا.. مرة اخرى، إزداد حسدي له. يكتب ويغني، يحب، ويحفظ الشعر، وشبه مغني الشباب.. ونفترق، هو في مدارس البصرة ـــ المدينة، وانا في مدارس القرنة ـــ القرية.

ـ٦ـ

بعد تسع سنوات، التقينا.. كان ذلك في عام ١٩٦٨، يوم بدأ عملنا، في أوبريت بيادر الخير (التسمية للشاعر عبد الكريم كاصد) وعندما التقينا، كان العود أكبر، وكان طالب غالي اكبر، وكانت الأغنية أكبر، وكانت العلاقة اكبر.. وفي أول حفل غنائي للفرقة البصرية، في نادي «المحافظة» يقع بالقرب من تمثال أسد بابل، سمعته، وصفقت وكان تصفيقي له نشازاً فقد قاطعني محمد رضا سهيل قائلاً.. لنستمع.. ويومها عرفت أن الحفل كان نواة لتأسيس موسيقى تأليفية خاصة، وليست حفلة تطريب، ومن يومها فهمت أن الشبيبة المشاركة، تسعى لأن تؤسس لنفسها هوية موسيقية..

ولكن العمل السياسي لنا بالمرصاد، حرفنا عن بعضنا، وحرف البعض عن اهتماماته.. وجاء بيادر الخير، العمل الفني البكر، لفرقتين.. ويومها كان اتفاقنا مشرفاً للجميع.

استغرق العمل أشهراً ستة أو أقل، كتابة، وألحاناً وغناء، كان طالب غالي قد بدأ مرحلة التحول، من المعلم، والموسيقي المدرسي، والمغني المقلد، وشاعر المفردات الى الاستاذ، والموسيقار الذي ينشد ألحانه الخاصة، والمدرس للألحان، والمغني المؤكد لهويته الخاصة.. ومن ثم الشاعر الذي يحفظ ويكتب الجديد.. وفي زحمة العلم كنا نلتقي، دون حوار، فهو مشغول عن أمثالنا نحن الصغار، كان لا ينظر إلا في اتجاهين، اتجاه تملؤه (أمٌ لنا)، واتجاه يملؤه العود والصوت المنشد.. والمساحات الفارغة بين الإتجاهين كانت موزعة على الدرس والحزب، والمشاغل الاخرى.. مازال الشاب كبيراً، انظر اليه وأخشى الحوار معه.

-٧-

نضج العمل في (بيادر الخير) ألّف (طالب غالي) أغنية من أغانيه، وغنى واحدة، ولحن أخرى، واختار أشعاراً ملائمة، وحضر بثقله في التمارين ولما كان المخرج (قصي البصري)، ومدير الإدارة (عبد الإله عبد القادر) يشترطان على العاملين اللياقة البدنية،لإنجاح العمل في تنفيذ بيادر الخير الذي اعتمد المخرج فيه الحركة الراقصة، كان (طالب غالي) ضجراً من التمارين الرياضية، ولأول مرة عرفت أن المسرح ليس كل ما يقال، بل حوار وحركة.. وهذه المفاجأة كانت مدخلاً نقدياً، للعلاقة بين اللغة والجسد.. كان طالب غالي أكثر العاملين إلتزاماً بالعمل.

-٨-

في السفر الى بغداد، اصطحبنا، ركبنا المؤلف من ٦٣ شخصية هي كل عماد العاملين في بيادر خير.. وفي زحمة الجو الأسري الشفيف كانت العلاقات على أشدها من المودة. كان طالب غالي وعوده وموسيقاه، وصوته، وصحبته الفتية في العين من هذا النشاط كله.. (في موسيقى الغرف الليلية كانت الأصوات تتحاور مع الفضاء، وثمة من يعلن، ويخفي، كانت الغرف ملاذاً، للحب، للرغبات، للهمس، لصداقات جديدة، ومع الغرف كان المطعم الصباحي قبل التمارين وبعدها.. في هذا الجو تعمقت العلاقات الجديدة، ففتحت آفاقاً لأعمال لاحقة، فبعد بيادر خير جاء أوبريت (المطرقة)، وأعمال فنية اخرى.. وثمة من أنشأ أسساً لبيته اللاحق.

واذ ينجح بيادر خير، وتنجح كل محاولات السعي لتأسيس الأعمال اللاحقة، ينزوي طالب غالي، بعيداً عن الرفقة، إنه الآن في مرحلة المراجعة ، لماذا لم يظهر كما ظهر بقية العاملين؟ ثمة إحساس ما بأن طالب غالي، ليس مغنياً، وليس ملحنا، وثمة من يتعمد إهمال مسعاه، وكنت، وأنا أرقب هذا الجو الملتبس، أشعر بأن طالب غالي قد خسر الكثير.. ولعل هذا الهاجس، هو الذي دفعه لأن يكون في موقع الصدارة في أوبريت المطرقة، ولكن العصي هذه المرة جاءت من السلطات الثقافية، التي منعت البصريين وشعرائهم ومغنيهم، وكوادرهم الفنية من العمل، بحجة أن كل العاملين من كوادر الحزب الشيوعي، والأمر، ليس كذلك بالمرة..

-٩-

رحلتي الى بغداد، أبعدتني عن طالب غالي، الصديق المشاكس والناقد الساخر، فلم نلتق إلا مراراً، وكان تباعدنا المكاني تباعداً في الزمان.. إلا أن الشاعر، المعلم محمد سعيد الصكار، كان يجمعنا في مكتبه، في بيته، ما تزال رعاية هذا الشاعر لنا، مستمرة.. ما يزال صوته يغلف كل ألسنتنا. والمرات التي جمعنا الصكار بها، كانت إعادة اعتبار لذاكرتنا التي بدأت تستجيب لعجلات الزمن.. وشيئاً ما يثقل اللسان والعقل، فكلانا أثقل بالأبناء ومسؤولياتهم، وكلانا لم يكتشف بعد أين يضع أقدامه. كانت أوائل السبعينات امتحاناً لكل مواليد الأربعينات.. هي قضية إثبات ان يجد أحدنا نفسه وسط الضياع السياسي المضطرب. . . وها هي السبعينات تنشيء اكواخها وسط الضياع السياسي، طبع كل انتاجاتنا الادبية والثقافية بالسرعة والعجالة، والتحولات غير المدروسة.. أتيح المجال لأن يكتب فوقها بعض آلامنا، وكانت الجبهة مشروعاً، ناقصاً، بل متعثراً، وأحسب ان هذا المشروع ليس خطأً، ولكنه ليس صواباً أيضاً، والعارفون، أن كل الجهات كانت بحاجة الى خمس سنوات هدوء.. بالنسبة لنا كانت سنوات بناء، متعثر، ولما صعدت أعمدة البناء جيء بالفأس الأسطوري ليبدأ عمله من الأعماق.

كنت أحاور صديق عمري طالب وصديق تلمذة حرية بأن نقول عنها إننا أبناء جيل أساتذته، رزوق فرج رزوق والموسوي ومحمود عبد الوهاب وآخرين.. وعندما نستذكر ذلك نعيده لأنفسنا وجوداً فقدناه.. نحن في أواسط السبعينات، وثمة رياح سوداء تغلف المدن، والناس، والشوارع، إنها مرحلة بداية الانهيار.. وتسأل.. أين أصدقاؤك، أين أولئك الذين تعهدوا أن يستمروا.. اذكر هنا كلمة رائعة لصديقي الشاعر عبد الكريم كاصد، ونحن عائدان من مقر للحزب في شارع «٥٢».. وقد تبعتنا سيارة، كان معنا الشاعر هاشم شفيق.. كان ذلك في عام ١٩٧٩، قال «لم يعد لنا خيار إلا البقاء، ولكن علينا أن ننقل خطواتنا الى رمال اخرى». كان طالب وأسرته قد سبقتنا الى تحقيق هذه النقلة في رمال الروح.. الهجرة، يالها من كلمة قاسية، ولكنها هجرة العمل، بعد أن ضاقت السبل..

-١٠-

كيف يهاجر الوتر، وكيف تهاجر النوتة، وما هو مصير الموسيقى المهاجرة، لمن تسمع، وممن تستمد؟ لم أدر أنني قد أشتبك مع الحياة بمثل هذه الأسئلة.. كنت أعتقد أن المغنين والموسيقيين أقل عذاباً منا، ما أن تداهمهم الأيام بهمّ، حتى يعلنوا الصوت

والنغمة عليه، فيستريحون. لكنني أكتشفت من خلال طالب وآخرين إنهم ليسوا إلا ضحايا لإختياراتهم، اللحن أرضي، والموسيقى محلية متطلعة، والنغمة وتر يشد الإنسان الى ترابه، والسامعون نفحة مؤلفة الإنشاء. ترى لمن يؤلف طالب غالي، كوكب حمزة، والسيد، وحميد البصري وجعفر حسن ومن هم سامعوهم؟. وإذ تمضي السنين، مبحرة من يم الغربة، والمدن المصافحة العجلى ، تتراكم حالات اليأس، فتظهر أنات على وتر تعود الاهتزاز المستمر، وتر شعري، وعاشق، ومحب وشباب.. لكن البلل بدأ يتسرب إليه، بل أن البلل هذه المرة أتى من الثبات على نفحة السياسة، وحدها، ولم لا فالوطن مفجوع بأحزانه المتراكمة، وأصوات، ولغات الموسيقى، ولم يعد للفنان طالب غالي، فرصة أخرى، لنقلة في ألحانه، وصوته، كان الخط السياسي قوياً في داخله، وكانت معزوفاتهم، قضية.. وإذ يتشتت الصحب، بين من حاول التجديد، ومن حاول البقاء ضمن مواسمه الإبداعية نجد أنفسنا وسط خسارات كبيرة.. طالب غالي، أحد الأصوات التلحينية التي لم تعلن خسارتها بعد..

-١١-

كنت أتتبع خطواته، خطوة له في الكويت، أخرى في بلدان عربية، وثالثة في البصرة، عودة وشد إلى وتر النخلة، ورابعة في بلدان أوربية، ينتقل حاملاً فوق ظهره صخرة سيزيف الأسرية، أبناء وبنات، كل واحد منهم حاملاً، صوته ووتره أيضاً، وحينما ينظر اليه، عند عودته من حفلة سياسية، يفرح، إنهم جيل من المطربين الشباب الذين تشبثوا بوتر أبيهم، وكادوا أن يقطعوه لشدة ما حبسوه داخل أصواتهم.. أين قفزاتك السابقة، يوم تمردت على كل العادات، واخترقت حجب النساء، وسرقت (أم لنا) من بين آلاف العيوم والألسن. وكنت يومها لا تحمل إلا عوداً متجولاً في قاعات الدرس وحفلات الحزب.. وقد تشد أصوات الأبناء أباهم الى القناعة، ينشيء ، وقد تجاوز الخمسين، بيتاً موسيقيا.

إنه عذابنا يا طالب، أن نبقى دائماً، وسط رغباتنا الصغيرة، ملفعين بعباءة البيت والأسرة المتنقلة، المتجولة. آه ما أثقل أحمالنا، وما أتعب المحافظة عليها.. وقد لا نخسر ونحن نرغب في زيادة أثقالنا المستمرة.

خطوات متباعدة، هل يبقى اللحن نفسه، والسامعون أنفسهم، والكلمات نفسها؟ ما يصلح في الأرض العربية، هل يصلح في الأرض الأوربية حتى لو كان السامعون

أنفسهم؟ يختلف لون السماء، والماء، والناس والألسن، والأعين، وتختلف الشوارع والأرصفة، والحافلات والمدن والأسواق والملابس والأكلات، وحتى العلاقات البيتية عندما تتغير المساكن، وتسد بستر النوافذ، وتبدأ ألسنتنا تنطق المفردات الإبتداء ونحن ندخل أول صف في سلم التعليم، مبتدئين بألف باء جديدة؟ هل تبقى لغاتنا، ألسنتنا، ألحاننا نفسها؟!

طالب غالي، وصحبة آخرون يصرون على البقاء ضمن تيار زمني قديم، ونحن إذ نحاول التلمس باليد متغيرات تيار الزمن الجديد.. أنها محنة المدن المهاجرة، يا طالب، محنة أولئك الذين تعودوا أن يعودوا بعد كل ليلة طرب إلى بيوتهم ليسمعوا الزوجات كشوفات الليل البصري المدفون في البساتين، وظلمة النخل، وتداخلات المد والجزر وهو يروي عطش الكاع والنفس...

ـ١٢ـ

ويسمعني شريطه الجديد، غناء وألحانا لأنشودة المطر، بعد ان مهد لها، بغريب على الخليج، وعذري، أني لم أسمع له منذ خمس عشرة سنة، أو أكثر، أي صوت. كل ما قلته يقف عند أعتاب الثمانينات، لكنه في أنشودة المطر، يفاجئني صوته، عمق لحنه، استيعابه لمتطلبات الأذن، رغبته في البوح من خلال الشعر، ها هو يزاوج بين وتر حساس ولغة عالية، يظهر لنا، لحناً وأداءً عميقاً. وأحسب أني قد استعدت هدوئي، وبدأت أقرأ تواريخ الأيام التي علمت فوق يديه علامات المدن، والتجربة.. وإذ يعيدني اللحن والأغنية الى المطر البصري، استشعره مطرا خصبا. هنا تبدأ مفارقتي مع المطر المديني، ومطر المدن الأوربية بالذات.. الساقط فوق أرصفة مبلطة لا يترسب إليها التراب.. في أنشودة المطر، يقرأ طالب غالي سنواته، لكن اللحن والصوت والأداء وكل تضاعيف العمل بحاجة الى من ينتجها.. محنة فنان لم تعرف الإنتهاء أو الركون، إنها هي الأخرى متجولة، بين سوريا، لندن، هولندا، والدانمارك.. ولا من وتر يشد من عزيمة وتر طالب غالي، وأنشودته المطرية الجديدة.. الغربة يا طالب، والصحب ما عادوا مثل الأمس، وعليك ان تنفض الغبار، غبار العلاقات النصف.. وتبدأ، كما لو كنت تتعرف اليوم على (أمّ لنا)، وكما لو كنت تبتدىء أول خطوة وأنت تدخل قاعة الدرس في دار المعلمين، قبل أربعة عقود من زمننا الثقيل..

١٩٩٧/٩/٩

ستينية طالب غالي

فنان يجاهد من أجل أن يتواصل مع الناس

داود أمين

مدخل

كيف أتفادى المألوف والعادي، وأين أجد الجديد في أن أصنع مدخلاً يليق بطالب، وينجيني من مأزق التكرار الممل.

نبشت ذاكرتي بحثاً عن أول لقاء بيننا، أو أول مرة تطأ أسماعي حروف اسمه. لكني عدلت عن هذا التسلسل الزمني الرتيب، قلت لنفسي سأجد الكثير من المحطات التي يمكن أن أتوقف عندها، فقد كنا معاً كثيراً وفي أوقات مختلفة. في مهرجانات يوم المسرح العالمي عام ٧٠ و١٩٧١، وفي المهرجان العالمي العاشر للطلبة والشباب في برلين صيف ١٩٧٣، وفي حفلات (فرقة الطريق) في الناصرية والبصرة أيام التحالف، ولكننا لم نكن (معاً) أي أنا وإياه كما نحن الآن، لم يكن بيننا أبداً الذي بيننا اليوم. وتساءلت هل كلما غرت عميقاً في الزمن وجدت متكأ لمشروعية الكتابة في ستينية صديقي الأعز طالب؟! لماذا لا أعترف بأن عمر صداقتي الحقيقية له خمس سنوات فقط! الا تكفي هذه السنوات الخمس لأن أقول شيئاً يستحقه، إذن لأجاهد قليلاً في إيجاد حصاة أرميها في بركة ذاكرتي، ولتتسع الدوائر التي لا تنتهي وتقودني لأن أكتب شيئاً يتفصل على مقاسه، فالحاضر مشرق وبهي، وتفاصيله واضحة وجلية، وبعض محطات الماضي غير البعيد لا تزال طرية كما البارحة، فلأستل منها بعض اللقطات.

إكعيبر(١)

كان البرد على اشده شتاء ١٩٧٨ ـــ ١٩٧٩، ولكن حرارة المطاردة كانت (تكاسر)(٢) ذلك البرد الذي لم نلتفت اليه أو نعبأ به، فالعدو يتعقبنا ونحن نخلي مواقعنا في المحافظات متكدسين دون خبرة سابقة في العاصمة.

الحيدر خانة وبيوتها المتهالكة المتعبة تغص بنا، وكان بيت (أم علي) واحداً من تلك البيوت التي استأجرت أنا وبعض رفاق الناصرية غرفة فيه، وفي البيت الملاصق لبيت (أم علي) كان طالب غالي يسكن مع عدد من رفاق البصرة غرفة متداعية تشبه غرفتنا، ومثلنا كان يتحايل على الزمن وصاحبة البيت، فتركض الأيام والشهور.

ومع ازدياد الخطر نتيجة الوضع السايسي، والسير الحثيث نحو الانفراط الوشيك للتحالف، لذلك كان (الحزب)(٣) يفكر جدياً بانقاذ العدد الأكبر من هؤلاء الرفاق المتكدسين في بغداد والذين لا خبرة لأغلبهم في العمل السري، ويشجع كل الطرق التي تؤدي لإبعادهم عن ساحة الخطر.

في هذا الجو توفرت لنا فرصة اعتبرناها نادرة حينذاك، لإيجاد طريق نحو الكويت، وبعد دراسة الأمر والتوثق من سلامة الخط أمنياً تم الاتفاق على إرسال وجبة تتكون من خمسة رفاق، كان طالب غالي أحدهم. استأجرنا سيارة تاكسي من بغداد، بعد إبلاغ الجميع باحتياجات الرحلة، وفي مقدمتها الدشداشة واليشماغ!!

انطلقت السيارة ليلاً نحو الناصرية، ولأن أحد الرفاق لم يستكمل الزي المطلوب فقد كان على الشهيد (أبو علي النجار)(٤) وهو أحد الرفاق الخمسة أن يعرج بالتاكسي على بيتهم في محلة الشرقية في الناصرية، وأن يفاجأ عائلته في منتصف الليل بقدومه الغريب (وهو المختفي منذ أشهن) وبطلبه الأغرب دشداشة ويشماغ!! وبعد أن يحصل على ما يريد يغادر بيته وأهله عائداً للتاكسي ورفاقه، وسط دهشة أهله وقلقهم.

خرجت التاكسي من الناصرية باتجاه طريق البصرة، وكان الفجر يوشك أن يفتضح، وبعد دقائق قليلة، حيث غدت ملامح الناصرية لا تكاد تبين ، كانت دهشة السائق كبيرة عندما طلب منه ركابه التوقف في منطقة نائية ومقفرة قائلين له شكراً فقد وصلنا!

نزل الرفاق الخمسة في حين ابتعدت التاكسي بسائقها المستغرب. تحرك طالب ورفاقه نحو إحدى الحفر الكبيرة التي تجاور الطريق الاسفلتي، وهناك حيث تضيع قامة الانسان في عمق الحفر أبدل الجميع بنطروناتهم وسترهم بالدشداشة واليشماغ،

وجلسوا ينظرون لبعضهم قاتلين القلق والخوف بالتنكيت والسخرية.

كان طالب ورفاقه يحسبون ان سيارة (حزبية) ستأتي لتقلهم نحو الحدود الكويتية، فكل الخطوات السابقة تمت بإشراف الحزب ومتابعته، والأمر حتى هذه اللحظة جيد وسليم. سائق (القلابي) الذي يفترض ان ينقل هذه المجموعة، لم يكن يعنيه أمر طالب وجماعته، إذ ليس له علاقة بالحزب من قريب أو بعيد، ولا علم له بهوية الذين سينقلهم. لقد أبلغه أحد معارفه أن هناك خمسة من (الكعيبرية) يريدون الخروج نحو الكويت، فاستلم منه مقدمة المبلغ على أن يستلم الباقي حال ايصالهم، لذلك ظل يتهادى بـ (قلابيه) على أقل من مهله، فالكعيبرية ينتظرون وسيبقون منتظرين، إذ لا خيار لهم سوى ذلك! لكن قلق طالب ورفاقه ازداد مع مرور الوقت، فالحزب علمهم الدقة في المواعيد، خصوصاً في مواعيد كهذه. ولم يكن أمراً طبيعياً لديهم أن تمر ثلاث ساعات على الموعد المتفق عليه ولا يلوح أثر لسيارة القلابي!

الخوف أصبح مشروعاً الآن، والقلق على (الرفيق) السائق وقالبي (الحزب) بدأ ينمو ويتسع، لذلك لم تستغرق مناقشة الأمر كثيراً، فالحفرة التي شهدت تبدل (البنطرونات) الى دشاديش استعادت نفس المشهد بتبدل معاكس، اذ طويت الدشاديش واليشماغات وارتدي الجميع (بنطروناتهم) مستعيدين هيئاتهم السابقة، وتسللوا من الحفرة نحو الشارع الاسفلتي ملوحين لسيارة قادمة استغرب سائقها ان يجدهم في هذا الطريق المهجور، ورغم انهم تحججوا بأنهم كانوا في عرس في البساتين المجاورة، إلا أن السائق الذي نقلهم للناصرية كان متأكداً أنهم كانوا يبيتون عند (الكاوليه) فهم لا يبعدون كثيراً عن المكان!! وكان تأكد السائق ضرورياً وفي محله!!

مساء اليوم نفسه وصل أبو لنا ورفاقه الأربعة إلى غرفهم في الحيدرخانة، ومعظمهم يشكو من اسهال شديد من البرد أو ربما من الخوف، إذ لم يكن في الأمر مزاح. وكان أبو لنا منزعجاً مثل الآخرين وهو يرسل لعناته للرفيق (أبو حليم) الذي لم يضبّط أموره جيداً، وغامر بهم، وكاد أن يسبب في اعتقالهم أو استشهادهم!! وهنا في كوبنهاكن عرف أبو لنا ان الرفيق (أبو حليم) الذي صب عليه لعناته لم يكن سواي!!

غازي غالي!!

كانت (وكسة) الاكعيبر شديدة الوقع علي باعتباري المنسق بين الحزب والشخص المعني بالتسفير، والذي وصل بغداد في اليوم التالي معتذراً مبرراً بأن السائق لا يعرف

شيئاً عن هوية ركابه، وأنه وصل المكان في حدود التاسعة صباحاً، وتعهد أن المرة القادمة ستكون ناجحة ومضمونة، لكن الظرف وقتذاك لم يكن يسمح لنا بمجازفة أخرى، فالجحر الذي كدنا أن نلدغ منه لا يمكن أن نمد أصابعنا داخله، شكرنا صاحبنا وصرفناه.

لم يمر وقت حين اهتدينا لطريق أسلم وأفضل للخروج عبر المطار أو عبر نقاط الحدود البرية وبجوازات شرعية.

كان الرفيق (أبو نرجس) قد صنع في غرفتنا البائسة في الحيدرخانة ورشة تزوير عجيبة، وكان يردد حكمته الذكية (كلما تطورت وسائل كشف التزوير، تطور عقل المزور في المراوغة والافلات) لذلك كنا نثق بقدراته وننفذ له كل طلباته دون مناقشة، طلب أحباراً مختلفة، فجلبنا له كل الألوان، جمعنا له السلفون الذهبي من علب السكائر، حروف طباعة رصاصية، كلور (قاصر الألوان) دفاتر النفوس القديمة للذكور والاناث، وبدأ أبو نرجس يعمل، وكانت النتائج تخرج من بين أصابعه مذهلة.

إذ بعد أن وصل الفقيد (ستار كناوي) إلى صوفيا، وأرسل لنا برقيته من هناك. قررنا أن يكون طالب غالي ضمن أول مجموعة ضمت ١٧ رفيقاً تخرج بهذه الطريقة. كان علينا أن نختار له اسماً يبعده عن حرف الطاء الذي يبدأ به اسمه، واخترنا له بالصدفة اسم غازي باعتبار الغاء بعيدة عن حرف الطاء، إذ كان لكل حرفين من حروف الهجاء دائرة خاصة في مديرية الجوازات في بغداد، وحين وصله خبر اسمه الجديد ضحك طالب قائلاً: (وين لگيتولي اسم غازي؟ هذا اسم عمي) وبعد أيام استلم طالب دفتر نفوس يحمل اسمه الجديد غازي غالي، وعدة نسخ من أمر إداري يمنحه إجازة يقضيها خارج القطر باعتباره موظفاً في وزارة الزراعة!!

في اليوم نفسه دفع طالب دفتر نفوسه ونسخة من أمره الإداري لموظف الجوازات، وبين مصدق ومكذب استلم جوازه خلال نصف ساعة، وفي الفترة نفسها استلم رفاقه الآخرون جوازاتهم، وخرج الجميع علانية من مطار بغداد، أو من حدود العراق البرية المختلفة، واختار طالب الطريق البري نحو دمشق التي كانت محطته الأولى قبل سفره نحو الكويت!!

هنا في كوبنهاكن

بعد وصولي الى كوبنهاكن بأشهر قليلة التقيت بطالب الذي كان قد سبقني اليها بأسابيع، قلت له (هل تتذكر الرفيق (أبو حليم) الذي ورطك برحلة الاكعيبرية، وشبعته

شتايم، فضحك أبو لنا وقال: (يستحق، همزين مارحنه بولة بهور!!) قلت له: (بس بعدين لگالك خوش اسم تطلع بيه!! اسم عمك غازي!!) فضحك مجدداً وفهم القصة وتفاصيلها.

منذ اللقاء الأول هنا وجذور الصداقة بيننا تغور عميقاً وأغصانها تتفرع، حتى يمكنني القول إنه كان حاضراً في كل مناسبة خاصة أو عامة حضرتها.

كان هم لمِّ شتات العراقيين الموجودين هنا، والمثقفين منهم بشكل خاص، يشغل بال العديد منا، وكان (أبو لنا) ورفيقة دربه الطويل (أم لنا) من بين أولئك المشغولين بهذا الهم، التقينا مرات ومرات كي نبلور شيئاً واضحاً يلم الجميع، بعيداً عن الحساسية ودون وصاية أو احتواء، وكانت اللقاءات الصغيرة تكبر والصورة تتوضح ويكثر المتحمسون للفكرة فيولد (البيت العراقي) مشروع ثقافي اجتماعي تحتل أم لنا وأبو لنا فيه، ومنذ خمس نسوات، جهة القلب، إذ رغم أن طالب آثر أن يكون خارج الهيئة الادارية للبيت العراقي، حيث تشغل أم لنا عضويتها، فقد كان يحضر جميع اجتماعاتها ويساهم بفعالية في كل النشاطات الاجتماعية والثقافية، ويعمل بفعالية متميزة في عضوية اللجنة الثقافية، وفي التهيئة والاعداد لكل نشاطاتها. كنت أشعر وهو يقدم فقرته الفنية بأنه يحترق، يتألم، يسعده صمت جمهوره وإصغاؤه وتجاوبه مع ألحانه الذكية وخياراته المتميزة.

وحين يجد الصمت والتجاوب يزدهر طالب ويتألق في تقديمه فيعطي أجمل ما لديه ولكن يحدث العكس تماماً عندما يجد الجمهور منشغلاً عنه غير ملتفت لما يقدمه، خصوصاً في النشاطات المفتوحة، حيث يمرح الأطفال لاهين صارخين قريباً من موقعه، فأحس أنه يقدم فقرته دون (واهس) وأحياناً يتوقف عن الأداء راجياً جمهوره، بمودة وأدب جم، الانصات، لأنه يقف من أجلهم ويغني لهم.

من يعرف طالب عن قرب يكتشف أن لهذا الفنان المبدع عشرات الألحان الجميلة، والتي لا يعرفها سوى أفراد عائلته والقليل من أصدقائه، وقد أصبح هذا الارث الكبير همه وهم بعض أصدقائه وأنا منهم، إذ كيف ومتى ستصل هذه الألحان الجميلة للجمهور وأي جهة أو مؤسسة قومية أو وطنية أو حزبية أو خاصة ستتولى تسجيل وتوزيع هذه الألحان وإيصالها للناس. لقد قلت له مرة بأني أحلم أن أكون مليونيراً فقط لكي أسجل لك هذه الألحان، فهي لا تحتاج سوى الى المال!! (والمال عند أهل المال، واحنه وياهم دوم زعال!)

بالاضافة لموهبة طالب اللحنية، ولصوته الشجي وهو يؤدي أغانيه، فهو شاعر مجيد أيضاً، وقد طبع أواسط السبعينات ديوانه الأول (أغنية لطائر النورس) وهو لا يزال يكتب الشعر ولكن بدرجة أقل عن فترة السبعينات والستينات.

أم لنا

قليلة هي المرات التي التقيت فيها طالب دون رفيقة دربه أم لنا، فهذه المرأة التي تشاركه الحياة الزوجية منذ ٣٧ سنة وقفت الى جانبه بعقلها الكبير وبحضورها الواضح، وصنعت معه عائلة رائعة تضم نخبة من البنات والبنين المتميزين فناً وخلقاً وأدباً.

وقد ضحت (أم لنا) بمستقبلها الفني، وهي صاحبة الصوت الجميل، وبوقتها وجهدها وذاتها من أجل أن تقف إلى جانب طالب، تخفف من وحشة غربته وتشد من أزره في لحظات ضيقه وجزعه، إنها لصيقة به إلى درجة نحسده أحياناً عليها، ونستنكر أحياناً ذلك قائلين: (يعني ما تگدر بلياها.. دفك عنها ياخه.. عوفها شويه!!) فيضحك أبو لنا ويقول (ما أگدر!! موبيدي!) ثم يكمل لازمته (الرّجال بليه مرهه مايسوه نعـ...)!

أما بناته وابناؤه، فقد توفرت لي فرصة أن أكون قريباً من أغلبهم، فهم أصدقائي (رغم فارق العمر) وبيني وبينهم مودة عميقة، وقد أدهشني فيهم هذا التعلق الأبوي والصداقي بـ(طالبهم) فأسرارهم هي أسراره، ونجاحاتهم هي نجاحاته، وفرحهم هو فرحه وأحزانهم هي أحزانه. هو مهموم بهم، بمستقبلهم، بحياتهم الخاصة، وهم مهمومون به، كل يفكر بالآخر. وفي ذلك سر هذه العلاقة المتينة.

يتناقشون ويختلفون ويتقاطعون في الآراء. يستسلم عندما يرى حججهم مقنعة، ومعلومات بعضهم في اختصاص معين أفضل من معلوماته، فيتراجع بكبرياء نبيل معلناً أنهم على حق ويهمس (هي گوه؟!.. ديتعلمون أشياء أفضل من اللي تعلمناها بزمانّه!)

(١) إكعيبر: مصطلح يطلق على الذين يعبرون الحدود بشكل غير قانوني، ولا اعرف اصل الكلمة ومعناها بدقة، وربما كانت مشتقة من لفظة العبور.

(٢) لفظة عامية تعني تخفف من أو تعادل.

(٣) الحزب. اعني بالحزب هنا بعض القادة والكوادر الذين ظلوا خلال هذه الفترة داخل الوطن. وساهموا في تنظيم عملية التراجع بالقدر الذي يستطيعونه.

(٤) أبو علي النجار: هو الشهيد المقدام محمد عبد الله المهدي معاون آمر الفوج الأول. الذي استشهد في اقتحام قرية باعذره عام ١٩٨٢ في منطقة بهدينان.

كوبنهاكن
١٩٩٧/١٠/٢٥

ستينية طالب غالي

طـــالــب غـــالـــي

قاسم حول

لا أدري من أبتدع فكرة الذكرى الستين للإحتفاء بالمثقف العراقي. الناس تحتفل بالذكرى الخمسين عادة كيوبيل ذهبي.. ألم يكن العمر الخمسون كافياً لحصيلة تجربة ولذروة إبداع؟ ولكن، على ما يبدو إن الإنسان العراقي غير قادر على تنفيذ مشروعه خلال خمسين عاماً بسبب الانتكاسات و(الثورات) التي تتعاقب على العراق، فهو ما أن يخرج من ثورة حتى يدخل في ثورة أخرى، وما أن يخرج من حرب حتى يدخل في حرب أخرى.. فلم تتح له هذه التقلبات فرصة إنجاز مشروعه الإنساني، فأعطى لنفسه عشر سنوات احتياطية.

كان ذلك في منتصف الستينات عندما شاهدت وسمعت طالب غالي على مسرح نادي الطلبة بالعشار في البصرة، وقد كتبت عن الحفل الغنائي الذي شارك فيه عباس البصري وحميد البصري.. كتبت عنه في صحيفة الخليج التي كانت تصدر عن وزارة الثقافة في مدينة البصرة ويرأس تحريرها سجاد الغازي، ونحررها: محمد سعيد الصكار ونوري لفته وأنا. كتبت فيها.. ابتلى طالب غالي بشكل يشبه شكل عبد الحليم حافظ مثلما ابتلى عباس البصري بصوت يشبه صوت ناظم الغزالي، وكان الجمهور ينظر الى طالب غالي بأنه يقلد عبد الحليم حافظ، فيما كان للشاب طالب غالي صوته المتميز.

صارت لقاءاتنا الثقافية في بيوت الأصدقاء، نستمع الى الألحان ونتحدث عن هموم الثقافة، لكن سرعان ما افترقنا، فأنا باشرت بانتاج فيلم (الحارس) وتأسيس (مؤسسة

أفلام اليوم)، ويبقى طالب غالي يعلم الجيل الذي يليه في مدينة البصرة.

ما هي إلا سنوات حتى وجدنا أنفسنا على طرفي مسافة بعيدة . عاش هو في الكويت وعشت أنا في لبنان، فداهمتنا الحروب في الوطن وخارج الوطن، ورمت بنا الرياح الى مناطق باردة أودت بي الى هولندا وأودت به الى الدنيمارك.

يوماً وأنا في البيت العراقي في كوبنهاغن لمحت طالب غالي أبو لنا والفنانة أم لنا في المقاعد الخلفية للبيت الذي يشرفان على إدارته، هما نفسيهما كما تركتهما في البصرة لم يكبرا كثيراً، لكن العاشقين اللذين تركتهما في البصرة أصبح لهما أحفاد (الله يبارك). ذهبت إلى دارهم وسمعت صوتيهما الشجيين، وطالب ينشد على عوده مع الأبناء دنى وسنا وفنار.

يا سالم المرزوك خذني في السفينة في السفينة..

خذ مقلتي ثمنا، سأعمل ما تشاء

إلا حكايات النساء.

....

....

هذه القصيدة التي كتبها سعدي يوسف عندما كان الشعر شعراً لا صنعة، لحنها وغناها طالب غالي، وكان لحنا ساحراً عذباً، ثم غناها ولده فنار فأعطاها قيمة فنية ثانية بصوته المرن وأدائه الأكاديمي الجميل. وكان معنا في الدار أبو عادل ـــ طه البصري وكوكب حمزة وفاضل السوداني وصباح نوري وعماد.

لطالب غالي حلم تنفيذ مطولته الغنائية إنشودة المطر لبدر شاكر السياب، فقد أنجز تلحينها وكان يبحث عن صوت يؤديها، فأشرت له أن يؤديها ولده فنار، الذي يتدرب على الغناء في معهد في الدنيمارك.. يمرن صوته بطريقة علمية وأكاديمية. إن في إنشودة المطر قيمة فنية تتجاوز الصيغة التقليدية للأغنية السائدة. وكان طالب غالي قد لحن للسياب وهو في الكويت (غريب على الخليج) بصوت فؤاد سالم..

فيا أيها الغريب على خليج الدنيا، يا طالب غالي، إنك لم تزل، والله، كما رأيتك في لبصرة (دك على الخشب)، إنك كبرت فنياً فقط.

عندي عليك ملاحظة واحدة، إنك شغفت أن تكون ملحنا على ما يبدو، وكانت غلطة، كان عليك أن تغني أيضاً، وتعمل على تطويع صوتك الحنون.

لو كان لنا وطن يا طالب غالي مثل الناس.. ولو لم نكن قد إنشغلنا في هموم السياسة

وتطلعنا الى (الكريرو) في شجرة الرمان، لكان ذلك يكفي ولكنت اليوم نجما، في وقت لم يقف فيه تحت الأضواء، على المسارح وفي المحطات الفضائية، سوى قطعان من الماعز.. ونفر من القوادين، وبالألوان.

فيا سالم المرزوك

ويا أيها الغريب على خليج الدنيا

يا طالب غالي

أسمعنا المزيد..

لاهاي ١٤/٩/١٩٩٧

دعوة الى الكتابة عن (البيروني) في ذكراه

في كانون الأول القادم تحل الذكرى الخمسون بعد الألف لوفاة العالم الكبير أبي الريحان البيروني ، الذي يُعدُّ من أهم رموز الحضارة العربية والإسلامية ، ومن كبار العلماء والمفكرين الذين عرفتهم الإنسانية على مرّ العصور .

لقد كرس هذا العالم حياته كلها بحثاً عن الحقيقة العلمية والحياتية ، متحدياً الصعاب والمخاطر ، الأمر الذي أوقع عليه نقمة الحكام ، فاضطر الى أن يقضي أكثر من أربعين عاماً من حياته منفياً عن وطنه ، يعاني آلام الغربة .

درس أهم لغات عصره ، وأجاد فيها ، كما تضلّع في العلوم المختلفة ، فغدا عالماً موسوعياً أغنى المكتبة العلمية بالعشرات من الكتب المهمة التي ساهمت في دفع مسيرة العلم عند انتقالها الى أوروبا في عصر النهضة .

بهذه المناسبة تتوجه [الثقافة الجديدة] الى الكتّاب والباحثين لتقديم إسهاماتهم حول إبداعات هذا العالم الجليل في فروع المعرفة شتى ، بغية نشرها في مجلتنا ، تخليداً لذكراه .

[الثقافة الجديدة]

ستينية طالب غالي

الفنان طالب غالي

حميد البصري
[موسيقي وملحن]

عرفته شاباً طموحاً ذا إمكانيات متعددة.. شاعر، ملحن، مغني.. كانت تلك الإمكانيات تتنافس فيما بينها، تارة تطفو قابليته الشعرية الى السطح وتارة تطفو موهبته التلحينية. ومع هذه وتلك، كانت تطفو بين آونة وأخرى موهبة الغناء. في البدء كان، كبقية الشباب في ذلك الوقت، يقلّد الراحل عبد الحليم حافظ، ثم اتجه نحو خلق شخصية خاصة به. واستمر التنافس دون أن يغلب أحدهما الآخر، لذا بقيت شخصية الشاعر والملحن والمغني في مستوى واحد، ربما يفارق بسيط في مستوى أحدهما عن الآخر، كان ذلك رأيه، فهو لا يريد أن يسمى بأحد منهم.

كان طموحاً لتعلم الموسيقى، وكنت لا أبخل عليه بشيء، فتعلم الكثير.

كانت علاقتنا غير الفنية أساساً طيباً لعلاقتنا الفنية. فقد أحببنا فتاتين، هما صديقتان في مدرسة واحدة، وأصبحتا فيما بعد زوجتينا أذكر في إحدى جلساتنا مع فتياتنا على مقعد خشبي على شط العرب، حيث كنا نتبارى، أينا سيسبق الآخر بالزواج، وفعلاً سبقني بالزواج من (أمّ لنا) بسنة تقريباً.

وعندما بدأنا الإعداد لأوبريت «بيادر الخير» وهو أول أوبريت عراقي، كان متحمساً للعمل وكنا نذهب معاً نحن الأربعة أنا وأم نديم وهو وأم لنا، إلى العوائل لإقناعهم بالموافقة على إشراك أبنائهم وبناتهم في ذلك العمل الوطني الكبير. ونجحنا في ذلك، وكان له دور غنائي مميز في الأوبريت. ساعد نجاح الأوبريت الأول أبو لنا لتلحين

الأوبريت الثاني للفرقة البصرية التي كنت أقودها وهو «أوبريت المطرقة» وقد قدمنا العمل بنجاح.

كنا نأمل بالاستمرار بتقديم أوبريت ثالث هو «السابلة» ولكن السلطة عرقلت ذلك لأسباب يعرفها الجميع.

بعد ذلك اضطررت للإنتقال الى بغداد والابتعاد عن أبي لنا، فقد بقي هو في البصرة.

كنت أتابع إبداعاته المختلفة وأنا في بغداد ومن ثم خارج الوطن، حيث اضطرتنا الظروف السياسية إلى الابتعاد عن بعضنا البعض.

بعد حوالي العشرين سنة نلتقي مجدداً لنعمل معاً في الغربة.. تلك هي غربة مكانية ليس إلا.. نحن نحاول ان نعيد عملنا المشترك أينما كنا. فطاقاتنا ملك لشعبنا وأهلنا في الوطن كانوا أم في المنافي المتعددة. أول أعمالنا المشتركة الآن هي رائعة الشاعر العراقي بدر شاكر السياب (أنشودة المطر) التي لحنها الفنان طالب غالي وقمت بتوزيعها أوركسترالياً. ولنا أفكار ومشاريع أخرى نتمنى ان نوفق بإنجازها.

أطال الله في عمر فناننا طالب غالي وأمكنه من استمرار إبداعه في مختلف ما يصبو إليه ويتمناه.

تموز ١٩٩٧

اصـــدارات وردتـــنـــا

الاغتراب الأدبي ، عدد ٣٨ ، بمساهمات لمحمد الحمراني ، مهدي القريشي ، خالد عبد الزهره ، رعد زامل ، فرج خطاب ، د . حسين الهنداوي ، أشرف العناني ، حميد العقابي ، محسن الرملي ، مازن جودة ، كريم العروي ، فردريكا لوركا ، د . محمد حسين الأعرجي ، سميرة المانع ، محمد شلاكه ، سعيد فرحان ، ياسين عدنان ، شاكر الأنباري ، صلاح الحيثاني ، وليد الحليفة ، سعد أنوس ، د . خالد التميمي ، نجم والي ، أحمد العبدلاوي ، صلاح نيازي ، خ . ل . بورخيس ، جيمس جويس .

صبري هاشم : خليج الفيل ، رواية ، دار المدى ، دمشق .

علي الشوك : الموسيقى بين الشرق والغرب ، دار الجمل ، كولون ــ ألمانيا .

ستينية طالب غالي

رسالة

فؤاد سالم

أيها الأعزاء.. بعد التحية الطيبة إني لأشكركم كثير الشكر لاهتمامكم الكبير بفناننا الحبيب طالب غالي.. نيابة عن كل المهتمين بالفن والالتزام ومنهم تلك الشمعة التي أنارت مساراً طويلاً في دروب الفن والنضال معاً.. وقد يخونني قلمي أو حسن تعبيري بأن لا أجد من الكلام ما يتناسب وطالب الغالي.. وبقدر ماأحكِّم عقلي فأنا لا أتمالك إمساك عواطفي اتجاهه، وقد أكون أنا الصديق والرفيق والزميل الأصدق مع طالب ومشواره.. أقصد مشوارينا.. ولا أدري.. اأكتب عن الغالي.. كشاعر وأديب.. أم أكتب عن مدرسته اللحنيّة الجديده في عالم الأغنية العراقية التي أهلته لينفذ الى عالم الغناء العربي وهذا ما تجلى في أغنيتي (غريبُ على الخليج) لشاعرنا الكبير السياب.. ودجلة الخير.. لشاعر العرب الأكبر الجواهري العظيم.

طالب .. ساهم في إرساء إحدى اللبنات البصرية للمسرح الغنائي في العراق، بعد أن ساهم في أوبريت (بيادر خير) للفنان الأستاذ حميد البصري.. جاء هو ليعزز ذلك الأساس وميزة هذا العمل أنه أتسم بعلامات مميزة سياسياً.. كان عملاً مباشراً حساساً في فترة قلقه ألا وهو أوبريت (المطرقة) وفي (المطرقة) تحدى طالب بعائلته كل القيود.. أما الميزة الفنية، بغض النظر عن جمالية ألحانه التي تميزه عن غيره، فيه انه أدخل إيقاع (الهيوه) لأول مرة بلحن (عمال واحنه تْعابه) وبعدها سار عشرات الملحنين العراقيين على ادخال هذا الايقاع في العديد من الأغاني العراقي، بعد أوبريت المطرقه منذ فترة

السبعينات لحد هذه الساعة.. إضافة الى تجربتي معه في عمل أكثر من (٢٥) أغنية .. فقد أدخل ايقاعات عربية خليجية في أغانينا كالخماري.. والسامري.. وغيرها، من الايقاعات..

عشنا معاً متقاسمين المرة.. والحلوة.. المعاناة بأشكالها.. الحرمان.. الصراع، كنت كثيراً ما أجد نفسي متعباً في اعصابي وذهني.. وكان هو البلسم الشافي لي. كان أحياناً أباً روحياً لي.. أحتاجه بكل لحظة.. كان يُبدد المأساة ويجدد الأمل. اني لأعجب كيف فرّقنا الدهر.. لعن الله الغربة التي فرضت علينا البعاد..

يتساءل الكثير عن انقطاعنا منذ فترة طويلة، فأقول إن بعدت بيننا المسافات.. فروحانا أقرب من الحاجب للنظر.. ولكنه عسر الحال، وما أدراكم ما عسر الحال!.. فهو في الدانمارك يقتات بالمقرر له.. وأنا أتنقل وأحارب بسيفي الخشبي الذي لا أدري متى سيخذلني، فلدينا الأعمال الكثيرة.. رغم أنها تئنُّ حبيسة الجرارات والورق.. ولكني أقول سننفذها يا أبا لنا ولو بعت قوتي اليومي وأنا صابر.. لأنك أنت أحد الذين علموني الصبر.. إليك في عيدك الستين تمنياتي وكل الذين يحبونك بعمر مديد ونتاج وافر وراق.. والمسيرةُ ماضية.

اسلم لي أيها الغالي.. طالب..

اصـــدارات وردتـــنـــا

نادي الكتاب العربي ، فصلية ، العدد ٨ ، لندن ، عرضت إصدارات لعبد السلام الترمانيني ، عامر عبد الله ، د . سعاد الصباح ، د . علي الحسني ، محي الدين صبحي ، محمد عابد الجابري ، أحمد الكاتب ، مجموعة من المؤلفين ، محمد بنيس . مع مراجعات وملخصات ولائحة بالكتب الصادرة حديثاً .

جنان جاسم حلاوي : في المعرفة الشعرية ، كتاب الحركة الشعرية ـ ٣ ، المكسيك/ السويد .

د . رشيد بندر الخيون : معتزلة البصرة وبغداد ، دار الحكمة ، لندن .

ستينية طالب غالي

ذكريات مع طالب غالي

لطيف صالح

هل حقاً بلغ طالب غالي عامه الستين، وهو الذي يتمتع بتلك الحيوية والنشاط والوجه الذي لا يعرف غير الابتسام، والنكتة «اللاذعة» والطيبة والتواضع والخجل الذي ينزف من عينيه. إني أشك بذلك. لذا أترك تقدير ذلك الى استاذنا الكبير الشاعر والفنان محمد سعيد الصكّار فهو أعرف بعمر هذا الطيب الذي يحب رطب البصرة ويعشق شط العرب.

تعرفت علي الفنان غالي ـــ عن بعد ـــ في الحفلات التي كانت تقام في قاعة مديرية التربية بالعشار، وكان في وقتها يغني أغاني عبد الحليم حافظ، وبما أني كنت مدمناً على سماع أغاني عبد الحليم، فقد كنت أتمنى أن التقيه وأسلم عليه وربما أقبله ـــ إذا سمح بذلك ـــ فلقد كنت انظر بخشوع الى من يصعد خشبة المسرح، وكنت اعتقد ان من يصعد خشبة المسرح هو شيء مختلف عنا ـــ أحلام المراهقة والشباب ـــ

دخلت المعهد العالي للفنون الجميلة سنة ١٩٦٥ وكذلك زميلي (فلاح هاشم) وفوجئنا باستدعاء العميد (أسعد عبد الرزاق) لنا. يملأه الزهو والفخر وبطيبته المعهودة قال لنا: ـــ جاءتنا برقية من مديرية الثقافة والارشاد الجنوبية يطلبونكم من أجل مهمة مسرحية.. أولادي أمامكم شهر واحد أرجوكم ان تبيضوا وجه المعهد..

ركبنا القطار أنا وفلاح هاشم الى مدينتنا الجميلة البصرة.. ووجدنا أنفسنا امام نص مسرحي رائع هو (العروسة بهية) من اعداد عبد الاله عبد القادر واخراج زميلي (قصي البصري).

كانت البروفات الأولى تجري في حديقة المديرية. وجاء الشاب الذي تنزف عيناه خجلاً ليعانقني ويعانق فلاح، ربي كم أنا سعيد!

وبعد انتهاء البروفة جلس فريق العمل يفترش ثيل الحديقة وكان فريق العمل يتكون من (عبد الاله عبد القادر، طالب جبار، منى أكرم واختها وأختها الأخرى.. عمال.. أساتذة.. ونساء عاملات..).

جلسنا نستمع الى ألحان غالي بدهشه وإعجاب وفرح غامر:

ـ يا عروسه يا بهية صارت زفتك سالوفات وأغنية ـ حدّر يهل البلام حدّر علينه.

نجح العمل نجاحاً منقطع النظير، حيث كان العمال يزحفون الى المسرح بعد عودتهم من العمل وهم يحملون السفرطاسات ـ الفارغة بعد يوم عمل شاق.

وجاء يوم سفرنا أنا وفلاح الى بغداد، وكان فريق العمل وعوائلهم وأطفالهم في توديعنا بعد حفلة رائعة في بستان على شط العرب.. فكانت الدموع الصادقة والعناق المحموم.

وجاء اوبريت (بيادر خير) إلى بغداد وجاء طالب غالي وأهلي وأصدقائي ـ مدينتي الجميلة الطيبة أتت الى بغداد ـ فسارعت للالتحاق بفريق العمل.. وكان حضور طالب بفرحه ونكاته يزود فريق العمل بطاقه رائعة..

نجح الأوبريت ونجحت مدينة الحب والعطاء ـ البصرة ـ

وجاء غالي مرة أخرى الي بغداد واوبريت (المطرقة) وكان لطالب وعلي العضب والمخرج البصري أروع العروض وأجمل ألحان غالي.

والحديث عن .. المطرقه طويل ـ ففي يوم تسجيل (المطرقة) للتلفزيون، وبعد الانتهاء من التسجيل دعا (محمد سعيد الصحاف) مدير الأذاعة والتلفزيون آنذاك فريق العمل الى غرفته ودار حديث طويل حول الاعتقالات. المستمرة في البصرة حيث قال: ـ هل تفضلون أن نعتقلهم نحن ام بهجت العطية!!

تخرجت من اكاديمية الفنون الجميلة عام ٦٩-١٩٧٠ وعينت محاضراً في جامعة البصرة.

وبدأت أخطط لأخراج مسرحية (المتفاح) كنت أريد بإخراجي لهذه المسرحية أن أضيف شيئاً جديداً لإخراج أستاذي (سامي عبد الحميد) للمسرحية نفسها، فأسندت ألحان العمل الى طالب وبعد فترة قصيره استمعت الى ألحان غالي وباركت الألحان من أعماق أعماقي وكنت سعيداً لأن هذه الألحان ستضيف شيئاً للعمل..

كان طلب غالي يرغب أن يكون الموسيقيون جزءاً حياً من العمل ـ على طريقة

مدرسة (برشت) وتكون أطروحة تخرجي من الأكاديمية عن (برشت) فقد كنت سعيداً بذلك، ولكن (قصي البصري) الذي كان يتمتع بنفوذ كبير في الفرقة، رفض العرض بحجة أنه يكلف الفرقة من المال ما لا طاقة لها به، وللسخرية كانت التكاليف ــ قنينة بيره وعشاء بسيط ــ بعد مناقاشات جادة لأني أنا المخرج ولكلمة المخرج السيف القاطع، جاءني طالب ليسحب الحانه، وبعد مناقشات طويلة أقنعني برأيه حفاظاً على وحدة الفرقة وخروج العمل الى النور. تعانقنا وسالت دموعي على كتفه.

كنت ألتقي طالب وعلي العضب وباقي الأصدقاء في نادي الفنون كل ليلة تقريباً وعند عودتنا الى بيوتنا نقطع شارع الوطني بالصفقة البصراوية وترديد طالب كلمات:

خَيّعون أمك يا علاوي..

وكان المارون على جانبي الرصيف يتجاوبون معنا بنفس الصفقة،

يا مدينتي كم تحبين الفرح

بعد زواجي من الفنانة (زينب) توطدت العلاقة العائلية بيننا وكنا كثيراً وبعض الأصدقاء نذهب الى بساتين شط العرب وكان ــ لرطب البرحي ــ وطالب وزينب حكايات طريفة.

(زينب) أحبت (طالب) وأحبت (أمّ لنا) بنفس القوة.

وعندما هبت الرياح المسمومة على الوطن تفرقنا في الشتات، وغابت عني أخبار طالب، لكني وبعد وقت عرفت أنه حط رحاله في الكويت فكنت أتابع أخباره وألحانه الجميلة وأسجل اغانيه ولا سيما رائعته (غريب على الخليج) التي أخرجتها بإحدى المناسبات مع فريق عمل نسائي.

التجأتُ إلى السويد وغابت عني أخبار غالي وبعد سنوات رن التلفون وإذا بشريط من «الفشار» عرفت أنه طالب ولا أدري إن كنت أتكلم أم دموعي تتكلم.. التقينا بعد غياب سنوات عجاف في الدنمارك وكانت فرقة سومر مدعوة من قبل البيت العراقي هناك حيث وجدنا أعضاء البيت ينتظرون في محطة القطار وكانت أم لنا وطالب في مقدمة المستقبلين فكان كرنفالاً رائعاً وتكررت الزيارات بيننا الى اليوم.

لو يصح ملگه

كامل الركابي

عُمر مجروح
تلگاني بغيابك
لو يصح ملگه
وافيضّ الروح بچفوفك
حنين ومستحَى وحُرگه
وتفز بذراعي لك وردات
تطرّز خصرك الشبگه
واغني ، وخل تزاعلني الفخاتي المحزنه
ياما ، بچيت لها ليالي الهجر والفرگه
واركض
واليعذلون . . . ،
اخليهم بواهسهم يعذلون
غمز . . بطراف العيون

ضحك . . بالهمس مدفون
بعذابي وشوگي . . لو يدرون
تشگ صدورهم . . شهگه ،
من كثر المحبة النابته بروحي
طلع نخله ، ولهب فشگه
. . بغيابك لو يصح ملگه
يرد لعب الطفوله الگلبي
واتلوّن ورد
واشتعل بالغيره ،
عليك وتنكسر روحي
يعاسكها الهوه وخطواتهاْ زغيره
لا تبعِدْ . .
عليك الله وحنيني وسُمرة الديره
لا تبعدْ . .
شمسنهْ غروب
وخيوط الظلامْ تلّف على گليبي
ظنون افراگ .
لا تبعد . .
ولك هوّ العمر چم دوب ينباگ
وشچم دوب
هوّ وسكتة المهظوم عشاگ
وشچم دوب ، يشتاگ
بغيابك

لو يصبح ملگه ،

ونجي بريحة فرات

تعطِّر الباب

وتنشنش روحي الميبّسه

بالغياب

ترطِّب بالأغاني ولمّة أحباب

ترگص للصبح

وتنبِّع افراح . . . ،

عرس

والغايب اتهنّه

وگعد من نومه مرتاح!

حِلمْ . .

ظل بْحِلم ، يا صاح

للملگه . .

العمر ذبحة حنين

وسفن محترگه

وشجر

گبل الخريف

تعرىً من ورگه

وجمر

يطفى بليالي من البرد

زرگه

ويظل بالوحشة يتناك

يغني أيامه المشجره فرح

من چانت وياك

مبعِد بيها لاوين ؟

وبلم روحي ونهر ملگاك

وضفافك بعيده وذكرياتي هناك

فصولْ تعدَّت

او ورگة شجر روحي

بعدها مخضّرة بذكراك

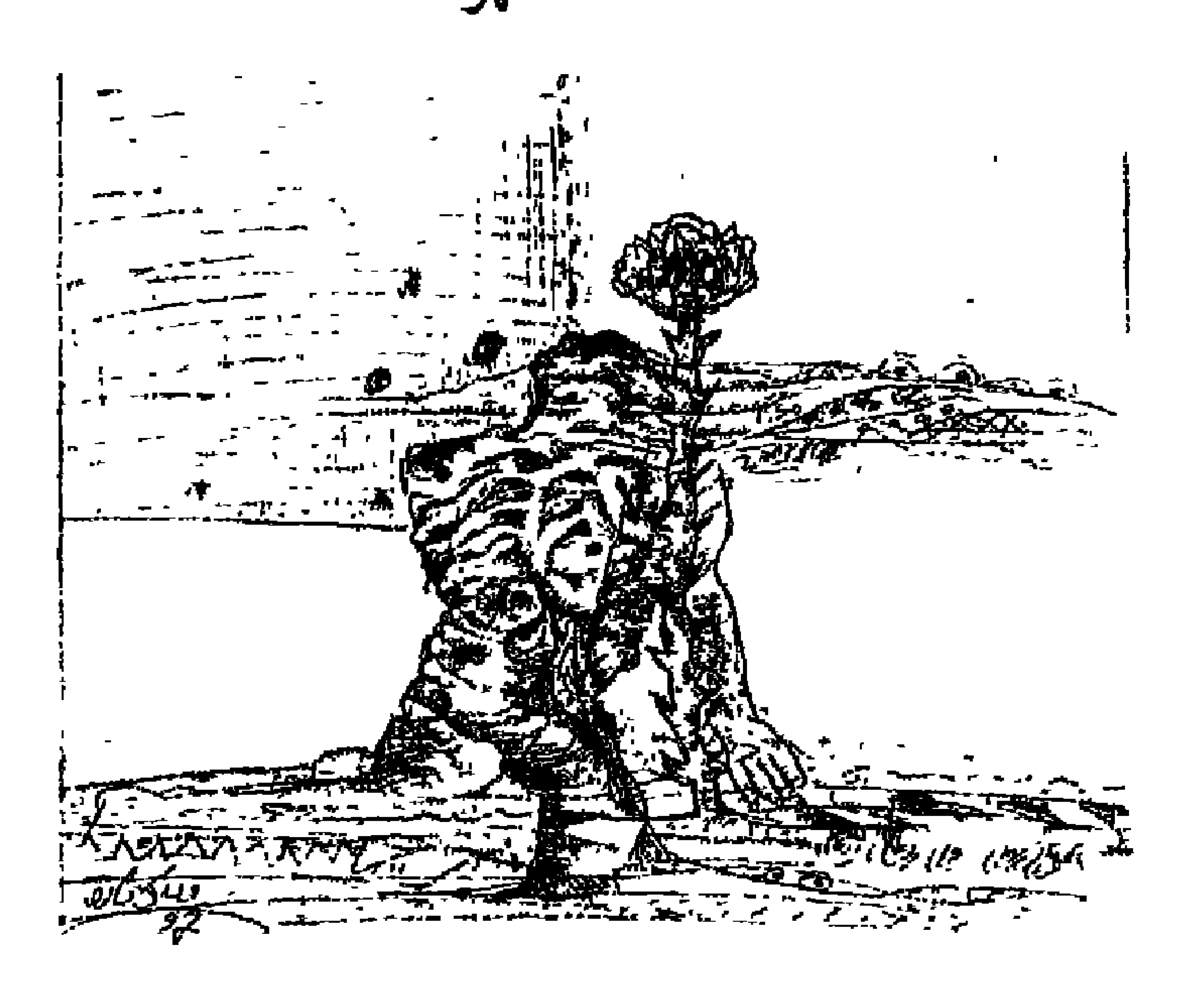
وارجاك من اموتن لا تعاتبها

طفت روحي بسهرها وضوّت الملكاك

ظلتْ مخلصه وطيّبه وحنينه وصافيه

وتهواك

تهواك!



حنين ـ معد الإمارة ١٩٩٧

حلم داكن.. حلم وردي

ابراهيم السعدي

حلم بظلوعي تنتچه من اشوفنك
واشيلنك . .
بخور او شمع حنه او هيل
صينيه لابو فاضل
احطك صحن بالكاظم
اشيلك تاج فوگ الراس
تون او تكسر الخاطر .
احطك سيف بين اضلوع
شبچنك . واشيلنك
حلم بظلوعي تنتچه من اشوفنك
اشوفنك گمر بالليل . . تضوي ابعيد
خافت نورك أو طافي
چا هيجي البعد صاير جرح منك

اگللك گضه عمري أو گضاه الليل

احبنك . . احبنك

واحطك جمر فوك اشفاف باسنك

وابوسنك

عراق الأهل انت ابخير لو دجلة

زعل منك

احبنك نبع بالروح

ما فد يوم نشفت روحي اظن منك

ولك ما ينشبع منك

احبنك . . احبنك

اريدنك حلم بالليل

حارس تنطر اجروحي

وازيدنك نزف كل ليل

بلجي اتوچي بحروحي

واحضننك . .

يهودج يحضن الناگه

وابوسنك ورد مرسوم فوگ اشفاف الوسادة

اشمنك واحشمنك

وامشي الحمزة أبو احزامين كلِ اليمه والساده

ينخل البصرة يا مفطوم

نيران السلف منك

يمظلوم ابجفاف الليل مامش احد الينباس

وايشيل الحزن عنك

يغابة حزن من علكَمْ
ليش العسل بس منك
يريحة عنبر اوتدي
يدهله ابلونك الوردي
يسباح النخل جمار چلب لبك ابخدي
يخدك نبعة البردي ريانه ابجرف منك
يشط العرب يا مهموم شفافك يبسن ابهمك . .
شصيرلك ولك كل ليل شايل همي او همك
يا ريت الوكت يندار
اصيرن بس جرف يمك
حلم بظلوعي تتچه من اشوفنك
يغابه او چلچلت بالليل
كل اظلوعي شالنك
احطنك بخور أو هيل
فوك اجفوف نثرنك
أحاچي ادموع ما نشفت بعد منك
وأگللك يشمع الليل يا غابة فجر مسحور
الفرات انباگ نخلاته
لو دجلة الغرگ بالنور
بچه وانطفن ضوياته
واصرخ انه احبنك
حلم بظلوعي تتچه من اشوفنك
اشوفنك قطار ايجر فراگينه

عُبّر بالليل حفنه اهموم
يطحن روحه بسفينه
لا هنديه وگفتله ولا چن من گمر ناطور
گيمر يضوي ابخده
اثاري اعيوني ما تخجل
بجت بالليل بلت وجه المخده
واشوفنك گطه بالليل
يحمل جرحه سچينه يرف بجناحه المكسور
انصاد او ما طفت عينه
بچه مقهور دمعاته ابطرف خده
اثاري اعيوني ما تخجل
بچت بالليل بلت وجه المخده
احس چن نايم ابغداد
روحي او خدي او خده
يسوباط ابنهر مهجور
تهد چتفه فوگ الماي
انباگ العنب من عنده
يخيعونه اليصل بغداد
أو يبرد جرحه العده . . يبرد جرحه العده

١٩٩٧/٨/٤

السيف والمهرة..

سامي عبد المنعم

اعله يا حوبة

اعله يا حوبة ألتفتْ للشوكَ ما خله الوكت حوبه

وصلاتك والذنوب اهواي . .

واشتنفع صلاته الكثرن اذنوبه

يگلبي اشمطول ادروبه

يجفني المافرح نوبه

يسنّي الماضحك نوبه

يا موكح زماني الماخجل نوبه

ساموك بطمع دنيه

باعوك بفرح دنيه

يلمبحر بلايه اشراع

يلصارت حسبتي اوياك

غيم ايعارج الگمره

طبع النخل من يعركَ يمل صبره
ولك والدنيه فارس ضيع اسنينه ابرسن مهره
يلشوگك فرح ديره
وزمر تفگه . .
ونهر سمره
ازامط بيك حد الريح المشرعب
يمر بجروحي واحجليه . .
سوالف ضيم مكتوبه ابگلب سمجه
وشفايف ناسيه الضحكة .
ـ شوگي فارس زرعوا الخوف ابخطوته
وذبحوا اعله جفونه طيف
وسلّبوا سيفه وصلاته
وضيعوه ابليه ظلمه بغير سيف
راح مهضوم ويحشّم بالطوايف
بلجن ايدبر له سيف
وعيّروه أبعار أهل ذيج العشيره
اشماله سيفك ماخذه أمن اسنينه حيف!
شال غيظ الدنيه بعيونه وهجر . . .
امسافر وجرحه متاع
شال دمّه ابين جفينه ومشه ابدرب الشمس
ايشيل كل خطوه ابسنه
وعبر شطين العمر . .
ايكابر وجرحه غميج

ابغفله لن كظّوا مهرته وسدّوا ابوجهه الطريج

رادوا يغيرون دربه

لاكن اجدامه اعشكَت ذاك الطريج

رسموا الخوف اعله جفه

وصلبوا الجلمه اعله شفته

وطاح بين الصوت والسكته جتيل

رد عله اسنينه العتيجه . .

ناگل ابجدمه تعب عشرين عام

رد عله اجروحه العتيچه

ايشوف كل جرح البروحه

وگام يجفل من خياله

وحتى خياله ايريد حيف

وحتي جفنه ايريد طيف

وحتى جفه ايريد سيف

اشماله سيفك ماخذه امن اسنينه حيف

وگام لن اذراعه سيف .

صفصافة

عزيز المنشد (أبو أفكار)

رُوحي صُفْصافَه عَلَه شاطِيَّكْ رُبَتْ
أوْ چانَتْ بْسدَّكْ :
عَصافير وأغاني أوْ فَيْ تِحْيِنْ
أوْ غَفْلَه ، غَفْلَه
مَدْ عَليهه الْهَجِرْ چَفَّه
او رادْهَه لِغيرُكْ تِحِبْ . . أوْ مارضَتْ . .
اشْگَدْ حناهه . . اشْگَدْ حِناهَه
اوْگُوهَ . . گُوَّه
لَمَّنْ انْكِسْرَتْ كَسِرْ مابين إدِيِه
اوْ حيفْ ضاعَتْ
لاهِيَّ إلي . . ولا هِيَّ الَكْ . . اوْ هِيَّ إلَه
هِيَّ . . هِيَّ الشجره من تحِبْ تغيشْ لگاعْهَه
تموتْ لو نگْلَوْ حِدِمهه لغير گاعْ

وانته گاعي . . يا مَعَزْتي لو متِتْ فوگكْ عَطَشْ
يا حلو . . كِلَّكْ خَضارْ
شُوفي طَشْ اعْلَه الطرِيجْ بْغيبِتَكْ . . كِلّه انتظار
دُومْ أعاينْ عَالْسچچ . . هَلْبَتْ تِجيَكْ
يا حبيبي
يا بُو حَلْك الدافي المابيه غَلَطْ
ردْ عَلَينه
تدْري ببنادم إذا يرجَعْ حَبيبَه
گبُلْ مَيْكلّه الجِفِنْ . . گَلْبَه يِفِزْ
وانْتَه بِعْيُوني قَريبْ
ها . . ولكْ چَنْ المسافاتْ البعيدة اتقلّصَتْ بيناتنه
ها . . چِنّي أشوفَكْ
لابسْ النَفْنُوفْ . . چَنْ روحكْ حديقه
او فوگهه طاح النِدَه
يا حلاتَكْ
يا حلاةْ الورد غَبْشَه
مِنْ يفِزْ فَزْةْ الشَمِسْ

دمع ضحجات

أبو شيخة الماجدي

راويـنـي الـفـرح وِخـجي بْشـِفـاگـه ويـاي
وِسـگـيـنـي الـوفَـه مْنِ خـچـايـةِ الـسَّـمْـحَـه
ونْـطـيـنـي الـحـنـان بـكـلْ فـضـاةِ الـبـال
حـتـى اهـوي وجـيـك وضـيـمـنـه نْـمِـسْـحَـه
وِنْثِـرْ لي الـصدگ حد مـا تـشـوف العين
بـلـچـي بـنص طِـرِيـجَـكْ نـعـثـر بـفـرحـه
وغـرِّگْـنـي بْـضـحِـچِـتَـكْ يـا نـسـايـم صـيـف
أريـد اطـفـح وَچَـلِّـبْ بـيـك مـن تـصـحَـه
وشـاورنـي بْـعِـتـابَـكْ لـو حـچـيـت ويـاي
مـوتـكـتـلْ يـنـاهـي بـصـوتَـكْ الـبـحَّـه
وَتْـغـاوى بـعـذابَـكْ مِـنْ تِـعِـذْبِ الـروح
وَصـوغَـلِّـكْ سـنـيـنـي لْـخـاطـرك سِـبْـحَـه
وسَـمِّـعـنـي الـسـوالفْ وَطْـلِـعِ الـمـضـمـوم

حتى الـگـط وَعَـلْـمَكْ ويـنـهـه الـچـبـحـه
وِرسِـمْـنـي بـخـيـالَـكْ خَـنْ اصـيـر ويـاكْ
گـطـب كـلـمـا تـدور بـرگـبـتـه الـرَّحَـه
ولـولحـنـي علَ جَفْـنَكْ بلچي الوح الـعين
وراويــك اشـخـذتْ خـرزاتـه الـوَكْـحَـه
وجيبَـكْ بالتِّجِرمص عين تشچي لْعين
وَشَـوْفَـتَّـكْ زمـانـي شْـغَـمَـگ بـجـرحَـه
ودرع بـزعـل حـد مـا تـشـيـل الـروح
وَجَـامـضْ عَ الـصـواب شـمـا نـزلْ رمـحـه
وَنِشْـدَكْ عَ السنين شظال منهه شراح
خَـلْ گـلـبـي الـشَّـراكْ ايـشـمَّـن بـربـحَـه
وَريـدَكْ لـو يـبَـسْـنَـه ونَـشَّـفـانـه الـگـيـظ
تِـرخ زخّ الـمِـزِن وتْـشَـبِّـع الـشـحـه
گـبـل بـابَـكْ تِـفِـتْحَه بـوجـهِ الْـمـتَـيْـهـيـن
هـسَّـه شـمـا يِـدِگْ مـا تِـفْـعَـل تْـفِـتْحَـه

. . . .

أحَـلْـفَـكْ بـالـصـداگـه وْچِـلْـمَـةِ الـمـنـجـوت
والـزاد الـلـذيـذ وحـوبـة الـمِـلْـحَـه
تحط گـلـبـي عَلَ دَيْك وتحسب الدگاتْ
إذا حـن عَـلَ نَـحْـرَكْ بـيـدك تْـذبـحَـه

تعقيب على رد فيصل لعيبي

في «ث جـ» (٢٠٠) ردّ السيد فيصل على مقالتي حول معرضه الأخير «بدر البدور وقمر الزمان» في «ث جـ» (٢٧٧). وبودي إيضاح ما يلي:

١ــ كتبت مقالتي استجابة الى طلبه الملح مني.

٢ــ حسب معايير علم الجمال، لم أجد في معروضاته سوى قليل جداً من الفن. فهي أعمال ضعيفة تقنياً، وكثير من أشخاصها منسوخ بلا تمحيص عن لوحات أوروبية لفنانين معروفين لاسيما بيكاسو وانغر.

٣ــ أعرب عن استيائه من رأيي في معروضاته مستشهداً بإطراء آخرين لها أو لما سبقها. فلهم آراؤهم ولي رأي يشاركني فيه آخرون.

٤ــ كان غرض المقالة النقد البناء وليس تحطيم فيصل كما زعم في رده.

محمد صادق رحيم

